قابل للفقد

(مجموعة قصصية)

رشا شمس

دار الشهد للنشر والتوزيع

اسم الكتاب: قابل للفقد .

اسم المؤلفة: رشا شمس.

المدير العام: نهى محمود .

مدير التوزيع: مصطفى عبد القادر - سلمان عبد الغني.

تصميم وإخراج فني: همت العزب.

تصميم الغلاف: عمرو أنور .

صورة الغلاف: المغنية *Lana Del Rey*

التصحيح اللُغوي: أولي النُهى للتصحيح اللُغوي (نهى محمود).

الطبعة الأولى: ٢٠١٨

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية: ٢٠١٨/١٠٧٩٤

محفوظة جميع الحقوق

١٧ش حسن وهبة من شارع الهرم الرئيسي

خلف كايرو مول.

موبايل / ٠١٠١٤٦٢٤٢٨٨

البريد الإلكتروني:

Nohamahmoud.171186@gmail.com

elshahdpublishing2016@gmail.com

كُلُنـــا فـاقـد..

وكُلُنـا مفـقــــــود

إهداء

إلى كل قلبٍ طُلمَت الوحدة شتاتها من الدنيا

وتمددت في أعماقه أهدي حكاياتي

رشا شمس

وجهة نظـــر

يؤلمنا الفقد، وتهلكنا معركته، لكنه يعلمنا الكثير.

يعلمنا كيف نكتم آهاتنا ونقف دون مساعدة، كيف نُلملم آشلاءنا وندوس على مشاعرنا ونمضي قُدُمًا في طريقنا الوعرة.

يعلمنا كيف نستوعب أن الحياة قاسية خشنة لا آمان فيها؛ فنسير في دروبنا ونحن نوزع الإبتسامات الكاذبة ونكرر ببرود "أنا بخير" عند سؤال أحدهم المعتاد "كيف الحال؟".

يعصرنا الفقد وتُفتتنا لوعته، لكنه يعلمنا كيف نُتقن حبس أنفاسنا وقهر دموعنا إلى أن نرتمي على وسائدنا ليلاً فلا يبقى معنا إلا الألم يزلزل دواخلنا.

يوجعنا الفقد ويُنهكنا الحرمان، لكنه يعلمنا كيف نشتاق بصمت، نعاني بصمت، نتكلم بصمت، لا تنسج حروفه سوى أبجدية المعاناة.

رشا شمس

الفهـرس

إهداء ٤

وجهـة نظـر ٥

طـوق الياسميـن ٨

قيـد الإحتيـــاج ٣٩

جديـر بالذكـر.. أنا مشتاق ٧٤

وتتوالى الأحـداث عـاصفـة ١٠٠

على فوهـــة بركـــان ١٥٩

أغـــدًا ألقـــاك؟ ١٨٩

اسم المجموعة من اختيار الصديقة

الكاتبة ميرهان عمر

(١)

وما كُحلُ عينيكَ إلَّا سياجًا

يُحيط بثورةٍ بدأتَ في قلبي...

طوق الياسمين

أدركت "آزاد" منذ أن وطأت بقدميها إلى لندن أن غيابها في شوارعها وضواحيها وربما بين ضبابها قد يطول أكثر مما يتوقع والدها العزيز أو أكثر مما تتوقع هي لنفسها..

فحين حلَّقتْ بها الطائرة من مطار القاهرة الدولي كانت أعصابها ككرة متوهجة، رأسها يسكنه الصداع وقد تشابكت أعصابه وتداخلت، وبات ومن الصعب فك تداخلاتها وتشابُكاتها بأمان، صورمتعاقبة تجري باستعراض خلال عينيها الزرقاوين، أقصوصات ورق ملونة كُتبت عليها بعض إقتباسات أعجبتها من روايات وقصص قرأتها فيما سبق، فناجين تحمل آثار قهوة وطفايات مملوءة بأعقاب سجائر مستنفدة، صورة بعيدة مشوشة لحبيب قديم دائم، آضواء، اعلانات، مطارات، ورسومات غير مكتملة وغير مفهومة، بورترية كبير لوالدتها تهتز ألوانه بشدة فلا تكاد تراها، كل شئ يجري بسرعة رهيبة بينما تحاول "آزاد" الهرب بعيدًا نحو جزيرة نائية..

ناولتها مضيفة الطيران كوب القهوة كما طلبته، سادة دوبل، استجمعت آزاد طاقتها لتبتسم ممتنة، لقد جاءت القهوة في موعدها، اقتربت من قهوتها واستنشقت رائحة البُن الذكية وحاولت أن تركز ذاكرتها المجهدة في اتجاه واحد، "آدم الصوَّاف"، كانت تعرفه جيدًا كما تعرف الأزهار صباحاتها الندية، قرأت كل إنتاجه الأدبي رغم غزارته نوعًا قبل أن تلقاه في معرض للوحات صديق مشترك، وحين التقته هناك بادرت بالتحدث إليه دون حرج أو ارتباك وكأنهما صديقين قديمين جمع بينهما حب التمرد والسير عكس الاتجاة، على حد قولها إنها تعشق "مخالفة القطيع"..

هي أنثى الدلو تمامًا كما ينبغي لها، حالمة رومانسية تحتاج دومًا إلى المشاركة رغم حضورها وقوة شخصيتها، بينما هو رجل جوزائي، صعب المراس، مشاكس مراوغ، والأمور الرومانسية ليست من إهتماماته، وعلى الرغم من ذلك فقد تعارفا سريعًا وتآلفا وجمعت بينهما وحدة الطبع وربما حدته، غير أن آدم متمرد سخريةً على كل ماهو شائع ودارج بينما تمرد آزاد كان في أصله مرحًا وصخبًا، إلتفتَ حوله فوجد الجو قد صار كئيبا تغلفه الكُلفة والرسميات التي يكرهها ويتهرب منها،

لا ارادِيًا تحرك نحو آزاد وجذبها من يدها وخرج بها إلى مقهى كبير في وسط البلد يرتاده المثقفون والكُتاب وهي تتلفت حولها هنا وهناك تبحث عن سبب لهروبه المفاجئ بها من زخم الأحداث الجارية في صالون معرض اللوحات..

:لما جئتَ بي إلى هنا؟ وما هذه الموجة الرعناء التي حملتني عليها لتقذف بي في هذا المقهى بالذات تجرني جرًا تحت المطر دون أن تشاورني أو تسألني عما أريد؟ من أين لك كل هذه الوقاحة؟

تلك كانت كلماتها التي أطلقتها بزمجرة في وجهه فور وصولهما المقهى، لم تكن أكثر من زمجرة وانتهت، كانت عيناه بئرًا عميقة سخية، ويده التي تمسك بمعصمها بقوه كانت كطوقِ ياسمين يحيطها في سمو، تمسكتْ بتمردها في كبرياء، لكن آدم أدرك بفطنته وخبرته هشاشة هذا التمرد، فابتسم معتذرًا ودعاها بأدب لا يُقاوم إلى الجلوس، فجلست.

تعددت اللقاءات وطالت الجلسات والمحادثات الهاتفية ليلًا والمناقشات صباحًا، إعتادا بعضهما البعض، يضحكان بصوت عالي تارة ثم يبتسمان بهمس تارة أخرى، أخبرها أن لقاءه بها كانت فرصته الوحيدة للتمسك بالبقاء والتمرد على الضياع..

:آزاد، أنتِ صرختي الأخيرة قبل أن أُولد أو أحتضر!

لقد اعتادت شروده، زمجرته، هدوءه، تقلباته المزاجية المتتالية في اليوم الواحد، كل ذلك يضيع ويتبخر وكأنه لم يكن فور أن يمطُرها بدفء نظراته ويشد على يدها ثم يجذبها إلى صدره ويدفن رأسه الناري في عنقها الطويل؛ فتُشع ضياءً وشررًا وحُبًا، يُسدد ضرباته القوية الساحقة على سنديان قلبها قائلًا:

ليتني عرفتكِ منذ زمن، ليتني عرفتكِ قبل كل النساء لتصيري أنتِ كل النساء..

يُلبسها طوق الياسمين الذي أدمنته، يقترب ويتظاهر أنه يهمس في أذنها ثم يسرق منها قُبلة تتبعها أخرى حارة ثم يتوهان معًا في ثالثة حارقة كلحظة إنفجار بركان كان خامدًا، ، لقد تغلغل "آدم" في عروقها ونفذ إلى أعماقها السحيقة، لمس قلبها بحروفه والتصقت حواسها به تخشى أن تفارقه، تعشق المرأة الرجل الذي يقتحمها يخطفها، ربما تقاوم، فللمقاومة متعة وبهجة، لكن سرعان ما تعلن إستسلامها طواعية وتركن بشوق إلى عواطفها التي تحركها نحو رجل تحبه، تعشقه..

أرادت "آزاد" أن تعيش تلك اللحظة ألف مرة، لا تخجل من إظهارعواطفها نحوه، ولا يمل "آدم" من إعلان حاجته إليها،

يكتشفان معًا المزيد عن أنفسهما في غمرة إنهماكهما في اختبار مشاعرهما المتدفقة نحو بعضهما البعض، كانت عيناه خدرًا كالموت، حضوره رائع وخياله شاسع، لم تعرف معه الرتابة ولا الملل، كان حبه شرسًا وعنيفًا ككتاباته، وما أروع شراسته وهجماته، وما أجمل رعشاتها بين يديه حين تُلامس أنامله عنقها وشفتيها، لقد اجتاحها آدم كزلزال ضرب أرضًا خصبة..

كانت قبله تكره الحيوانات، تشعر بالغثيان ويصيبها الإشمئزاز إذا ما لامست قطة قدمها وتُسرع بخطواتها تنهب الطريق إذا ما إقترب منها كلب، تذكر جيدًا حين أهدتها والدتها جروًا في عيد ميلادها الرابع عشر كم إرتعبت وفرت إلى غرفتها معلنة وبوضوح إستضافتها للجرو المسكين حتى الصباح وكيف أنها أصرت على رحيله حين بزغت الشمس، لكن مع "آدم" توالت المتناقضات، وانتقلت إليها عدوى حب الحيوانات والحرص الشديد على إقتناء الأليف منها، فقد ولعت "آزاد" بتبني القطط والكلاب ودهشتْ من نفسها حين شغلها أمرهم وصارت تراهم مخلوقات جذابة تضاهي العصافير في جمالها ورقتها، ودون سابق إنذار طرق آدم بابها ذات يوم في الحادية

عشر مساءً؛ ليُهديها قطة وديعة من فصيلة نادرة، أخبرها أنها تشبهها جدا، لقد استوقفته المسكينة بنظراتها وخطفت عينه وقلبه حين رآها متكورة في قفص حديدي لدى بائعها فأسرع إلى شرائها ليُحررها من ذاك القيد السخيف الذي ربطها به صاحب محل القطط، صارت "بيسو" تشاركها فراشها الوثير ليلًا فلا تنام إلا إذا قفزت قطتها إلى جوارها وغاصت في حضنها، أعدت لها مقعدًا أنيقًا في ركن جميل بجوار النافذة صيفًا وبجوار المدفأة شتاءً

بإختصار صارت "آزاد" تعشق كل طريق يوصلها إلى قلب "آدم" الذي لا يُفوِت صوتًا داخلها إلا ويستدرجه بلطف أو برعونة إلى مقطوعته الموسيقية الضخمة التى يعزفها على أوتار قلبها كموسيقار بارع، معه ينتفي إحساسها بالغربة الذي طالما إحتلها منذ إستقرارها في قاهرة المعز بعد سنوات مزهرة لطفولتها وصباها في دول كثيرة تنقلت بينها، إنتهى بها المطاف آخر ثلاث سنوات إلى الخليج، كانت في السابعة عشرة من عمرها حين قطعت دراستها في جامعة زايد بدبي وأنهى والدها الدبلوماسي المحنك سنوات غربته الطويلة وعاد بها إلى أرض الوطن يرافقهما على نفس الطائرة تابوت خشبي يضم جسد والدتها

الحبيبة بين جنباته، لقد ماتت أمها في الحال إثر سكتة دماغية باغتتها ولم تُجدي معها محاولات فريق طبي كامل حاول بكل جهد وإخلاص تخليصها من تلك الجلطة اللعينة..

لم تشعر" آزاد" يومًا بحنين إلى الوطن، لم تُصِبها القشعريرة حين كانت تسمع نشيد "بلادي.. بلادي.. لكِ حبي وفؤادي"، لا تعرف الإنتماءات الجغرافية ولا تعترف بها، لا تخفي مشاعرها خلف منعطف الدارج والمألوف، لا تؤمن بالمتوقع والواجب، ولا تتحرج حين يعاتبها بعض أفراد الجالية الدبلوماسية وينكرون عليها جهلها ببعض الفترات من تاريخ مصر الذي لم تدرسه ولم تقرأ عنه، فهي لم تعرف عن مصر أكثر من حصيلة مجموع الثلاثين يومًا التي تقضيها مع أسرتها كإجازة هناك كلما سمحت الظروف، ينقضي نصفها في السفر بين شرم الشيخ والغردقة وفي آخر السنوات صارت الجونة مقرًا رسميًا لثُلثي الإجازة، ثم فجأة أصبحت هذه الأرض سكنها وموطنها، تسير في الشوارع فترى أشباحًا مبهمة من أُناس لا تربطها بهم روابط ولا تجمعها بهم ذكريات، أناس إنقطعت صلتها بهم رغم أنها تتوسطهم، تبدو فتاة شابة تجري الدماء بحيوية داخل عروقها

بينما هي داخليًا ميتة منذ أمد بعيد، تخشى أي شعور إنساني يجمعها بأحدهم، تهرب من أي عاطفة قد تولد وتنبت في قلبها تجاه الأماكن أو الأشخاص، فكل شئ مصيره إلى رحيل، وكل علاقة مصيرها إلى زوال، علَّمتها غربتها مع والديها وتنقلها الدائم معهما من بلد إلى بلد ومن مدينة إلى آخرى أن لا جذور تبقى ولا صلات تستمر؛ فتساوى عندها الشعور بالدفء والبرودة، فلم تعد تحزن على فراق أحد، ولا تفرح لبقاء أحد، فقط تمتلك حسًا عاليًا بالأدب وتتذوقه بتمتع وهذا يكفيها ويُغنيها عن علاقات بالبشر لا طائل من الإنخراط فيها، هذا كله يجري ووالدها يقف عن قرب يراقبها في صمت وخوف من تقوقع إبنته الوحيدة وتلحفها بنيران الوحدة والإغتراب، فآزاد تقف تائهة وسط طريقٍ مبهم، تسدد وحيدة ثمن غربتها وتدفع الغرامات نظير إختلافها وتفردها..

كل ذلك وأكثر حتى قابلت "آدم الصوَّاف" على صفحات روايته الأولى، وتنبهت حواسها إلى عشق جميل تسرب داخلها لذلك الساحر الذي لم تكن قد رأته بعد، ذاك الرجل المتخم بالتمرد، المعجون بالإختلاف، أحست فجأة بأن قلبها بدأ ينبض

بالحياة حين رد على رسالتها التي أرسلتها له على صفحته الشخصية في الفيس بوك، فلم يكن من عادته أن يُجيب كما لم يكن من عادتها أن تُراسل أحدًا! ثم انخرطا في تبادل رشيق للرسائل على فترات متباعدة فتأتي رسالتها له كل مرة وكأنها غيث فيَّاض من سلام يفتقده، حتى كان لقاءهما الأول الذي جاء صاخبًا كآدم، ناديًا كآزاد، حينها فقط هطل المطر الدافئ على أرواحهما المقفرة يغسل عنهما بقايا إحتراق داخلي كان قد سكنهما..

كان آدم محتشدًا بأفكاره ومعتقداته، متشابكًا بتجاربه كغابة أمازونية لا تكاد تصل الشمس إلى أرضها، تحتاج أنثاه إلى شجاعة صلبة وجرعات وقائية من القوة والصبر والقدرة على إمتصاص الثورات والإستجابات المختلفة لمنعطفاته النفسية وتقلباته المزاجية، فلذلك الساحر دراما خاصة به، فحين كان في الثانية والعشرين من عمره تنبهت رجولته على رحيق القبلات في زاوية البيت نهارًا أو في غرفتها ليلًا، غشيته الهمهمات وشهقات المتعة ولمسات الإثارة وكأنه استوى للتو رجلًا، أحس فجأة أن جسده نبض بالشهوة فصار يتحرك لاهثًا أويقفز ملاحقًا "إيما "، خادمتهم الأفريقية السمراء التي تتحرك صباحًا وقد غلَّفها الأدب

والإحتشام، تنزعج بشدة إذا سقط عنها منديل رأسها فتسارع إلى إعادته إلى موضعه الصحيح وربطه بإحكام، وفي جنح الليل وحين يخلد الجميع إلى النوم يتسلل "آدم" إلى غرفتها منتشيًا بالفضول، فيُحرك مزاج الباب الذي تركته دون أن تُغلقه بالمفتاح كما شددت عليها سيدتها، فيجدها قد توسطت سريرها عارية تماما مستلقية في إثارة وقد اختفي خجلها ووقارها، يقترب منها وقد تهدجت أنفاسه فتنتصب في زهو ودلال تناغش قلبه برقصها الوحشي مستعرضة في فخر مفاتنها الأنثوية الفتاكة وقد زادها سمارها فتنة وإثارة وكأنها تمثال مرمري من رخام زاده سوادُه إجلالًا ونُدرة، تمثال غدا بين يديه أنثى مثيرة بلحمها وشحمها، أنثى برائحة خاصة ومذاق فريد، فلا يفارقها إلا مع طلوع الفجر وقد أنهكتهما ليلتهما الحمراء، ثلاث سنوات قضاها آدم في أحضان "إيما" يعربد كيف يشاء دون قيد أو وعد، سنوات من المتعة الخالصة دون تطلعات أوخيبات حتى فاجأته بجنينٍ تحمله في احشائها، قطعة منه نبتت هناك في رحمها دون علمها ودون إرادته، عيون تغمض وأمنيات ترتفع إلى السماء بحثًا عن خلاص من ذاك المأزق وتلك الفضيحة، رافقها سرًا إلى طبيب

متخصص للتخلص من آثار الجريمة، وقف يتأمل خيبته وضعْفها حين اعتذر لهما الطبيب معلنًا إستحالة إجراء الإجهاض ففيه خطر داهم على حياة إيما فقد أتم الحمل شهره الرابع، طمأنها "آدم" وأقسم لها أنه سيجد للأمر مخرجًا آمنًا، وفي الظلام ألقى بجسده المشدود فوقها للمرة الأخيرة يُودعها بطريقته، تنسكب بصماته فوق جسدها بإنسيابية طمأنتها، همهمات مبهمة مختلطة بصراخ لذيذ وتأوهات ألذ تُصدرها إيما في نشوة بينما يسري بكاء خفيت ذو طعم مرير داخل آدم في أمسية طويلة فاجرة أنهاها صباح فاتر رحلت فيه "إيما" عن دنياه إلى الأبد إثر تجرعها لكأس من خمرعتيق سكبه لها ممزوجًا بتركيبة فريدة فتَّاكة حضّرها له "شادي" صديق عمره، طالب الصيدلة العبقري لتُعلن التركيبة فعاليتها وترحل إيما في صمت إلى عالم لا عودة منه، وبطريقة ما ساعدته كل الظروف المحيطة للتخلص من الجثة وآثار المعركة، فقد كان والديه في رحلة عمرة، كما ساعده وضع والده وسمعته كلواء شرطة على إنهاء كافة إجراءات دفن الخادمة بهدوء ودون أدنى مجهود وتم إخطار السفارة بالأمر وإنهاء ذلك الفصل المرعب من حياته بإسلوب خاص لكاتب ذو خيال

خصيب، عرف كيف يُخْرِج مشهد النهاية دون أن يطوله الشك أو تشير نحوه أصابع الإتهام، فلا يمكن أن يفتش أحدهم وراءه فلا حاجة لذلك..

فإيما تنحدر من قبيلة "كونسو" إحدى قبائل جنوب اثيوبيا والتي تُزوج فتياتها فور بلوغهن الخامسة عشر، لكن زوجها الشاب مات قتيلًا في إحدى المعارك الطاحنة التي جرت بين قبيلته وأخرى من تلك القبائل المنتشرة حول نهر "أومو" حيث موطن إيما الأصلي؛ فورِثها والده طبقًا لعادات القبيلة وقوانينها، فوجدتْ نفسها بين عشية وضحاها زوجة لرجل يكبرها بنصف قرن تُشاركها فيه أربع زوجات أخريات؛ كرهت إيما قبيلتها التي جعلتها إرثًا وتركة، وهربت بمساعدة إحدى جمعيات التبشير التي تحاول نشر المسيحية بين تلك القبائل الوثنية، وفي خطوة لاحقة فرت إيما إلى مصرعن طريق مكتب لإستقدام العمالة الإثيوبية وحظيت السمراء الجميلة بشرف الخدمة في فيلا سيادة اللواء "أنور الصواف" مساعد أول وزير الداخلية، وهكذا استقرت الخادمة الزنجية في أحضان ابن سيادة اللواء..

متى وكيف ولماذا كان ما كان...؟

لا يدري "آدم" لكنه بعدها صار شيئًا آخر، شعورمشحون بالحسرة والحنين والندم المرير جعل منه مؤلفًا وقاصًا عبقريًا ذو نمط غامض فذ، غياب طويل داخل دهاليز رواياته طهره من حسرته وخلصّه من شعوره بالندم، أو هكذا خُيّل له، ثلاثون شهرًا بعد تلك الواقعة تمت حين احتفل آدم بزفافه إلى "جيرمين الأباصيري"، الإبنة الصغرى لأحد الوزراء المهمين، زواج رتَّبه العقل والمنطق ووافق هوى ورغبة الأسرتين، لقاء فتعارف، خطبة شهرين ثم حفل زفاف فخيم امتد إلى الساعات الأولى من صباح اليوم التالي شهده صفوة المجتمع وعلية القوم في أكبر فنادق القاهرة، وفي جناح العروسين تمدد آدم على مقعد وثير ينفث دخان سيجارته الأزرق ويتأمل زوجته الحسناء وهي ترتب خصلات شعرها الناعم المنسدل في غرور إلى نصف ظهرها، شقراء طويلة، عينان زيتونتان، فم صغير قاني شهي كحبة الكرز، أنف دقيق شامخ في تناسق، اقتربت منه في تودد فباغتها، خطفها بين ذراعيه وألقى بنفسه فوقها على سرير فُرش بالورود الحمراء؛ فضحكت في خجل وتوقع مُرضي لما هو آت، لكنه سرعان ما ابتعد ونزع نفسه من عليها، غمره إحساس مرعب حين استوت

تحته "إيمـا"، هكـذا تحولـت الـشقراء البـضة إلـى تلـك الـسمراء الغجرية، يبدو أن ذاكرته صارت سجينة تجربته معها بكل تفاصيلها، كاد يختنق وحاول عبثًا أن يُعبر عن ذاتـه ويرضـي عروسـه في ليلتهمـا الخاصة لكن عذاب أخرس أجهز عليه فنام كمدًا.

لـم يكن يدري أنه ملتهب بتلك التجربة، مهموم بهـا إلـى هـذا الحـد، حـاول جاهـدًا نـسيان تلـك المـرارة وتجاهـل عـذاباتها، وبمرور الأيام تجاوز ألمه وبلغت سعادته عنان السماء حين زفت إليـه العـروس نبـأً سـعيدًا، فقـد اسـتقر وليـده في آحـشائها، تنهـد الصعداء فقد انشغلت عنه "جيرمين" بحملها الذي نبهها الطبيـب إلى عدم استقراره وحذرها من كل ما قد يعرضها لفقده، فابتعدت عـن آدم جـسديًا وقلَّـت لقاءاتهمـا الحميميـة حرصًـا علـى الحمـل وحفاظًا على الجنين، ثـم مـا لبثـت جيـرمين أن واصـلت ابتعادهـا عن زوجها وانشغالها الدائم ب"عمر" منذ أن أعلن بـصراخه عـن مجيئه إلى الدنيا فصار قرة العين وبطانة القلب..

خمـس سـنوات مـرت ولـم يـشعر "آدم الـصواف" بعاطفـة تربطه بجيرمين إبنة الحسب والنسب، تربيـة الـسكركير ومـدارس

الراهبات، تنام إلى جواره دون أن تهفو نفسه إليها، تضع رأسها على ذراعه لتنام فإذا به يُعيدها إلى وسادتها دون أن يرف له قلب، ثمة علاقة إنسانية وحيدة تجمعه بها، لا جسر بينهما غيره، إنه "عمر" قطعة الحلوى الوحيدة في حياته، وجيرمين أمه ويالها من أم رائعة حقًا، تُلازم وحيدها و تشرف على حاجياته بنفسها رغم وجود مربية متخصصة أُستُقدمت خصيصًا من بلاد الإنجليز تعاونها أخرى مصرية..

وليلة عيد ميلاد "عمر" الرابع تعكر مزاج آدم بشدة وجرت مشادة كلامية عنيفة بينه وبين زوجته حين اتهمته بالبرود ووصفته بالأنانية والفظاظة، فلا لأحد عنده من مكانة ولا خاطر، حتى "عمر" فقد أهمله ولم يعد يُجالسه أو يرافقه إلى تدريب السباحة، لم ينفذ وعدًا قطعه للصغير بحضور التدريبات، لم يعد حريصًا على أن يلعب معه "كرة القدم" هوايته المفضلة، لقد انصرف عنه تماما إلى رواياته وشخوص قصصه وحكاياته منذ أن صارت روايته الأخيرة "صيد الضِّباع" حديث وسائل الاعلام ومواقع التواصل الاجتماعي وسجلت مبيعاتها أرقامًا قياسية، وهاهو قد وقع عقدًا مع كبرى شركات الإنتاج لتحويلها إلى فيلم سينمائي،

لقد انشغل عن فلذة كبده بنجاحاته وأحلامه وطموحاته، توفَّت والدته ودُفنت وهو في خلوته السنوية في جُزر المالديف، وفي نزهته يعتزل العالم ويُغلق هاتفه المحمول ويصعب الوصول إليه، يغوص في أعماق ذاته ولا يطفو على السطح إلا حين يريد، ببساطة حين يرغب!

آلمه حديث زوجته وامتزج داخله بأشواك زرعها ضمير يؤنبه حقًا، تصرخ جيرمين وتلقي في وجهه سيلًا لا ينقطع من الإتهامات بينما يصرخ هو بما عنده من قوة مناضلًا للإبقاء على دفاعاته النفسية حيَّة وحواسه مستيقظة حتى لا تنال جيرمين منه وتغرس سكينًا عكرًا في نفسه؛ فتصيبه بالضعف ويعترف بالتقصير ويُقر بالذنب بينما المجهول يحيط بعلاقتهما من كل جانب، أوشكت المشادة أن تتطور لولا "شادي" الذي كان حاضرًا للواقعة، فهو الصديق الصدوق والقاسم المشترك الأعلى لجلسات الصلح التي يعقدها "آدم" مع جيرمين بين حينٍ وآخر طلبًا للهدوء وراحة البال، لقد تقبلت زوجته وجود شادي في حياتها كصمام آمان لعلاقتها بآدم الذي صار عصبيًا أهوجًا وقد يفاجئها بالطلاق الذي تخشاه، رضيتْ بشادي كما رضيتْ بآدم،

"مكتوب عليها" أن تتعامل مع زوجها ومزاجيته وحدة طبعة وشراسة توتره عن طريق صديق، فِلتر يمتص غضب زوجها وثورته ثم يُمرره إليها رزينًا لينًا وقد سكنه الهدوء بفعل الكأسين أو الثلاث أو العشر التي يتبادلها الصديقان في بهو الفيلا أو في "الصومعة"، غرفة خاصة أثثها آدم في الطابق تحت الأرضي يعتصم فيها لبضعة أيام إن أراد أو ينزوي فيها لبعض ساعات حين يؤرقه شئ أو يشغله شاغل، تنبعث في آرجاء الغرفة سحابات كثيفة من سجائر غليظة ممتلئة أخبرها ذات مساء أنها حشيش، تغاضت جيرمين عن الأمر، فللرجال دومًا نزواتهم ولا ضرر أن تكون النزوة سيجارة وكأس، كل ما كانت تبغيه هو أن يتوقف آدم عن تجاهلٍ يؤلمها، مازالت تأمل أن يستمر زواجهما ربما لعشر سنوات أخرى أو يزيد، وأن تنجب أطفالًا يشتد بهم عضد عمر فلا ينشأ في الدنيا وحيدًا كما نشأتْ هي أو كما نشأ أبوه، لم يكن يفزعها الطلاق في حد ذاته إنما كان جل فزعها من تبعاته وآثاره المُمَزِقة لنفسية طفلها، لقدعانت من تلك التبعات طويلًا حين إنفصل والِداها ثم تزوج كلاهما غير الآخر وهي لم تكمل الثامنة بعد، تشتت مؤلم وتمزق جارف وطفولة تفوح منها رائحة العوز

والحاجة إلى الآمان والألفة والإحتواء، تكره تذكُّر سنوات طفولتها، تكره التفاصيل والنبش في صناديق الذاكرة، يمكنها أن تحتمل جنون آدم ورعونته، لكن لا يُمكنها تصور أن يمر صغيرها بما مرت به وأن يعاني ما عانته ويظل يحمل حقيبته متأرجحًا كبندول الساعة بين بيتيّ والديه..

شريط سريع من الذكريات والتفاصيل المؤذية مر أمام عينيها سريعًا جعلها تلملم أطراف حدتها وتتراجع بحكمة عن ثورتها اللحظية ضد آدم خوفًا من تماديه في الغيّ والغضب فيقع ما لا تبغيه، ووافقت فورًا على اقتراح عرضه "شادي" على الزوجين لإنهاء ما بينهما من خلاف وللإحتفال بعيد ميلاد عمر، شيء بسيط لكنه مبهج جدًا يقدمانه للصغير، فمن المؤكد أنه سيكون سعيدًا إذا استيقظ صباحًا فوجد نفسه في دهب أو الغردقة، كم تمنى عمر تلك الإجازة وكم رغب في تلك العزلة، وحده مع والديه والكرة على شاطئ البحر..

كانت عقارب الساعة تُشير إلى الثانية صباحًا حين تحرَّك آدم بسيارته نحو "دهب" تنفيذًا لمقترح شادي وحرصًا على رأب الصدع مع جيرمين ومن أجل عيون عمر يهون كل شيء..

عجلات السيارة تنهب الطريق نهبًا، أراد آدم أن يفتح عمرعينيه على منظر بديع حين تشق الشمس حجاب الظلام معلنة عن ولادة يوم جديد على شاطئ البحر، نبَّهته جيرمين أنه قد تجاوز السرعة المسموح بها، نبَّهته مرارًا، كما ألحَّت عليه بالتقليل من سرعته لكنه زادها، كان منتشيًا بنظرات القلق والخوف التي تشع من عينيها، تضخ رجاواتها الإدرينالين في دمه ويتعاظم مع توسلاتها إحساسه بالسيطرة على الموقف، وفجأة انفلت مقود السيارة من بين يديه وفَقَد تحكمه بها تمامًا، وفي هذه اللحظة ارتطمت سيارته بالرصيف وقفزت بهم إلى الاتجاه المعاكس فدهستها شاحنة كبيرة جاءت مسرعة دون توقع مسبق لما جرى، لا أحد كان بإمكانه إنقاذ عمر الصغير وجسده يطير في الهواء من شدة الإرتطام ثم يسقط أرضًا في براءة قتلها إهمال والده وغروره، صرخات ألم تمتزج بالخوف والرهبة انطلقت من جيرمين تنادي "**عمـــــر.... عمـــــــر**" فلا مجيب.

اقترب آدم منها في جزع وخوف، كان الوحيد الذي يمكنه التحرك بصعوبة، يشعر بألم صارخ في كتفه الأيسر إثر ارتطامه بباب السيارة قبل خروجه منها، أنقذه حزام الأمان، لم يتمكن من

إسكات تلك البركة من الدماء التي انفجرت من رأس جيرمين، فتحت شفتيها بصعوبة لتُخرج كلماتٍ ملعونة لم يتخيل أن يسمعها يومًا، "**ربما هي تهذي**"... عبارة كررها لنفسه مررًا، لكن اصرارها على ما تقول جعله يفطن إلى واقعه القبيح.

:لن أهرب.. لن أهرب بعد اليوم ولن أخجل مما أقول، فسابقًا لم يكن لي اختيار أما الآن فلي كل الإختيار، لقد اخترتُ أن أتطهر من ذنبي الآن أمامك فربما حينها يغفر لي ربي فعلتي ويتقبلني عنده في الجنة، فكل ما أريده وأتمناه هو أن يجمعني بوحيدي عمـــر..

لقد خانته جيرمين مع شادي، هكذا اعترفت له وهي تُصارع الموت، أول الخيانة كان بعد عام من ولادة عمر، كانت حينها شاردة، ضعيفة حزينة، يُهلكها حرمان عاطفي فرضه عليها آدم بأنانيته وغروره، أجهدها شعورها بالذنب وفظاعة مسلكها إلا أن استمرار آدم في إهانتها وتعذيبها أسكت كل شعور بالذنب نما داخلها، اقترب شادي منها متوددًا مُعلنًا عن تفهمه الكامل لإنسانيتها وحاجتها الماسة إلى الإحتواء والإهتمام والحب، حنان شادي وفظاظة آدم جعلا الأمور كلها تسير في ذاك الإتجاه،

لقد عرف شادي لغتها وأتقن حروفها وأبجديتها، يُهدهد حرمانها ويُدلل أنوثتها، وكان من الصعب بل من المستحيل أن تنفصل عن آدم الصوَّاف، والد وحيدها الذي تعشقه؛ لتتزوج صديق عمره وصندوق أسراره، لقد عاقبت آدم بنفس الطريقة الذي احتكرها وحرَّمها على سواه، إنه "عهر وخيانة" إذا مارستها إمرأة مثلها، و"شقاوة ونزوة" إذا مارسها رجل مثله، لقد طالبت جيرمين بحقها في الخطأ، حقها في اللذة، حقها في الإنتقام، حقها في أن تسلك سلوك آدم الذي قتلها ألمًا ولليال طويلة حين كان يقفز بكامل وعيه وتمام رغبته إلى أحضان امرأة سواها، ولم يدرك وهو الكاتب العبقري أن شيئًا وحيدًا جليلًا يجوع إليه الجميع النساء والرجال، شئ يتجاوز كل الآشياء ويكسبها إنسانيتها وألوانها، إنه الحب وباطنه الإهتمام..

سقط "آدم" في غيبوبة إرادية أو لا إرادية لأيامٍ ولياٍل لم يعدها أو يحسبها، كان يفيق من كبوته على صوت جيرمين تضحك ببذاءة متسائلةً: **هل جرَّبت أن تكون شاه يركبها الخراف، ها أنت قد جرَّبت...؟**

كانت ثمة رسائل واتصالات كثيرة من القراء والمعجبين وأصحاب دور النشر تسأل عن الكاتب الفذ وتنادي بعودته وتتطلع إلى إصدارته الجديدة إلا أن رسالة وحيدة كان لها مذاق آخر، رسالة "آزاد" الأولى له جاءته في ذاك التوقيت الحرج، كانت خيطًا من الود العميق وكأن صاحبتها تعرفه منذ مئات السنين، صارت عادة أن يتبادلا الرسائل وأن يلتقط هاتفه المحمول تفتش أصابعه بعبث بين سلسلة الرسائل المرسلة إليه عن حروفها الرشيقة وكأنها تكتبها بيدها، حروف آزاد لها نمط مختلف..

ستة أشهر لاحقة بعد الحادث المؤلم الذي راح ضحيته عمر وجيرمين، وقف آدم خارج القاعة متألمًا باكيًا وقد طالت لحيته وذبلت عيناه وانتشرت غيمة حزن على قسمات وجهه المجهد يتقبل العزاء في وفاة صديقه الصدوق ورفيق دربه وخزنة أسراره، "شادي بكير"..

لقى "شادي بكير" مصرعه في حادث سيارة بشع على الطريق السريع، لقد كانت فرامل سيارته لا تعمل ولم تتوصل أجهزة البحث الجنائي للجاني الذي نزع مكابح السيارة فانقلبت عدة مرات قبل أن تنفجر وتصعد روح شادي إلى السماء..

وقف "آدم" كتف بكتف على باب سرادق العزاء مجاورًا لسامح، شقيق شادي الوحيد الذي هاله ما رآه من حزن دفين يغلِّف "آدم" إثر رحيل شادي، آدم الصوَّاف يشعر، آدم الصوَّاف يحس ويتألم، يالها من معجزة، فلطالما تشاجر"سامح" مع شقيقه الأصغر ونصحه بالابتعاد عن آدم، إنه حية رقطاء لا تستحق الحياة، هكذا دون سبب يُذكر ولا أمر يُعقل، برر آدم لشادي رفض سامح لعلاقتهما إنها الغيرة، فما يجمعهما لا يفهمه أحد ولا يُقدِّره أحد، وأنه إن قُدِّر له يومًا أن يكتب وصية بكل ما يملك فستكون لشادي، أخبره أن علاقاته بكل البشر راحلة إلّا علاقته به، .. "**إن كنتَ لا تدرك ولا ترى ولا تعي عمق علاقتنا فعلى الدنيا السلامة**".... كلمات مررها ذات مساء إلى صديق العمر حين تورَّط في الإمضاء على شيك بمبلغ كبير في بارتيتة قمار، كان الشيك بلا رصيد وكاد شادي يُسجن، هرول إلى شقيقه سامح يطلب المساعدة إلا أنه إعتذر متعللًا بالأقساط ذات المبالغ الضخمة التي يدفعها ثمنًا لفيلته كما أنه غيّر سيارته وسيارة زوجته مؤخرًا وتتعذر لديه السيولة، اقترح شادي على شقيقه أن يعطيه المبلغ المطلوب على سبيل القرض وسيسدده له

على دفعات كلَّما أمكنه ذلك إلا أن سامح رفض الفكرة تمامًا، فهو يرفض السلف كمبدأ، لام شادي كثيرًا وعنَّفه على إسرافه وتبذيره فيما ورثه عن والدهما وهو كثير، فعلى شادي أن يتحمل وزره ويتعامل مع توابع هوجائيته وفرط رعونته، جاءت مكالمة آدم على جوال شادي لتُنهي صراعًا لا يهدأ كاد أن ينفجر بين الشقيقين، غادر شادي مكتب شقيقه مصدومًا متوجهًا إلى حيث أخبره آدم ليجده وبكل هدوء قد سدد مبلغ الشيك، ... "**إنها فقط مائتان وخمسون ألفًا من الجنيهات يا صديقي، أعتقد أن حريتكَ واسمك وسمعتك تساوي أكثر من هذا المبلغ التافه، فلا تزد الموقف تأزمًا ولا داعي للدراما، فإنني لا أجد نفسي أفضل منك يا عزيزي وأثق أنك كنتَ ستفعل المثل إن تبادلنا الأدوار**".... كلمات قليلة أنهى بها آدم الموقف المُحرج لتصبح علاقته بشادي أقوى وأمتن مما كانت عليه قبل تلك الواقعة..

لم يكن الأمر جميلًا أو معروفًا أسداه آدم لينقذ صديقه ولا سدادًا لفاتورة قديمة لموقف متأزم سارع فيه شادي لإنقاذ صديقه، ليس تبادلًا للأدوار، إنما هي مشاعر حقيقية حملها قلب آدم لصديق العمر.

شعر "آدم" بألم عميق يخترقه ووحدة خانقة تحيط به، لقد أسِف لما آلت إليه الأمور، كما شعر بغيظ هائل يجتاحه وبرغبة طفولية جامحة في مواجهة شادي ومعاتبته بل وضربه مرارًا، وهو الذي يعرفه أكثر من أي إنسان آخر، كم أحبَّه حقًا وكم آلمته تلك الطعنة النافذة التي سددها شادي له في عمق كرامته ورجولته، طعنة خلفَت جرحًا غائرًا لن يندمل مادام آدم حيًا، لم يكن بإمكانه مواجهة "المرحوم"، انتبه على تلك الكلمة التي ارتج صداها في صدره، أضحى شادي مرحومًا لقبًا، لكن هل تراه يستحق الرحمة فعلًا؟

ليس حزينًا على وفاته بقدر حزنه العميق لأنه توهم أن لا شيء يمكنه أن يُفرِّق بينهما يومًا، غاضب من خيانة شادي له، غاضب جدًا من استغفاله إياه وهو الذي لا يمكن لأحد كائن من كان أن يستغفله أو أن يستغله، يرفض ذلك، فلماذا فعلها شادي؟ ألم يخشى أن ينكشف الأمر؟ أم تراه أيقن استحالة أن يواجهه آدم واستحالة أن يعاتبه أو يعاقبه أو ينال منه، فقصة "الزنجية المثيرة" وما كان معها تَحُول دون أن يستطع آدم معه شيئًا، لقد سجنه شادي هناك بين طياتها حين دس عبوة السم الفتاك في قبضته وهو

يبتسم قائلًا: **لا عليكَ صديقي، لقد انتهت حِيرتكَ، اذهب الآن واستمتع بليلتك والصباح رباح.**

كل ذلك عرفته "آزاد" حين طالعت بالصدفة البحتة مذكرات حبيبها الوحيد، كانت في زيارة له تفتش عن سبب تغيُّبه عنها لأسبوع كامل، خشيت أن يكون قد أصابه مكروه أو أقعده مرض، قابلها وقد أنهكه السهر لليلتين متواصلتين يُسجل أحداث روايته الجديدة على حاسوبه الشخصي، قبّلها بشوق جارف فتأذت من شعيرات ذقنه النافرة التي تُلهب وجهها المرمري، اعتذر وغادرها مسرعًا إلى الحمام ليستحم ويحلق تلك الذقن اللعينة التي أصابتها بالحساسية وتوقف معها سيل قُبُلات أراد أن يُمطرها به، أسرع يُنفذ حكم إعدامٍ للذقن يُحركه شوق ولهفة إلى اللحظة التي يضمها فيها إلى صدره بقوة ليُقبلها بتوغل وعنفوان ونسي إغلاق حاسوبه، تحرَّكتْ أصابعها على لوحة الحاسوب يُحركها فضول أنثى عاشقة لرجل تنتمي إليه، أرادت أن تعرفه أكثر، أن تسافر إلى نبضات عقله وأروقة خياله تقرأ روايته الجديدة "طوق الياسمين" التي شغلته عنها سبع ليال كاملة،

أخبرها أنها بطلة تلك الرواية، وعلى قدر الأمل الذي حرَّكها لتفتح ملفات آدم جاء الألم يُصارعها ويعدو نحوها مع كل سطر قرأته عيناها الناعمتان..

أنفاس أخرى استجمعتها لتمنحها القدرة على مواصلة القراءة، دموعها تهطل بينما تحاول جاهدة لملمة آشلاءها حين أيقنت بشاعته وأيقنت معها استحالة إستمرار أية علاقة إنسانية تربطها به، إنها لا تريده كما وجدته، بل تريده كما عرفته، كما شعرت به وتنبَّهت حواسها عليه، لقد غدر بها بوضاعته وبشاعة دواخله، لا يعنيها ندمه العاطفي ولا شعوره الذابل بالذنب حيال سنوات مضت من عمره كان فيها شيطانًا بل إله الشياطين، غضبت بعمق لأجل إيما وجيرمين وشادي، غضبت لأجل أناس لم تعرفهم ولم تقابلهم من قبل، تجاهلت حكاياتهم مع آدم ولم تقتنع بذنوبهم التي استوجبت خلاصه منهم، حتى حادثة جيرمين وعمر التي لم يدبرها آدم فعلًا رأت أنه متورط بها ومسئول عنها إلى حد بعيد، فكيف سمح لنفسه بقيادة السيارة بهذه السرعة الرهيبة وهو مخمور؟

ولأشد ما آلمها أنها مع كل ما عرفته لم تستطع أن تكرهه رغم أنها صارت تحتقره بامتياز، كانت وحدها ملجأه وكأنها تعرف كم قاسى قبلها، تحبه بكل جوارحها وكأنها ولدت فقط لتعشقه، ولكن هل تُكتب للحب حياة في رحم الموت؟..

" ليتني أتعلَّم كيف أثمل... كيف أنسى ما قرأت، لقد انفجرت مسامي من الحزن والألم حين طالعتُ سطور مذكراتكَ وياليتني ما طالعتها، لقد انهدم عندي سد الثقة وتمزَّقت في عقلي ستائر النسيان، وها هي الذاكرة اللعينة تفاجئني يوميًا في يقظتي ومنامي، تصفعني بسطر من سطور ملحمتك النارية الدامية، تركض بي كلماتك القاسية إلى قارة ماضيك العكر دونما رحمة وتلقي بي هناك على أرض الجمر المغطاة بمستنقع لذَّاتك القذرة، أسمع صرخات إيما وعويل جيرمين وأنين شادي وبكاء عمر، أعجز عن البكاء وأعجز حتى عن الإبلاغ عنك، سأرحل بعيدًا علّني أستطيع أن أنساك، يغمرني خوف رهيب من مجرد فكرة غيابي عنك، لكني أتمناها لأستعيد إنسانيتي وسلامي الداخلي، لم يعد بوسعي أن أحب رجلاً ولم يعد يمكنني أن أنام على صدر غير صدرك الدافئ رغم شره، ولا شيء يمكنه تدفئتي كما تفعل أنفاسك الساحرة الملتهبة رغم خبثها، سامحني، فلم أعد أصلح أن

أكون امرأة تحبكَ أو تحب سواك، سأنتحر على طريقتي، سأنتحر ببطء حين أبتعد عنك وأقذف طوق ياسمينك في الفراغ، حقًّا أشعر براحة تغمرني لقراري هذا"، وداعًا..

تلك كانت رسالتها الأخيرة له، أرسلتها كطردٍ بريدي في مُغلف مغلق مكتوبة على ورقة صفراء، لون الورق الذي يحبه، وفي نفس الطرد علبة مربعة من القطيفة السوداء تحمل بين ضلفتيها عقدًا ذهبيًا تتوسطه قلادة ياقوتية نُقش عليها الحرف الأول من اسميهما، حتى الحرف الأول قد تشاركا فيه، ذاك العقد الثمين الذي أهداها إياه آدم في أول عيد ميلاد لها بعد أن غرقا معًا في بحر الغرام وسألها ألا يُفارق عِقده جيدها أبدًا

حرصت على أن تصله رسالتها بينما هي في الجو تُقيم له في قلبها مراسم تشييع أخيرة تضع فيها نرجسة بيضاء لتنمو على أعتاب عقلها، رحلت وقد تركت له البلد كله هاربة من حب سيُنهيها ولن ينتهي، فرَّت من عشق رجل هو لها وطن وهي دونه لاجئة لا هوية لها، يرافقها الوجع الذي لا شفاء منه ليكون الصمت هو الشيء الوحيد الذي تمتلكه بعدما جرَّدها الحب من كل شيء حتى من طوق ياسمينها الذي عشقته..

أما آدم فقد أضحى عاشقًا ينتظر غائبًا لن يعود، يراقب أوراق الخريف المتساقطة في قلبه أملًا في ورقة تحمل له ربيعًا تأخر، يكتب أحلى القصص ويسطر أروع الروايات يُهديها جميعها إلى "آزاد" الحُرة، سيدة قلبه سائلًا إياها أن تغفر له وأن تصفح عنه، لكنَّها تبقى مجرد حكايات حارقة ترجو صبحًا آخر لا يأتي..

تمت

(٢)

في الفقر سكينة مريبة
يتسطَّح معها كل شيء وتقف
المعاني حائرة رخوة مُحمَّلة
برحيق الحاضر وعبق الماضي.

قيـد الإحتيـــــاج

وقفـت "ليـنا " أمـام مـرآتها منـشغلة تمامًـا بارتـداء ملابـسها الكاجول الجديـدة التي اختارتهـا كعادتها بعنايـة فائقـة، فمناسبة اليـوم مُميـزة ولا تحتمـل آخطـاءً ولا هفـوات، مـرَّرت بعـض لمـسات مـن مكياج خفيف يبدو طبيعيًا على وجهها الجميل، دقَّ جـرس البـاب؛ فـضاقت بهـذا الطـارق الـذي سيُعطِّلهـا عـن اللحـاق بنـدوة كاتبـها المشهـور، إنّه المفضل لديها والذي طالما انتظـرت روايتـه الجديـدة بشغف وأرادت أن تحصل على إهداءٍ خاص منـه ممهـورًا بتوقيعـه، توجَّهـت للبـاب تفتحـه في حـذر وعقلهـا مُنـشغل بترتيـب كلمـات اعتذار تُطلقها على مسامع "مـروان الحكيم"، جارها الطبيب الـذي كثيرًا ما يدعوهـا إلـى شـرب قهـوة العـصاري معـه محـاولًا التقـرب منهـا واكتساب ثقتها وجعل علاقتهمـا أكثر حيويـة ونشـاط.

فتحت "لينـا " الباب وحسبُهـا أن ينفرج عن وجـه "مـروان" الوسيـم، فإذا بشقيقتها الكبرى "ليلـى" والتي لم ترهـا منذ شهور، تحديـدًا لـم تعـرف عـن أخبارهـا شـيئًا بعـد حفلـة طلاقهـا والتـي احتفـلت بها في "الماريوت" وحضرتها "لينا" على مضض، كانت حفلـة صباحيـة للنـساء فقـط علـى حمـام الـسباحة، ارتـدت فيهـا

"ليلى" مايوه أسود خلاب يُبرز جمالها وأنوثتها الفاتنة وكأنه إعلان مجاني صريح ودليل قوي على سعادتها بالطلاق، بل أنها هي من سَعتْ إليه من زوجها الأخير "مدحت الباز، رجل المال والأعمال "و الذي لم يستمر زواجها به أكثر من عام واحد، اشترى خلاله فيلا أنيقة فخمة في الساحل الشمالي، أهداها بكل كرم لزوجته الشابة في عيد ميلادها الرابع والثلاثين كما أهداها سيارة مرسيدس فارهة كمهر لها، شهور قليلة بعدها أحدثت انقلابًا في حياة العروسين حين عرفت زوجته الأولى وأم آبنائه بالزيجة التي لم تعُد سرية؛ فقد صارت حديث الساعة والطبقات العليا من مجتمع البزنس؛ فطار لُبها وحاولت دفع الرجل كثيرًا إلى تطليق تلك الحسناء الشقراء الدخيلة، فلم تُجدي محاولاتها معه وازداد تمسكًا بعروسه المثيرة "ليلى - لولا "، بل أنه انتقل للعيش معها بشكل كامل تاركًا البيت الكبير لزوجته وأبناءه منها، استقر العروسان معًا في فيلا دوبلكس اشتراها مدحت في المعادي وعلى النيل مباشرة كما طلبت "لولا"، لكن رويدًا رويدًا لم تطِبْ إقامته مع الحسناء "ليلى"، فقد انشغلت عنه العروس بصديقاتها وما أكثرهن وازدادت

جولاتها الصباحية معهن إلى الجيم والنادي وأكثرن من التردد على المولات التجارية والتبضع بما ينفع وما لا ينفع، وكثُرت طلباتها من الذهب والمجوهرات والهدايا، في الوقت الذي أصبحت لا تعبأ فيه بمواعيد تواجد زوجها في الفيلا، كما وجدها لا تكترث كثيرًا بوجوده إلى جوارها كما كانت تدَّعي، ولا تهتم بملبسه ومأكله وأوقات نومه واستيقاظه، باختصار لا تقف على مصالحه كما وعدته في السابق حين كانت تحاول بِجدٍ لإقناعه بالسُكنى معها بدلًا من زياراته المتقطعة لعشهما السعيد كلَّما سمحت ظروفه، حدَّثها "مدحت" كثيرًا عن حاجته إليها كزوجة لا كخليلة، لكنها لم تهتم ولم تبال.

أقنعته بدلالها أنها مازالت صغيرة تتحسس متع الحياة وتغتنم كل فرص السعادة ولا بأس من غيابها عنه لبعض الوقت، فالشوق يُشعل حطبه ويُأجج النارعند اللقاء، تظاهر"مدحت" بالإقتناع؛ فقد فُتِن بها ولم يرغب في القسوة عليها حتى لا تنفُر منه فيفقدها، لكنها تمادت غير مكترثة لشكواه ثم جُن جنونه وثارت حفيظته ضدها حين رآها في النادي أكثر من مرة وقد خرجت للتو من حمام السباحة فلَفَّت قدَّها المياس ببشكير ثم

تمددت في إثارة على الشيزلونج تتوسط دائرة تحيط بها من الشباب والرجال رواد النادي في هذا الوقت من اليوم، تتسع دائرتها وتتمدد تدريجيًا لتصير كبيرة بالقدر الذي يجعل "ليلى" تبدو كشمس ساطعة متوهجة تلتف حولها الكواكب، فضيّق "مدحت" الخناق عليها وقلل ما يمنحه لها من أموال فضجرت وثارت وشرعت تطلب الطلاق، بل وتلاحقه بمَطلبها في كل مكان، تمادت في ملاحقاتها فطالت عُملائه وصارت تُهاتفهم أو تهاتف زوجاتهم ليتوسطوا لها عنده، فلا مجال لاستمرار علاقتهما كزوجين فقد كرهته ولا ترغب في الإستمرار معه، وراحت تعدد لمَن تهاتفهم عيوبه وبعض أسراره الشخصية؛ فخشي الرجل على سمعته واسمه من تلك الهوجاء وتصرفاتها الصبيانية؛ فاضطر إلى تطليقها والخلاص من تلك الزيجة الفاشلة، وعاد الرجل باكيًا نادمًا إلى زوجته الأولى وعِشرة العمر معلنًا الندم؛ فغلبها جمال روحها وتكدست عليها ذكرياتهما معًا، وعادت المياه إلى مجاريها وانصلح حاله..

مرَّ كل ما سبق كشريط سينمائى في خيال "لينا" بمجرد أن

وقعت عيناها العسليتان على شقيقتها الكبرى "ليلى" والتي تقف أمامها مبتسمة في تودد ورجاء قلَّما تُظهِره!

يا إلهي، ماذا تريد منها تلك الشقيقة التي تكبرها بثمان سنوات وهي التي لا تحْفل برابطة أخوة تجمعها ب" لينا" ولا تُكلِّف نفسها ولو بعناء الإتصال بشقيقتها الوحيدة للسؤال عنها وعن أحوالها وهي شقيقتها الصغرى المصابة بالسكري والتي طالبت شقيقتها الكبرى بالضم على بعضهما البعض والعيش معًا في مسكن واحد بعد وفاة والدهما من سنوات ليست بعيدة، ثم كرَّرت مطلبها ثانية بعد ترَمُّل "لولا" منذ خمس سنوات، صادف ذلك معرفة "لينوو" بإصابتها بالسكر وشعورها آنذاك بالضعف والحاجة إلى رفيق يُهوِّن عليها قلقها وخوفها من أن تُفاجئها إغماءة السكر وهي وحيدة في شقتها.

كانت أختًا شقيقة ضعيفة تستعين بشقيقتها على مصائب الحياة ونوائب الدهر ونار اليُتم، فلم تجد ما يرتِقُ حاجتها، فلا طاقة للجميلة "لولا" بتحمل المسئولية ولا شأن لها بمرض "لينوو" وتوابعه، فلتحيا كلاهما كما تريد ولا حاجة إلى الدراما، هكذا كانت "ليلى" دومًا، أنانية لا تعرف الحب ولا تريده، تكره السواد وملابس الحداد؛ فسريعًا تخلصت من

حِدادها على زوجها الأول ووالد ابنتها الوحيدة، وكوَّنت حولها شرنقة من العلاقات البهيجة المليئة بالترف والنشوى وعدم الاهتمام بالآخر ولا الاكتراث لما تفرضه الروابط الأسرية من قرب واحتواء وعناية..

لقد جاءت "لولا" إليها الآن تطلب منها أن تستضيف لديها الصغيرة "سيلين" ذات الأعوام الخمس لبضع ساعات فقط هذا المساء لأنها مرتبطة بموعد هام ولا تجد من يهتم بالطفلة؛ فقد تخلَّفت دادتها اليوم عن الحضور، وعلى الفور ودون أدنى تفكير اعتذرت "لينا" عن قبول هذه المهمة لأنها مرتبطة هي الأخرى بموعدها الهام بعد دقائق ولا يمكنها التخلف عنه، لكن هيهات أن تستسلم ليلى الجامحة أو تقبل الهزيمة، لا أحد يمكنه حرمانها مما تريد ولا أحد يستطيع تغيير نيتها إن هي انتوت شيئًا، فهي أشد اضطرارًا من "لينا" للحاق بموعدها وانطلقت تُذكر "لينو" بكلامها عن الترابط الأسري وعن حاجة الشقيقة إلى شقيقتها، فإلى من تلجأ الآن ومن تأتمنه على" سيلين" في هذا الظرف الطارئ، إنه الإلتزام العاطفي الذي طالما طالبتها به لينو فلما تتهرب الآن؟!.

لم تقتنع "لينا" بمنطق شقيقتها الكبرى، فلقد عرفت عنها دائمًا أنها لا تتبع إلا أهواءها ولا تتذكر رابطة الأخوة إلا حين يكون مردوده في مصلحتها، الأمر حينها مُبررًا لمطالبتها الجريئة "للينوو" بالتضحية من أجلها، أما ما تفرضه عليها نفس هذه الرابطة من واجبات تجاة شقيقتها الوحيدة فلا حديث عنه ولا إشارة إليه، فدائمًا ما تضع ليلى علاقتها بأختها الصغرى قيد الإحتياج.

وكعادتها معها طوال السنوات الماضية وضعت ليلى شقيقتها الصغرى أمام الأمر الواقع، وجاءت بالصغيرة "سيلين" معها في سيارتها وتركتها فيها أمام بيت لينا، ثم ألحَّت عليها في رعايتها هذه المرة فقط، ولاذت بالفرار، وجدت "لينا" نفسها في مواجهة طفلة صغيرة تنظر إليها من داخل السيارة في خوف وترقب ورجاء، فلم تجد مفرًا من إخراجها من السيارة وهي تحاول أن ترسم بسمة خفيفة على وجهها المضطرب، الآن ستضطر إلى اصطحابها معها إلى الندوة التي طالما انتظرتها وهي حانقة..

رجعت سريعًا من موعدها مع الصغيرة إلى البيت ولم تستطع الخروج مع صديقاتها بعد الندوة كما كان الإتفاق، فربما تعود شقيقتها في أي ساعة، انتظرت في صبر نافذ عودة "ليلى"

لاسترداد الأمانة، دقت عقارب الساعة، تنبهت لينا، أنها العاشرة مساءً فإذا بهاتفها يرن تحمل شاشته رقمًا لا تعرفه، أجابت وقد انتابها هاجس أن مكروهًا أصاب شقيقتها، فإذا بصوت ليلى يأتيها من مدينة ساحلية يُبلغها عنه صوت الأمواج حين ترتطم بالشاطئ، صوت جاءها واضحًا جليًا، أبلغتها ليلى في اقتضاب أنها لن تستطيع العودة قبل بضعة أيام ورجتها الإعتناء بسيلين حتى تعود من السفر! ثم أسرعت "ليلى" تُنهي المكالمة قبل أن تنفجر "لينا" صاخبة لاعنة، حاولت لينا معاودة الإتصال بالرقم نفسه فوجدته مغلقًا، لقد أحْكمَت لولا عليها الخناق، ولم تترك لها متنفسًا.

يالله... كادت لينا تبكي وهي تسأل نفسها ماذا تفعل في هذه المسئولية الثقيلة التي لم ترغب أبدًا في تحملها؟ إنها عازفة كمان في الأوبرا، "بريمو" فرقتها لكنها أيضًا موظفة هناك ولديها مواعيد حضور وانصراف وارتباطات بالبروفات والعروض، تعيش وحيدة في مسكنها، لا تفكر في الزواج أو تخطط له، كان قرارًا اتخذته بكامل إرادتها عقب وفاة حُبها الأول "تامر الأشموني"، خطيبها ضابط الشرطة الشهيد الذي طالما أحبها وغمرها بحبه الصاخب وحنانه الجارف

وعطفه الصادق، تُلاحقها شقاوة عينيه ونظراته أينما ذهبت، لم يتركها بإرادته فقد اختطفه منها قبل عامين الإرهاب الغادر، كان آنذاك شابًا يافعًا ذا سبعة وعشرين عامًا فقط، لم يفرح بشبابه بعد، يحمل صدره الكثير من الأمل والتفاؤل وحب الحياة، يُحيط الدنيا يُطوِّقها بذراعيه، انتزعه الموت من بين يديها بعد أسبوع واحد من كتب الكتاب وقبيل شهرين فقط من الزفاف، فأغلقتْ دنيتها عليه وعلى كل ذكرى تجمعها به عن طيب خاطر.

تعرف جيدًا نوايا جارها الطبيب "مروان" تجاهها، ذاك الوسيم الذي يسكن إلى جوارها ويطوق إلى كلمة منها، بل يشتاق إلى نظرة واحدة من عينيها العسليتين تكفيه، تشعر بقلبه يكاد ينشق نصفين كلَّما حدَّثته عن "تامر" وما كان في سنواتها معه، فقد عرفته زميلًا في مدرستها الثانوية المشتركة ثم صار حبيبًا فخطيبًا فزوجًا، نعم كان تامر زوجها على الورق وبقسيمة رسمية تؤهلها لإن تحمل لقبه فتضعه ملازمًا ومصاحبًا لاسمها كلما وقَّعت على أوتوجراف أو بطاقة لأحد المعجبين الذين يسارعون بالإلتفاف حولها فور انتهاء عروضها بالأوبرا وما أكثرهم، فتحييهم "لينا" مبتسمة وتستجيب بسعادة لمطلبهم

بالتقاط الصور معها أو التوقيع لهم على إحدى صورها أو إحدى السي ديهات التي تحمل معزوفاتها من القطع الموسيقية فترسم برشاقة توقيعها "لينا الأشموني"..

استعادت "لينا" هدوءها نسبيًا بعدما تناولت قرصًا مهدئًا وفي سِرها راحت تبحث عن حل عملي لهذه الكارثة، آنذاك جاءها اتصال هاتفي من "مروان" كعادته كل مساء للاطمئنان عليها بعد عودتها من الخارج وليؤدي لها ما قد تحتاجه من خدمات كشراء بعض احتياجات المنزل وغيره، يظل يجئ ويروح ما بين صالة شقته والشرفة يراقب الطريق مترقبًا منتظرًا وصول لينا، وفور رؤيته لسيارتها قادمة من أول الشارع يبتسم ويعود إليه هدوءه ويظل واقفًا متأملًا لها من شرفته حتى تستقر سيارتها في ساحة الانتظار المخصصة لسيارات سكان العقار أمام شرفته مباشرة، ثم يتنهد بارتياح، ينتظر نصف ساعة تقريبًا ثم يبادرها بالإتصال للإطمئنان عليها، اليوم جاءته إجابتها على الهاتف بصوت مهموم منهك يحمل نبرة غيظ وارتباك، فأغلق الخط معتذرًا ثم وجدته يطرق بابها بلهفة، فأشركته معها في مصيبتها وسألته بحُرقة ماذا تفعل؟

نظر "مروان" في عطف للصغيرة التي أدركها النوم فتكورتْ على نفسها فوق أريكة الصالة تتلحف بمعطف خالتها، ابتسم في إشفاق، ثم التفت إلى "لينا "قائلا: **إن رعاية ذاك الملاك لبضعة أيام ليس أمرًا شديد العناء كما تتصورين يا عزيزتي، وأنا على استعداد تام لأساعدكِ في ذلك إن قبلتِ، فأنا أعشق الأطفال وأتمنى انجاب دستة على الأقل إن تزوجتُ.**

حمل "مروان" سيلين الصغيرة ووضعها في فراش خالتها ودثرها جيدًا فالجو بارد على جسدها النحيل واستأذن منصرفًا بعدما صنع لجارته الحبيبة قدحًا من الكاموميل نصحها بشربه في السرير لتنعم بنومٍ هادئ، ثم انصرف وقد ودَّعها بابتسامة عينيه الحانيتين، فحملت "لينا" القدح واستقر على الكوميدينو إلى جوار سريرها، ثم دسَّت نفسها تحت الغطاء بجوار سيلين تحاول تناسي الوضع الجديد، أغلقت عينيها وهي في أسوأ حال..

وفي الصباح خرجت لينا إلى الأوبرا، فلا يمكنها الإعتذارعن البروفة تحت أي ظرف، فالتجهيزات هناك تسير على قدم وساق لحفلها القادم في غضون أسابيع قليلة، وتركت سيلين في رعاية جارها الشهم.. حاول الرجل الإقتراب من الطفلة فوجدها واجمة قلقة، تشعر بضيق خالتها الصامت من وجودها فتتحرك في آرجاء

الشقة بحرجٍ لا يتناسب مع عمرها الصغير، تفتقد مرح الصغار وانطلاقتهم، تحتمي بدميتها الصغيرة وتستشعر الأمان في احتضانها لصورة أبيها الراحل الذي لم تره عيناها، فقد اكتشفت "لولا" أنها حامل في شهرين بعد وفاة والد سيلين بإسبوع واحد فقط ولولا خوفها على نفسها من إجهاض نصحها طبيبها ألّا تفكر فيه لكانت قد تخلصت من جنين سيُكتِّف وجوده حريتها لبعض الوقت..

لم يتحسن الوضع كثيرًا في اليوميين التاليين، "لينا" عقلها شارد مُشتت، لم تألف بعد وجود طفلة في بيتها، ولم تعتاد على خدمتها ورعايتها، فيتراوح مزاجها آثناء اليوم بين الضيق بسيلين وبين الإشفاق عليها والسخط على شقيقتها الطائشة التي قذفت لها بطفلتها الصغيرة وهربت، بينما نجح "مروان" ببساطة في الإقتراب من "سيلو" وصارا صديقين، على أقل تقدير تقلصت المسافة بينهما على نحو ما واكتسبت الصغيرة بعض الإطمئنان في وجوده وأصبح من السهل عليه التحاور معها حول صنوف الأطعمة التي تحبها وتلك التي تكرهها

لقد انقضى أسبوع كامل ولم تعد ليلى من سفرتها انقطعت فيه سيلين عن الذهاب إلى مدرستها وغيَّر خلاله

"مـروان" مواعيد مناوباته في المستشفى حيث يعمل لتصبح كلها في الفـترة المـسائية، تخـرج لينـا إلـى عملهـا وبروفاتهـا في الثامنـة صـباحًا تاركـة "سيـلو" نائمـة، ثـم تـضع مفتـاح شـقتها تحـت الدواسـة؛ فـإذا مـا اسـتيقظ مـروان في العاشـرة يُسـرع إلـى التقـاط المفتاح ليـدُسه في مزلاج شقـة لينـا فيجـد الـصغيرة قـد اسـتيقظت وتوسـطت الأريكـة أمـام التلفـاز تـشاهد بـشغف بـرامج الأطفـال وكرتـون الفقرة الصباحية وقد تناولت كوب الحليب الـذي تركته خالتـها مُغطى إلى جوار سريرهـا، تركض الصغيرة مبتسمـة نحـو مـروان، فقد كانت في انتظار صديقهـا الطيب ثم ينـشغل الإثنـان في تحـضير الفطـور الـذي يتناولانـه في الـشرفة حيـث الإسـتمتاع بشمس الشتاء الدافئة، ينقضي الوقت حيـث تنعـم سيلين برعايـة وحنان مروان ومرحـه الـذي لا يفارقـه، لقـد أهـداها بعـض كتـب التلوين والرسم حين عرف أنها تعـشقه، إنـه يـصطحبها في جولـة سريعـة لشراء الخضر والفاكهـة الطازجـة ويسارعـان بـالعودة إلـى البيت ليتمكنـا معًا من إعداد وجبة غذاء ساخنـة وصحيـة للجميلـة "لينـوو" قبـل عودتهـا مـن الأوبـرا في الرابعـة عـصرًا، كـم أشـادت سيلين ببراعـة واتقـان "مـروان" للطهـو وتفننـه في إعـداد وجبـات

لذيذة لم ترها ولم تتذوقها من قبل، فماما "لولا " تكره الطهو ولا تجيده، وخالتو "لينا" لا تستطيع إعداد سوى بعض الشطائر من الجبن والبيض المُزين بشرائح الطماطم والكابوتشا وبعض حبات من الذرة المسلوقة وكفى..

يتناول الثلاثة غذاءهم لا تفارق وجههم الإبتسامة وبعض الضحكات كاستجابة فطرية لما يُمطرهم به مروان من نكات وقفشات ساخرة، ساحر مروان، شديد الوسامة جذّاب، ذو مزاج معتدل رائق، لا يعرف الغضب طريقًا إليه، سريع البديهة كما أن حسَّه الفكاهي لا يُفارقه أبدًا، يساعد "لينوو" في تنظيف مائدة الطعام وكثيرًا ما يسبقها إلى تنظيف الأطباق وأواني الغداء، لكنها ترفض مبتسمة وتقول: **حسبكَ ما قدمته لنا من طعام شهي يا دكتور، هذا يكفينا جدًا، فإذا كان الطهو لعبتك وأنت تُجيدها فالتنظيف هوايتي وأنفذه سريعًا وبإتقان أيضًا، لا عليك..**

في الخامسة والنصف بعد شاي العصاري ينصرف "مروان" إلى عمله ورغبته الحقيقية تُلاحقه، فالرجل لا يريد أن يفارق أسرته الصغيرة الجميلة، أسرته التي أهداه القدر إياها، ولكن ما باليد حيلة، فتنزوي سيلين في أحد أركان الصالة تلعب

بدُميتها تُدللها بحنان أفتقدته هي شخصيًا طوال خمس سنوات عاشتها مع ليلى، تراقب خالتها في صمت، "لينوو" شريكتها الجديدة في السكن، إنها تعزف الكمان بفن ومهارة؛ فتغزو الموسيقى روح الصغيرة وتشعر بجمال معزوفات خالتها، سويعات قليلة ثم تضع لينا العشاء على الطاولة وتتناوله مع سيلين وهي تحاول التقاط طرف خيطٍ للحوار مع الصغيرة في حين ينظر كلاهما بشوق وافتقاد إلى مقعد مروان الخالي!!

مرَّ أسبوع ثان في عناء نفسي شديد تقاومه لينوو بمساعدة مروان، إنها تتلهف عودة تلك الأم المستهترة لاسترداد طفلتها فإذا بها لا ترجع وإنما تتصل بشقيقتها لتُبلغها هذه المرة في جرأة وتحدي غريب أنها لن تعود في المدى القريب.

لقد أحبَّت مغنيًا مشهورًا، وتمنت لقاءه كثيرًا وسعت في ذلك طويلًا، ورتبت موقفًا محددًا لتجمعها به فرصة، ولقد تحقَّق مُرادها وعليها الآن جني ثمار ما زرعته وما خطَّطت له، إنها لا تريد أن تُضيّع فرصتها الذهبية في السعادة هذه المرة، فالقُرب من "حمادة بركات" له ضرائب فورية وعليها أن تُسددها، فالإيقاع بهذا النجم يحتاج إلى تضحية كبيرة تتناسب

وحجم نجوميته وبريق إسمه وشهرته، ولو كان القربان الذي تقدمه لذلك النجم اللامع الذي زار مسار حياتها فجأة ليُغيره هو التخلي عن مسئولية طفلتها وتركها تمامًا في رعاية لينا فلقد فعلت!

فقدت لينا ما تبقى من رشدها وحاولت قدر جهدها وبكل الطرق إقناع شقيقتها الجامحة الأنانية بالفطرة بالتراجع عن هذه المغامرة الجديدة وتحمُّل مسئوليتها كأم لطفلة يتيمة لكنها فشلت في ذلك، حاولت إحكام سيطرتها على الموقف وهي توشك أن تنفجر بالغيظ والكمد، وتساءلت متعجبة من استهتار ليلى وافترضتْ جدلًا قبولها بتلك المهمة التي لا ترغبها، فماذا عن ملابس سيلين ومتعلقاتها؟ وماذا عن سيارة ليلى التي تركتها مغلقة في ساحة الإنتظار أمام مسكنها؟ فإذا بسيلين الصغيرة تُسرع إلى حقيبتها والتي كانت تحملها فوق ظهرها حين أحضرتها ليلى إلى مسكن خالتها لتُخرج من أحد جيوبها الكثيرة سلسلة من المفاتيح تركتها معها أمها منذ البداية وأوصتها ألا تُظهرها إلا بعد مكالمتها الهاتفية الثانية لخالتها، فإذا بلينا المسكينة تكتشف أن ملابس سيلين الكاملة موجودة في حقيبة السيارة منذ اليوم الأول وأن ليلى اكتفت بوضع منامتين فقط للصغيرة في حقيبة ظهرها مع

قليل من الغيارات الداخلية حتى لا تكشف لينا خطتها لترك الصغيرة لها، لقد تسلطت فكرة ارتباطها بمغني مشهور على كامل عقلها وراحت تسعى وراء حبها الجديد بلا عوائق ولا مسئوليات..

يومين بعد تلك المكالمة ثم أرسلت ليلى رجلًا رياضي القوام، ضخم الجثة، منفوخ العضلات لسحب السيارة من أمام منزل لينا بنسخة من المفاتيح كانت معه، كما قام الرجل بترك مظروف مغلق يحمل اسم لينا إلى د. مروان الذي كان في مناوبته الصباحية لمجالسة الصغيرة بدلًا عن خالتها المشتتة التي فقدت كل أملٍ في أن تسترد ليلى وديعتها في وقت قريب واستسلمت لليأس والقنوط، انفرج المظروف المغلق حين فتحته لينا عن ورقة تُعرفها بالرجل الخارق الذي اصطحب السيارة، إنه الحارس الشخصي لحمادة بركات وقد أخذ السيارة إلى حيث تكون ليلى، كما وجدت لينا ايضًا توكيلًا رسميًا يمنحها القدرة على تصريف كل شؤون الصغيرة وشيكًا محترمًا بعشرة آلاف من الجنيهات تركته ليلى ليُغطي مصاريف الصغيرة لمُدة لم تُحددها، انهمرت الدموع من عينيّ لينا، دموع يحركها الغيظ والغضب من ليلى والشفقة والتعاطف مع سيلين..

حاول د. مروان العطوف أن يشد من أزر جارته التي يحبها من كل قلبه ويقنعها أن وجود سيلين سيجعل لحياتها الخالية طرازًا جديدًا قد عرفته واطلعت عليه في الأسبوعين الماضيين ويُذكرها بضحكاتهم حول مائدة الطعام، وأنها اخيرًا قد صار لها شريك في الفراش وما عادت تبيت وحيدة كما كانت تخشى، لكن هيهات أن تقتنع لينا بمسئولية أُجبرت على تحملها ووضع فُرض عليها قهرًا رغم المشاعر الجميلة التي تسربت داخلها تجاة الرائعة سيلين، وبعد عناء شديد راحت وبمساعدة جارها الحنون تحاول أن تتكيف مع وضعها الجديد وتُقنع نفسها بقبول الصغيرة في حياتها على أمل ألا يطول غياب أمها عنها كثيرًا.

و زاد الأمر صعوبةً حين أصبح من الصعب على مروان الإستمرار في مناوباته الليلية، فلقد استدعاه مدير المستشفى أكثر من مرة في عمليات صباحية هامة وبات الرجل لا ينصاع لرجاء مروان في أن يكون تواجده في المستشفى مسائي فقط، ارتبكت حياة لينا بتغيُر مواعيد عمل مروان، واكتشفت بعد عدة مواقف ومفارقات أن رعاية الأطفال ليست أبدًا أمرًا سهلًا على مَن لم يُجربه من قبل، وتساءلت في إشفاق كيف ولِمَا استطاع مروان التعامل مع تلك المسئولية بسلاسة ويُسر؟

فلقد تبدَّل نمط حياتها بعد تورطها في سيلين، فبعد أن كانت تستيقظ من نومها قبل موعد خروجها إلى العمل بنصف ساعة كانت تكفيها لإرتداء الملابس وجمع خصلات شعرها الناعمة وغرس مشبك يُمسك بها في مؤخرة رأسها، ثم تتوجه إلى المطبخ لإعداد النسكافية وصبّه في "مج حراري" ترتشفه وهي تقود سيارتها إلى الأوبرا، وجدت نفسها مضطرة للصحو مبكرًا لإعداد الفطور للصغيرة ومساعدتها في الإغتسال والإشراف على غسيلها لأسنانها البيضاء المُنمنمة المُصطفة في رشاقة، ثم مساعدتها على ارتداء ملابسها وتناول فطورها كاملًا، يليه اصطحابها إلى مدرستها قبل الذهاب إلى الأوبرا فيكفيها الفترة التي انقطعت فيها عن زميلاتها ومدرساتها..

و بعد أن كانت لينا تخرج من عملها فتذهب إلى المكتبات أو دور السينما أو العروض المسرحية أو إلى حيث تشاء بلا ارتباطات ولا التزامات وجدت نفسها تُسابق الزمن لكي تصل إلى مدرسة سيلين في موعد الإنصراف وتُعيدها للبيت ثم تبدأ مناوبة جديدة من تحضير الغداء ومتابعة الدروس والواجبات والإشراف على تحفيظ الأناشيد وسور القرآن الكريم وما يُستجد

من دروس وفروض، حتى يوم الأجازة الذي كانت تقضي معظم ساعاته شبه نائمة لتعويض إجهاد الأسبوع فقد خسرت تلك الراحة أيضًا تحت إلحاح من مروان بالتخلي عن كسلها واصطحاب الصغيرة إلى النادي مرة والحديقة العامة مرة وتناول الغداء في مطعم عام مرة ثم إلى السينما أو مدينة الملاهي أو صالة التزحلق "الباتيناج" الذي تجيده سيلوو، بل إنها ماهرة فيه مهارة خالتها في عزف الكمان!

أما غسل الملابس وإعداد الطعام المناسب للصغيرة وتصريف بقية شؤونها فلقد شغل كل ما تبقى من وقت "لينوو" المسكينة التي صارت أمًّا على غير توقع!

شيئًا فشيئًا بدأت تشعر بشئ من الألفة الحقيقية والإندماج الفعلي تجاه هذه الطفلة البريئة كما بدأت تؤمن بأن سيلين أيضا قد تخلَّصت من جمود مشاعرها تجاهها ولم تعد تجلس إليها صامتة شاردة البال كما كانت في البداية..

ثم فوجئت ذات مساء بأن حرارة مرتفعة قد هاجمت "سيلوو" وأن أنفها ملتهبة وسعالها شديد وشعرت لينا بانزعاج شديد وخوف أشد وأسرعت تستدعي مروان الذي أحضر لها

الدواء المناسب وأوصى لها بالراحة التامة في الفراش لعدة أيام على ألا تبيت لينو إلى جوارها خشية العدوى، وفي المساء أعطت الخالة الدواء للصغيرة واطمأنت إلى استسلامها للنوم وتوجهت إلى أريكة الصالة فنامت نومًا قلقًا مضطربًا، ثم تسلَّلت إلى سيلين فجرًا تتفحص درجة حرارتها وتُحكم عليها الغطاء، استيقظت الصغيرة صباحًا فوجدت خالتها تنام راكعة على الأرض بجوار فراشها ممسكة بيدها تُشعرها بالأمان وتشعر معها به، لم تستطع "لينوو" مغادرة الغرفة والعودة إلى نوم ترجوه هادئًا فلقد شغلها أمر"سيلوو" في نومها ويقظتها وأرادت الإطمئنان عليها والمبيت بالقرب منها، ابتسمت الصغيرة لخالتها في امتنان فانقضت لينو تحتضنها وتُقبل وجنتيها الملتهبتين غيرعابئة بنصائح مروان الوقائية وليزورها المرض إن شاء.

توالت الأيام على الأسرة الجديدة فتعمقت الروابط ونُسجت خيوط الحب والألفة بين أفرادها وحدث الإندماج تدريجيًا بين الشخصيات ولم تعد المعاناة كبيرة وقلَّل الإعتياد والتعود من بشاعة المسئولية في نظر لينوو وانتصرت فطرة الأنثى داخلها وصارت وكأنها أُمًّا لسيلين منذ مولدها، و كانت تلك

الأمسية الخاصة حيث بدت لينا كنجمة اسطورية تلمع بازغة وسط سماء صافية، تعزف بخفة ورشاقة عنوانها مهارة فائقة وتفرد واع على أوتار كمانها فلا تكاد تسمع غيره في القاعة، فلقد حبس الجمهور أنفاسه طواعية خشية أن تُزعج تلك الأنفاس لحن لينوو الجميل أو تفسد تناغم مفاتيحه، لقد انتهت لينا من العزف ووقفت تُحيي الجمهور في أدب وإجلال، دوَّت القاعة بتصفيق الحضور معلنًا عن إعجابهم الشديد بها وانبهارهم الخالص بعبقرية عزفها ثم حدث ما عكَّر صفو الليلة وانقلبت الأحداث رأسًا على عقب..

اجهدت لينا نفسها كثيرًا في الأيام التي سبقت العرض، لم تكن تبتعد عن كمانِها إلا قليلًا، تتفاعل معه، تشعر وكأنها انصهرت داخله فيأتي صوت أوتاره من داخل روحها، أثقلت على جسدها وأرهقته فلم يتحمل أكثر وأكثر وانفرط العقد بمجرد انتهائها من العرض ذاك المساء، لقد كانت الموسيقا الدرب الوحيد التي تمنته وسارت فيه حتى بلغت مبتغاها، انخفضت نسبة السكر في دمها فمع انشغالها التام لم تكن تتناول وجباتها بانتظام، فما أن وضعت قدمها على السُلمة الأولى لتغادر خشبة المسرح حتى اختل توازنها وسقطت فاقدة للوعي، توجه بعض

الحضور إليها إلا أن مروان، العاشق الولهان في صمت كان أقربهم وأسرعهم إليها، التقطها بين ذراعيه كطفلة وديعة يحرص على سلامتها، فلا يمكن أن يترك الدنيا تحرمه من لذته الوحيدة، نعم إن "لينا" لذته الوحيدة وغاية أمله أن يظل بجوارها دون قيد أو شرط.. تُذكرِه دومًا بالقديسة "جان دارك" التي عشق تمثالها حين رأه في مدينة "روان" آثناء زيارته لفرنسا سابقًا.

استهواه التمثال والبُرج الذي حُجزت فيه القديسة الشهيدة، يذكُر كيف ضحك بصمت ثم بكى بمرارة وهو يستمع إلى قصتها من صديقه الفرنسي "ميشيل" الذي دعاه لزيارة ذاك الأثر منذ عشر سنوات مضت، وحين وقعت عيناه على لينا ومن الوهلة الأولى وجد "جان دارك" تقفز إلى ذاكرته بفصول قصتها المأساوية كلها، ربما لاشيء مشترك بين جان ولينوو سوى أن جارته الرقيقة حُرقت أيضا ولكن بلا لهب، إنها تموت ولكن دون احتجاج، تأكد له الشبه حين عرف حكايتها مع خطيبها السابق، وقصة استشهاده، تعاطف معها جدًا ولم يرغب أن يراها تموت من الوحدة وهي تتلوى على عامودها وتصرخ بحثًا عن هواء تستشنقه والنار تلتهمها كما التهمتْ جان دارك..

ينسى نفسه تمامًا حين يكون في حضرتها، وفي غيابها يؤنسه التفكير فيها ويجد غايته الجليلة في ابتسامةٍ ترسُمها نِكاته على شفتيها الكنِزتين، كم مرة قرر أن يُصارحها بما يعتمل في صدره نحوها، يقف قُبالتها متأملًا متدبرًا لكلماته ثم تخونه شجاعته، إنه يخشى أن يُضيّعُها إذا ما واجهها بما في القلب؛ فالأفضل إذن أن يكتُمه بينما تفضحه عيناه الواسعتان.

وفي المستشفى أفاقت لينا من غيبوبتها فوجدت سيلين راكعة على ركبتيها الدقيقتين إلى جوار سريرها تمسك كفها بيديها الناعمتين وكأنها تتشبث بها كما فعلت لينوو معها حين مرضتْ، فابتسمت رغم تلك الدموع التي تسابقت تنهمرعلى وجنتيها الشاحبتين..

لم يفارقها مروان في محنة مرضها الأخيرة ونصّب نفسه وصيًّا عليها، راعيًا لشؤونها كافة، لم يترك لها فرصة للتكاسل أو التهاون في متابعة العلاج والحرص على التغذية السليمة والإلتزام الصارم بجرعات الإنسولين، آثرها بإهتمامه وحنانه وفرط رعايته لها، لم يكن في حاجة إلى الكلام فعيناه تتحدثان

أحلى الكلام، ويوم غادرت المستشفى لبيتها رافقها إلى هناك، اطمأن إلى إستقرارها في سريرها ثم وضع باقة كبيرة من ورد الجوري الأحمر إلى جوارها واستأذن منصرفًا، ودَّعته عيناها العسليتان بابتسامة تحمل فيضًا من الإمتنان والعرفان يعجز اللسان عن التعبير عنهما بكلمات مهما بلغت قوتها ستبدو فارغة تافهة لا تُقارن بشعورها نحوه، سحبت بطاقة بيضاء صغيرة كانت مثبتة بإحكام في الباقة.

" صباح الورد لينوو "

يوماً ما سيأتي مايُفرحُ قلبك المُجهد، ليس علماً بالغيب وإنما ثقةٌ بربٍّ رحيم

فلا يعقِبُ الأحزان إلا سعاده ولا يعقِبُ الحرمان إلا عطاءً ليس قولي إنما قولُ ربي (سيجعل الله بعد عُسرٍ يُسرًا)..

فضحكت وأشرق وجهها المجهد وجذبت سيلين الواقفة إلى جوارها واحتضنتها بشدة وكأنها تريد أن تختبئ بها ومعها من شئ ما!!

كرّت شهور الصيف وبدأ عام دراسي جديد؛ فنقلت لينا سيلين الصغيرة إلى مدرسة مجاورة لمسكنها ذات سمعة طيبة

وصيت حسن، وأصبح من الطبيعي أن تذهب سيلين إليها كل صباح سيرًا على الأقدام عبر شارع واسع غزير الأشجار في جاردن سيتي ممسكة بيد صديقها الجميل "مروان" ولاتزال "لينوو" تكرر عليه ألا يدع يد سيلين تفلت منه طوال الطريق وهو يقسم لها ألا تخاف وأنه قد حفظ وفهم الدرس جيدًا، فلا تطمئن لينوو حتى تهاتفها سيلين من جوال مروان عند باب مدرستها وقبيل دخولها مباشرة فيتبادلان القبلات عبر موجات الجوال، وفي موعد الإنصراف تُحضرها زوجة البواب، إمرأة أربعينية عاقلة تثق فيها لينوو، أوكَلت إليها القيام بتلك المهمة مقابل عائد مادي مُجزي، ترافق السيدة سيلين حتى باب الشقة ولا تُغادره إلا إذا فتحت الصغيرة الشقة بالمفتاح ودلفت إلى الداخل وأغلقت الباب خلفها بإحكام، وفي غرفة النوم تُبدل ملابسها وتجلس إلى طاولة صغيرة زاهية الألوان اشترتها لها خالتها، ترسم وتُلون وبجوارها قارورة عصير طازج حضّرته "لينوو" في الصباح لتتقوَّت به الصغيرة حتى تعود إلى البيت مُسرعة في الرابعة عصرًا.

و ذات مساء، ما أن رافقت سيلين د. مروان إلى السوبرماركت لشراء بعض الإحتياجات الضرورية للعشاء حتى رنَّ جرس

الباب؛ فظنت لينا أنهما قد نسيا شيئًا أو أن مروان لم يحمل معه هاتفه المحمول الذي ينساه معظم الوقت، هرولت تستقبلهما مبتسمة، فإذا بها ترى أمامها أختها الهاربة واقفة تنظر إليها في جمود وترقُّب وقبل أن تسمح لها بالدخول، وقفت أمام الباب وعقدت يديها فوق صدرها وزأرت في وجهها: **نعم، ماذا تريدين؟**

لم تكن الإجابة بالغريبة على مسامع لينا، ولم تكن في حاجة إلى التخمين، لقد فشلت قصة حبها الجديدة وما عادت ملتهبة، لقد زهدها المغني المشهور، صفعها حمادة بركات ومزَّق ورقة زواجهما العرفي فتطايرت أقصوصاتها في وجهها، انتهت فصول قصتها كالعادة بالفشل فعادت إلى القاهرة خائبة تلعن حمادة كما لعنت من سبقوه، وخزتها أمومتها وتذكرت فجأة أن لها طفلة قد غابت عنها لأكثر من عام وتريد الآن استردادها بكل وقاحة!

وانفجر بركان الغضب في صدر لينا وزمجرت تصيح في وجه ليلى:

- **أين كنتِ حين تركتِيها في السيارة أمام بيتي ولُذتِ بالفرار إلى أحضان ذاك الحمادة؟**

- **أين كنتِ حين توسلتُ إليكِ ألا تهجُريها جريًا وراء رجل سيقذف بك على طول يده بعدما يمل منكِ؟**

- أين كان قلبكِ وإلى أين ذهب ضميركِ حين استحلفْتُكِ ألا تنصُري أهوائكِ على أمومتكِ؟

- وأين كانت أمومتكِ حين بكت صغيرتُك أمام عينيكِ تستحلفكِ ألا تغيبي عنها وأنتِ تقفين بكل برود لتجمعي ملابسها وآشياءها وتدُسيها في حقيبة السفر؟ لم ترمش عيناكِ ولم يرتجف قلبك!!

وأين... وأين؟

لم تُجب ليلى سوى أنها قد جربتْ وفشلتْ ولا خطأ في التجربة، أخطأتْ ونـدِمتْ ولا جريمة في الخطأ، ومهما كانت جريمتها فلا يُمكن أن تُعاقب بحرمانها من ابنتها التي حملتها في رحمها شهورًا، ففي النهاية هذه ابنتها وهي أمها، والأمر لا يحتمل المُزايدة! تجمعت مشاعر القرف والسخط في أعماق لينا وطفَت على السطح معاناتها مع أنانية ليلى وصفاقتها، وللمرة الأولى تتجرأ وتطرد شقيقتها، بل وأقسمت أنها لن تُعيد إليها سيلين مهما حدث..

شاورت مروان في الأمر واقترح عليها سؤال الصغيرة ذاتها قبل اتخاذ أي إجراء، فربما رغبت "سيلوو" في العودة إلى أحضان ليلى، فلا يمكن لرقيقة عادلة مثل لينا التجرد من ضميرها

وحرمان صغيرة من أمها دون إرادتها مهما كانت تلك الأم، جاءت دموع "سيلوو" وهروبها إلى حضن خالتها ومعانقتها الطويلة لها إجابة رادعة حَسمت الموقف.

أقامت لينا دعوة قضائية لطلب حضانة الصغيرة بدلًا من ليلى المستهترة لأنها أكثر استشعارًا للمسئولية الإنسانية عنها من أمها الرعناء ولأنها تحتاج إلي "سيلوو" كما تحتاج الصغيرة لها، فلقد جعلت لحياتها معنًا جديدًا وأضافت إليها مباهج جديدة وشواغل رائعة، حتى هموم رعايتها ولماضة طفولتها وثرثرتها اللانهائية هي أيضًا هموم لذيذة، هموم لها متعتها التي تستحق التضحية من أجلها، فالأمومة هِبة تفتقدها الكثيرات..

شهدت قاعة المحكمة صراعًا مريرًا حامي الوطيس بين الشقيقتين حول حق الحضانة ودُعيت كل الأطراف للشهادة، د. مروان وحمادة بركات ومديرة المدرسة السابقة والمديرة الحالية لسيلين، والحارس الخاص لحمادة والذي حضر لاستلام سيارة ليلى، وزوجة البواب، حتى الصغيرة سيلين نفسها دُعيت إلى الشهادة، سألها القاضي ألا تخاف شيئًا وأن تقترب وتفكر جيدًا قبل الإجابة على سؤاله، ثم سألها في هدوءٍ وتودد عمن تُفضل

البقاء معه؟، صمتت سيلين لدقيقة خُلع خلالها قلب خالتها الشابة، ثم نظرت الصغيرة نحو لينا وانفجرت تبكي وهي تُردد: **لا تحرموني أمي لينا، أعلم وأفهم جيدًا أنها لم تُنجبني من داخِلها لكنها أنجبتني من قلبها**... ثم تابعت وهي تشهق من البكاء، أن لينوو تحبها وترعاها ولا تُشعرها بأنها عبء عليها يُعرقل فرصها الذهبية في السعادة والفوز بعريس ثري أوعريس شاب أو آخر مشهور كما تفعل ليلى، ولأنها أيضًا لا تنفجر فيها كلما واجهت فشلًا عاطفيًا جديدًا ولا تنصرف عنها تاركةً اياها للمُربية ولا تُعرضها للأقدار وتقلباتها كما فعلت معها أمها الأصلية عدة مرات في عمرها القصير، مع خالتها لينو هي بخير، هي آمنة مطمئنة من غدر الزمان وتقلبات الدهر، مع "لينوو" لا تعرف فقدًا ولا تخشى رحيلًا، فلينوو مهما حدث لن تجمع للصغيرة ملابسها وتدس دُميتها بغضب في حقيبة السفر اللعينة لتُرسلها هنا أو هناك، "لينوو" لن تخذلها أبدًا.

اختتمت سيلين شهادتها بكلمة معبرة ومثيرة للتأمل، قالت: **أنا أبدًا لا أكرة ليلى على العكس أنا أحبها وأشعر أنها تستحق العطف والشفقة، لكني أحب "لينوو" أكثر واشعر معها بما لم أشعر به مع أمي، لينوو تُشعرني بأنني "هبة**

عظيمة" من السماء، أنا معها قريرة العين، مطمئنة النفس، رائقة البال، لا أخشى الغد وأتمنى حقًا ألا تحرموني خالتي، لكني أتمسك أيضًا بحقي في رؤية أمي والإتصال بها من حين لآخر، أرجوك سيادة القاضي، فمع لينوو أنا أبدًا غير قابلة للفقد.

رفع القاضي الجلسة للمداولة، دقائق مرَّت بطيئة ثقيلة على الجميع تنوء بحمْلها الجبال، ثم حسم القاضي بكل شجاعة النزاع الغريب وقضى للينا بحضانة الصغيرة التي أدمعتْ كلماتها الحضور مع حفظ حق ليلى في رؤيتها في مواعيد محددة والمبيت معها مرة أسبوعيًا إن رغبت الصغيرة ووافقت، وقال لليلى التى أبكاها كلام صغيرتها بكاء مُرًا أنها قد أساءت إلى صغيرتها وأن وجود سيلين مع خالتها سيُحقق مصالح الصغيرة أكثر لأن حق الأمومة لا يترتب بالميلاد فقط إنما بالرعاية والحب وتحمُّل المسئولية وعناء تربية الأبناء والصبر على مشقة تلك التربية والحرص الكامل على النعمة التي يهبها الله للبعض في حين يُحرم منها البعض الآخر لحكمة يعلمها فقط المولى عز وجل، فضجَّت قاعة المحكمة بالتصفيق الحاد وانصرفت ليلى من قاعة المحكمة باكية مهزومة لكنها ولأول مرة في حياتها وجدت نفسها نادمة وقت لا ينفع الندم، لكنها رغم ذلك لم تشعر

بمرارة تجاة شقيقتها أو طفلتها التي خذلتها أمام القاضي، فلقد فهمتْ ما غاب عنها لسبعة أعوام كاملة، فهِمَتهُ متأخرًا وبعد فوات الأوان.

خرجت "سيلين" مع خالتها الحنون وجارها الطيب سعداء مبتهجين يستعدُّون جميعًا للإحتفال بعيد ميلاد "لينوو".

أعدَّ الوسيم مروان حفلًا رقيقًا ناعمًا على نغمات الموسيقى وغمر لينوو في تلك الليلة الخاصة بها بالورد والشموع التي تبعث رائحة الفانيليا واللافندر في الآرجاء ووضع كعكة الشوكولا المفضلة لها على طاولة تشهد ما لذَّ وطاب وشرع يوزع الأطباق والكؤوس فنظرت سيلين لخالتها ثم همست إليها في صوت خفيض: **لما لا تتزوجين هذا الوسيم، إنه عاشق تفضحه عيناه وتصرفاته، هو يحبكِ وأنا أحبه وأنتِ كذلك؟**

إبتسمت لينا في صمت وتأمل وهي تراقب حب مروان لها وحب سيلين له، الصغيرة التي أكسبتها ظروفها المؤلمة خبرة مبكرة ببعض شئون الحياة وصارت تملك ردارًا قويًا للحب والصدق، يعجبها احساس سيلوو بالناس من حولها ومنطقها الفطري في تقدير الأمور، فهزت رأسها إليها باسمة وهي تقول: **انتظري صغيرتي ولندع الأيام تختار لنا ما هو خير!**

ثم تشابكت الأيدي حول مائدة الإحتفال وانطلقت أفواههم تصدح بأغنية عيد الميلاد واستمتع الجميع بالسعادة والهدوء بينما يرفرف طائر الحب في الآجواء، ثم التقط "مروان" يد "لينوو" وراقصها على موسيقى زامفير الذي تعشقه واضعًا يده حول خصرها الرشيق وخطواته تقترب منها أكثر وأكثر فتشعر بحرارة قلبه، إنه قلب يملؤه الحنين ويغمره الشوق وسألها هامسًا: **هل تسمعين؟**

فأجابت في استفهام: **أسمع ماذا؟**

فأشار بيده التي تعانق يدها إلى قلبه قائلًا: **هذا المسكين.**

حاولت لينا أن تتهرب خجلًا لكن عينيّ مروان حاصرتها ولم تسمح لها، ثم فوجئت به يجذبها نحوه أكثر حتى التصق بها تمامًا وهو يقول: **طوال حياتي يا لينوو لم أعشق امرأة كما أعشقُكِ، لم أفرح إلا بكِ ولم أحزن إلا من أجلكِ، أليس الأمر مُحيرًا؟**

قالت ببراءة: **أتُحبُني هذا الحد؟**

فهمس في أذنها وصوته ينفجر دفئًا: **أعشقُ كل تفاصيلكِ حبيبتي..**

أغلقت الصغيرة المصابيح فلم يتبق سوى ضوء الشموع ترسم ظلال الغرام المتراقصة على وجهيّ الحبيبين، بينما دفع ذكاء سيلين صاحبته الصغيرة إلى الإنسحاب نحو الداخل تاركة مروان ولينا سابحين في ملكوتٍ استحقا أن يولد لهما ومن أجلهما..

ثم مضت السنوات بعد تلك الأمسية وقد اتسعت دائرة السعادة بقدوم "ليان مروان الحكيم"، الفراشة الجميلة التي وصلت إلى حديقتهم الغنّاء فزادتها حُسنًا وبهاءً وصار لسيلين أختٌ تعشقها وتنكمش إلى جوارها تحت الفراش فتشعر بالدفء في ليال الشتاء القاسية...

تمت

(٣)

لو علمت

كيف تكْسِرني قسوتك

وكيف يهشمني صمتك

لأعطيتني قلبك

أعُضُّ عليه عضًا ..

جدير بالذكر.. أنا مشتاق

من مسكنه المعلَّق في الطابق الرابع عشر من بناية على أحدث طراز أمام الحديقة الدولية في مدينة نصر تعمَّق إحساس "نـــزار صدقـــي" بالنفي عن سطح الأرض.. ولولا أصدقاء الطفولة وأصحاب الجلسة الأسبوعية على المقهى وعم إبراهيم "صاحب عربة بيع سندويتشات الفول" والمسئول الوحيد عن وجبة الإفطار، والحاجة "عزيزة " تلك السيدة العجوز التي تقيم على شئون بيته منذ أن كان متزوجًا ثم وفَّت له واستمرت ترعاه بعد انفصاله عن "شاهندة" فحرصت على زيارته مرتين أسبوعيًا لتُشرف على بيته الجديد؛ لشعر بالإنفصال التام عن دنيا الأحياء..

فمنذ ثلاث سنوات استحالت حياته رتيبة، ذات نمط ممل، فطوال ساعات اليوم يُغرق نفسه في العمل ومتابعة العملاء وتنفيذ طلباتهم السخيفة التي يتسم بعضها باللامنطق واللامقبول، لكنه ينفذها مضطرًا بدافع حرصه الشخصي على العميل وحتى لا يفلت منه فيُسارع إلى إحضار غيره.

يتابع عمله باعتياد ورتابة مُكتفيًا بما لديه من قائمة عملاء تحقَّقت له بعد عشر سنوات من الكفاح المضني المستمر، ولقد

استقرَّت الأسماء في قائمته كما استقرت أرقام هواتفهم وعناوين بريدهم الإليكتروني في جواله، اعتادهم واعتاد سخافاتهم ولا طاقة له بتجديد القائمة ولا حماسة لديه تدفعه لجلب المزيد منهم، فالكل عنده صار سواء..

يعود من عمله منهكًا في السابعة مساء بعد أن يتناول وجبة دسمة في أحد مطاعم الأكلات الجاهزة السريعة، يرغبها وجبة ثقيلة تملأ معدته وتسد جوعه فلا يجد نفسه مضطرًا للوقوف في مطبخه الذي صار بدائيًا مهجورًا لتحضير ما يسدُّ رمقه، يدلف إلى شقته يتأوه من جلسة المكتب التي تؤلم ظهره وتُيبس عضلاته التي كانت فيما سبق مشدودة متناسقة قوية، يتجه إلى الثلاجة مُخرجًا زجاجة ماء كبيرة يعِبُّ منها حتى يرتوي ثم يصطحبها معه إلى غرفة النوم، يبدل ملابسه بنمطية وتعَود، يستلقي في فراشه بعد أن يُغلق هاتفه ويضعه على الشاحن.

يتمدد مستندًا إلى وسادة طبية نصحه بها الطبيب، يُشعل سيجارة ما قبل النوم ثم يضغط زر "الريموت كنترول" وهو يشعر بامتنان عجيب للمهندس الذي ركَّب له هذا الدش الجديد الذي تتوالى قنواته أمام عينيه تحمل صورها أمامه الكثير من المشاهد والبرامج والحكايات، يعاني الوحدة وانعدام التواصل بينه وبين ما

يرى، لكنه يظل غير قادرعلى إغلاق الدش والتلفاز؛ يخشى أن ينفرد به الأرق وتُحاصره الأفكار في فراشه الخالي البارد كل ليلة..

غالبًا ما يستقر مؤشر "الريموت"على قناة تعرض فيلمًا أجنبيًا حديثًا كان أو قديمًا لا يهم، فاختياره للفيلم الأجنبي لم يكن عن رغبة حقيقية فيه أو في أحداثه، بل فقط كتنفيس آلي عن شعور خفي بالشجن، يُحرك أصابعه على أزرار الريموت ليضغط أرقام تلك القناة بالذات، إنها قناة "شاهي" المفضلة ولطالما كانت تلك القناة بترددها وأفلامها شاهدًا حيًا على أمسيات الغرام، ثمة ليال كثيرة قضتها "حبيبته شاهي" مستقرة بين ذراعيه، مستكينة مُلقية برأسها فوق قلبه مباشرة، الآن صارت لياليه دونها مقفرة، وقلبه موصد عن غيرها، وها هو الآن يُحفِّز نفسه ويدفعها دفعًا لمتابعة الفيلم؛ فربما ينقذه الإستغراق في أحداثه من ليلة مملة ككل لياليه دونها، دون "شاهندة"..

ليلُه طويل موحش، تُجهز ساعاته الثقيلة على إنسانيته فتُفزعه وتُربكه وتتركه فريسة سهلة للجزع والشعور بالفقد والعوز!

لقد غدا "نزار" كارهًا للوحدة، فزِعًا منها، يفر من نفسه فرارًا حتى في ساعات النهار المزدحمة، فحين أبْلَغه صاحب الشركة

الخاصة التي يعمل بها بترقيته نائبًا مباشرًا ومستشارًا رسميًا له وأوصى بتخصيص غرفة مكتب واسعة مستقلة لنزار في الطابق المخصص للإدارة وغرف المدراء، تراوحت نفسه بين الفرح بالترقية والخوف من الإنفراد بنفسه في غرفة مستقلة بعيدًا عن الزملاء الذين امتزجت حياته بهم وبشواغلهم، كيف يغيب عن زميله "أيمن" وحديثه المستمر عن أعباء تجهيز عش الزوجية ومماطلة الصنايعية له وسخط حَمِيه الدائم عليه؟!

كيف يتغيب عن حكايات "مدام إيلين" المملة وثرثرتها الدائمة عن غراميات زوجها مع سكرتيرته الحسناء، يعرف أحاديثهم ويحفظها عن ظهر قلب لكن لا رغبة له في مفارقتهم والجلوس منفردًا في مكتب خاص يُغلِق بابه عليه فتأكله الوحدة ويركبه الهَم، لقد تعجَّب صاحب الشركة من حرص نزار على البقاء مع زملاءه في نفس المكتب رغم ضجيجهم وصخبهم وهذرهم، وأصرَّ على انتقال نائبه إلى مكتب بجواره ووعده بأن يشغله بالعمل في كل أوقاته فلا يجد متسعًا للفراغ أو الوحدة أو التفكير؛ فغالب نفسه في النهاية مستسلمًا لرغبة رئيسه في العمل وعلى كل حال لم يكن شعوره القاتل بالوحدة والنبذ جديدًا عليه،

فقبل ثلاث سنوات صدر قرار نهائي بنفيه من كل حياته السابقة التي ظنَّها سعيدة ناجحة حين قالت له "شاهندة "ذات مساء

:نزار، لا أمل في حياتنا معًا، أرجوك إني أستحلفك بذكرى كل الأيام الجميلة الطيبة التي جمعت بيننا ألا تعارض أو تُماطل في الطلاق وأن تدعني لنفسي، أعيش أيامي في هدوء وترحل من البيت أو أرحل أنا..

لقد صدمته كلماتها وهي حب العمر كله، استمات في إرضائها بكل المتاح لديه وعبثًا حاول أن يُثنيها عن قرارها العجيب، استعان عليها بوالديها وصديقتها المقربة لإثنائها عن قتله وقتل سبع سنوات من الحب والسعادة عاشاها معًا رغم مرارة بعض أحداثها..

التمس لها العذر في تغيُرها معه بما شهدته حياتهما معًا مؤخرًا من آلام لا يد له فيها، فلا ذنب له في وفاة طفلهما الأول بعد أيام من ولادته، ولا ذنب له في اجهاضها ثلاث مرات بعده، كانت آخرها قبيل أسابيع من هذا القرار الأليم، حاول إغراءها للعدول عن قرار الإنفصال، ذاك القرار الذي نزل على رقبته كالسيف، هجر البيت إلى أن تسترد رغبتها فيه أو تستعيد إقبالها على الحياة معه، كانت دموعها التي تنساب على وجنتيها

لساعات طويلة تقتله وتزهق روحه، عرض عليها الذهاب إلى طبيب نفسي أو استشارة أحد المتخصصين في الحياة الزوجية فرفضت وتمسَّكت برفضها ولم يُجدِ كل ذلك معها ولم يشفع له حرصه عليها حتى أنه سألها يومًا دامع العينين أمام صديقتها المقربة "رغد المصري": **في أي شئ أسأتُ إليكِ حتى تُعاقبينني بالحرمان منكِ؟!**

فلم تُجب واشاحت بوجهها عنه، رقَّت له "رغد "وفي غرفتها بكت من أجله، فلقد رأت رجلًا دامعًا ولأول مرة في عمرها يكاد يجثو على ركبتيه راجيًا أُنثاه ألا تقضي عليه بفراقها له، لكن صديقتها العنيدة "شاهندة" لم ترق، لم تلن، بل قالت في هدوء تُحسد عليه: **إنكَ أبدًا لم تفعل، لا أنكر عليكَ شيئًا طوال سنواتنا معًا، لكني أشعر أن حياتي معك قد انتهت عند هذا الحد وكفى، أليس ذلك كافيًا؟ ربما لا يكن كافيًا لرجل ولا مُرضيًا لكرامته أن تزهده امرأته، لكنها أسباب كافية ووافية بالنسبة لي تجعلني أتمسك بالطلاق..**

ثم رجته شاهندة ألا يورط والديها في الأمر وألا يُعقده أكثر حتى لا يضطرها إلى طلب الخلع، تعرف أنه ليس بالرجل الذي يعاشر إمرأة غير راغبة فيه، جرحته كلماتها وحرقته نظراتها

المتجبرة المستهينة بمشاعره، الرافضة بتعنت لتمسكه بها حتى اللحظة الأخيرة؛ فلم يجد مفرًا في النهاية من قبول رغبتها القاتلة، تنازل لها عن مسكن الزوجية الذي اشتراه استجابة لطلبها حين أفضت إليه برغبتها في شراء شقة في نفس العمارة التي يقيم بها أبواها لتكون قريبة منهما، فقد صارت وحيدتهما بعد غرق شقيقتها التوأم منذ سنوات ولا مجال لتركهما وحيدين في خريف العمر، لكن والدها كان كريمًا معه أيضًا فقد عوَّضه عن مسكنه في المعادي بشقة صغيرة في حي تحت الإنشاء في إحدى المدن الجديدة التي تتشكّل هنا وهناك حول القاهرة وكأن القدر لا يبغي سوى نفيه وإبعاده عن حياته الماضية.

وتمَّت إجراءات الطلاق بهدوء واحترام متبادل، ورجاه والدها وهو يودِّعه ألا تنقطع صلته بهم بعد ما وقع، فلطالما كان "نزار" نِعم الإبن له، اعتذر الرجل مرارًا عن تلك الرغبة الجنونية التي تسلَّطت على ابنته "شاهندة" فأفقدتها توازنها النفسي وأفسدت عليها حياتها وصار ما صار..

لم يطق نزار العيش وحيدًا على أطراف القاهرة فباع مسكنه هناك واشترى شقة مدينة نصر أملًا في إغراق نفسه وسط الصخب

والإزدحام وحتى تستطيع "الست عزيزة "زيارته والبقاء على خدمته، وعن طريق تلك العجوز ظل الخيط متصلًا بطريقة غير مباشرة بينه وبين "شاهندة"، فعرف أنها باعت عشهما القديم ونزلت للعيش في شقة والديها، وأنها قد افتتحت "جاليري" صغير أنيق خاص بها في "جاردن سيتي"، تُشبع فيه عشقها الدفين للوحات والأنتيكات، تذكّر كَم حدثته حبيبته مرارًا عن رغبتها الجامحة في إمتلاك ذاك "المتحف الصغير" كما كانت تُطلق عليه كخطوة أولى يعقبها إمتلاكها لمكتبة صغيرة أنيقة ذات طابقين تُجاورها حديقة ومشتل صغير لبيع الزهور والنباتات النادرة، تذكّر كم اعتذر لها مرارًا عن عدم استطاعته تلبية حُلمها المحموم لتعذُّر السيولة معه، فقد استمر حينها ولأكثر من أربع سنوات بعد الزواج يسدد أقساط ثمن شقة الزوجية في "المعادي"، تلك التي أرادتها شاهندة فأسرع يبيع قطعة الأرض الوحيدة التى ورثها عن أبويه في بلدته ليحقق لها مبتغاها، فإذا بشاهندة تبيع تلك الشقة بسهولة بعد الطلاق غير آسفة عليها..

هكذا أخبرته "الست عزيزة" وهي تصنع له كوبًا من الشاي ذات صباح، كثيرًا ما كان يسألها عن "شاهي" ويترقب منها كلمة

تحمل بين حروفها أي ظلٍ لاهتمامها بأمره أو سؤال عنه، لكن ابدًا لم تكن إجابات "عزيزةً" تشي بشيء من هذا القبيل، بل إن إجاباتها كانت لا تُطمئن قلبه الكسير، استجمع شجاعته ذات مرة وعلى استحياء سألها: **ألا تسألكِ شاهي عني يا حاجة؟**

أرادت الست عزيزة أن تطمئنه لكنها أيضًا لم ترد أن تخدعه أو تكذب عليه، فأجابته في إشفاق أن "شاهي" تسأل عن أحواله من حين لآخر، فتجيبها عزيزة أنه باق على العِشرة، حافظًا للوعد، متمسكًا بالأمل في العودة.. فتسكت "شاهندة" وتُشيح بوجهها عن الست عزيزة وكأنها تتفادى المزيد من كلمات لا ترغب في سماعها ولا تُجيب عليها، شيئًا فشيئًا صمتت أسئلة "شاهندة" عنه وما عادت تهتم لسماع خبرٍ عنه، عام بعد الطلاق ثم عَلِّم بوفاة والدها إثر أزمة قلبية مفاجئة، وحين هاتفها ليُعزيها لم تُجب، فراسلها مواسيًا على تطبيق الواتس آب فلم تُجب أيضًا رغم تأكده من رؤيتها لرسالته..

و مضت السنوات بعد الطلاق على هذا المنوال وتلاحقت وصارت ثلاثًا، وبالتدريج لاحظ "نزار"عزوف عزيزة عن الكلام حول طليقته وتجنبها الحديث عنها وعن أخبارها منذ شهور

طويلة رغم محاولاته الدائمة لاستدراجها، وبعد فترة من الصمت المُتعمد أجابته على سؤاله في حدة وتذمر: **أستاذ نزار اهتم بنفسك ولا تسل عنها، ليتكَ تتزوج وتُريح قلبكَ منها، فأنت رجل طيب لا يعيبك شئ وتتمناك أي فتاة..**

ارتجف نزار بشدة حين صدمته كلمات عزيزة، ألحَّ عليها أن تُفسر قولها، لكنها رفضت أن تبوح بشيء وقالت: **عليكَ بالآنسة "رغد"، فهي صديقتها وسِرها كله معها..**

قفزت "رغد" فجأة إلى ذاكرته، واستحضر علاقته الطيبة بها، وكيف كانت تعاونه في استرضاء "شاهي" إذا ما غضبت أو تغيَّر مزاجها عليه فجأة دون سبب يعرفه أو دون مبرر يراه، فتَّش في هاتفه بإصرار عن اسمها، ابتسم حين قرأت عيناه الملتاعتان رقمها على شاشة جواله، كان الوقت مبكِّرًا للغاية، لم يرغب في إزعاجها على هذا النحو، أرسل لها رسالة نصية على تطبيق "الواتس آب" يدعوها لتناول القهوة معه في النادي صباح الغد لأمر هام، وكله أمل أن تجيبه رغد في أسرع وقت..

خفق قلبه بشدة لمَّا سمع نغمة جواله تنبهه بوصول رسالة على الواتس، كانت استجابة رغد أسرع مما توقع وردها عليه أطيب مما أراد، لقد قبلت دعوته بكل سرور، بل أخبرته عن

أمنيتها أن يكون لقائهما صباح اليوم لا غدًا، إنها في النادي الآن في مكانها المفضل الذي يعرفه جيدًا ولطالما تحدثا فيه عن "شاهي"، فقد أجابت:

: يُسعدُني لقاءكَ يا نزار، فقط أتمنى أن نتناول القهوة اليوم، فلم أشرب فنجاني بعد، لا تتأخر!

كانت تنتظره هناك في ركنها الهادئ في أبعد حدائق النادي عن صخب الأعضاء وهرج المارة من الصبية والمراهقين، لم يُرتب حديثه معها بل ألقى إليها بما سمعه من حديث الحاجة عزيزة الذي أربكه وترك قلبه واجفًا، رجاها أن تفسر له غوامض ذلك الحديث دون أن تُخفي عنه شيئًا فقد عرفها صادقة أمينة لم تعرف الكذب يومًا، ثمة كلمات خرجت من فمها شعر نزار بعدها بالأرض تميد تحت قدميه، كاد يموت و"رغد" تنهي إليه خبر زواج "شاهي" من "أشرف"، جار لها كان ومازال مهاجرًا إلى فرنسا منذ خمسة عشر عامًا، لقد رجع الرجل منذ ثلاثة أشهر إلى القاهرة، تزوج "شاهي" وعاد بها إلى باريس منذ أسبوع تقريبًا..

لطمته كلماتها وحطَّمت هدوءه فاستأذن منصرفًا بالكاد تحمله قدماه، شهد مسكنه الخالي دموعه وهو مستلقي على

الأرض ذبيحًا، متخبطًا متبعثرًا في دماء ألمه وأحزانه وإحساسه الغامض بالغيظ والحسرة.

هجر النوم جفونه وعرف الليالي القاسية الطويلة التي لا يغمَض له فيها جفن، فيتبعها صباح يُدركه وهو عليلًا مريضًا لا يقوى على الحركة، لم يخترق وحدته ولم يشق عزلته سوى مكالمات ترد إليه منها..

"رغد" التي أبت أن تتركه لقمة سائغة للحزن واللوعة، أصرَّ على لقائها فقبلت، سألها والغيظ يأكله، ترى هل كان لذاك الجار أي شأن في طلب شاهي المفاجئ للطلاق وإصرارها عليه؟ هل فاته إدراك شيء كان ينبغي له أن يعرفه في حينه؟ صمتت رغد صمت طويل ألم نزار وزاد الصورة قتامة في عينيه الزائغتين، أقسم عليها بكل غالٍ عندها أن تُريح ضميرها وتُفضي إليه بكل ما كان مخفيًا عنه، فإنها لا تدري أي سكين كبير غرستها "شاهي" في رقبته وصدره وتركته يموت نزفًا؟

أخبرها ودموعه تغالبه كم من مرة مال لتبرئة شاهندة من أي نقيصة ومن أي شبهة للغدر به، واطمأن للتفسير الذي قدَّمه له والدها رحمه الله خلال الفترة التي سبقت الطلاق من أنها

مضطربة نفسيًا وعصبيًا بعد فقدها طفلها الأول وإجهاضها المتكرر بعده وخوفها من غياب حلم الأمومة الذي سعت إليه كثيرًا خوفًا من الوحدة وانحصار عالمها دون أشقَّاء أو شقيقات أو أبناء، دافع عنها أمام المنطق الذي ملأه بأنها كرهته وكرهت عيشتها معه فجأة، استعان على نفسه وعلى منْطِقه اللعين بأن شاهي "بنت أصول" لا تكذب ولا تحب الكذَّابين، يؤمن بأنها تحبه قدر ما يحبها وأنها تكره شعورها بأنها تظلمه معها بانصرافها الجسدي والمعنوي عنه وعجزها عن مجاراته في مشاعره المندفعة نحوها، تُحاصرها خيبتها في الإنجاب ويؤلمها شعورها بالنقص لذا طلبت الفراق حتى لا تظلمه معها وإن لم يشتك هو..

لقد آثرها على نفسه، رأها ملاكًا يُظلل بجناحيه أروقة عمره، حتى إن هي هجرته وصممت على ذلك، فلا ضير أن يبتعد لفترة قصُرت أو طالت مادامت النهاية مضمونة، حتمًا ستعود "شاهي" الى ظله، بيد أنه مُتأخرًا فهِم أن لا ملائكة تسير على الأرض.

الآن فقط يريد أن يواجه ذاته، يريد أن يعرف الحقيقة أيما كانت، لقد زهد دور الغبي الساذج وآن لعقله أن ينضج حتى لو أقدم على أكثر الأشياء تهورًا وهو أن يحطم تمثال "شاهي" بيديه

حاملًا فأس الحقيقة، أسرَّ لرغد بهمومه وأوهامه التي تجعله ينهض من نومه مذعورًا مُكفهر الوجه، أنفاسه متلاحقة يكاد يختنق.

استمعت إليه ودموعها تتساقط رُغمًا عنها، أقسمت أنها لطالما تمنت أن تُحادثه بعد الطلاق لتخبره بكل ما تحتفظ به في صدرها فيكاد يُهشم ضلوعها، لم ترغب في إيلامه ولا في تشويه صورة أعز صديقاتها أمام رجل أحبها بكل ما تعني الكلمة من معان، أبدًا لم ترغب سوى في إنقاذ ما يمكن إنقاذه من مشاعر متدفقة رأتها وعايشتها عن قرب، مشاعر صادقة يحملها قلب رجل أحبَّ بعمق وإخلاص دون انتظار مقابل سوى أن تبادله محبوبته صدق بصدق وحب بحب، ثم أردفت في عطف: **لستَ قاسيًا ولا شرِّيرًا في ما تظنه نحو "شاهندة"، فلا تُجهد نفسك ولا تجلد ضميرك وتستنفذ طاقتك في محاولة لتبرئة شاهي من كل ظن، فالأمر برُمَّته مُحزن..**

لقد رأت رغد أن من حق نزار الآن أن يرى الصورة كاملة غير منقوصة وليختر لنفسه بعدها ما يُريح عذابه.

جلست قبالته تروي له تفاصيل حكاية عايشتها منذ سنوات ولم تشأ أن تجرحه بتفاصيلها سابقًا؛ فالزمن كفيلٌ بشخوصها وأحداثها يمحو ما يمحو ويبقى الأمر مجرد ذكرى، لكنه لم يكن كذلك..

لقد أحبَّت شاهندة جارها الوسيم قبل هجرته، "أشرف السعدني" ذو الطموح النافذ والرؤى الغامضة لمستقبل مميز يسعى إليه يريده بإلحاح ويرسمه لذاته بإصرار، بادلها الشاب الحب بالحب، اقترب منها وصار مركز دائرتها المحيطة، اكتفت به عن الكل، قاطعت من أجله أصدقاء النادي راضية بما يفرضه عليها من حصار، هو فقط صار كل عالمها من الجنس الآخر، لكنه لم يقطع لها أبدًا وعدًا صريحًا بالزواج، وعلى الرغم من ذلك كانت تنتظر بلهفة اليوم الذي يطلبها فيه فتصير زوجته على سنة الله ورسوله، مضت الأحوال بينهما على خير مايرام، ثم تعرَّف "أشرف"على حسناء فرنساوية عشرينية العمر، لا تفلتها عينا رجل، التقاها في إحدى المؤتمرات الدولية الخاصة بالترويج للسياحة حيث يعمل مترجمًا في الشركة الراعية للمهرجان، رافق أشرف "آنَّا رينيه "طوال مدة إقامتها في شرم الشيخ وغادر معها إلى باريس زوجًا بعد إنتهاء المؤتمر، وأرسل رسالة إعتذار إلى شاهندة مُبررًا عجزه عن الإرتباط بها لضعف إمكانياته وضبابية مستقبله، تحطَّمت معنويات "شاهي" واضطربت نفسيتها وأدخلها والدها مصحة نفسية في سرية تامة، وتوالت المصائب على عائلتها السعيدة حين لقيت توأمتها مصرعها غرقًا في حمام السباحة في النادي

الاجتماعي إثر اصابتها بسكتة قلبية مفاجئة، أجهز الأمر على رأس "شاهي" وأحرق أعصابها الملتهبة، وقضت المسكينة شهورًا في المصحة، في عزلة تامة فرضها عليها وضعها الجديد.

وحين خرجت كانت قد يئست من الحب وكفرت به بل باتت تخشاه وتخشى معه تعلقها العاطفي بأي شخص، فالكل راحل ولا حد يبقى، ثم ظهر نزار على الساحة حين تعرَّف إليها في أحد معارض الفنون التشكيلية التي تهواها إلى حد الهوس، لقد أحبَّها وأغدق عليها حنانه وحاصرها بفيض عواطفه، كانت محطمة، يائسة، فقبِلتْ به زوجًا لعلَّها تنسى به همومها وأكبرها "أشرف" الهارب الذي لم يبرح خيالها قط، ورغم كل قراراتها بالنسيان وتجاهل الذكرى إلا أنها لم تقدر أن تفارق العمارة السكنية التي شهدت حبها وتفتحت على سُلماتها أزهار مشاعرها، أخلصت "شاهي" لزوجها إن كان مفهوم الخيانة قاصرًا على التلامس والتواصل الجسدي، فجسدها لم يُمنح إلا لزوجها لكن قلبها أبدًا لم يُخلص له، وطوال سنوات زواجها من نزار ذاك المسكين المطعون في قلبه كانت تتحسس أخبار ذاك الحبيب الذي صار فرنسيًا حتى عرفت بوفاة زوجته بجرعة زائدة

من المخدرات، فراسلته تُعزيه وتواسيه في مُصابه، فانفرجت نافذة الحب القديم وتتابعت أمواجه وأخبرها أشرف عن رغبته الزواج بها، تلك الرغبة التي ما فارقته أبدا لكنه لم يكن قادرًا عليها حينذاك، استيقظ داخلهما الحلم القديم واستعر الشوق يطلب تحقيقه واقعًا وأرادا استكمال فصول قصتهما الناقصة وأعانهما على ذلك أنه لا ثمة شيء يربط شاهندة بالزوج المسكين "بدل الفاقد"، فلا أطفال ولا ثمرة لزواج إحتياطي أقامت بين جنباته لسنوات وكلها ثقة أن "نزار" لن يُنازعها في أمر الطلاق لأنه يحبها بصدق وغايته الحقيقية أن يراها سعيدة..

ذكَّرتْ رغد نزار بشكواه السابقة لها في بعض الأحيان من أن شاهي تُحسن عشرته كزوجة لكنه يفتقد لهفتهاعليه كحبيب، لا نقص يتهمها به لكنه أيضا لا دفء عاطفي يُحركها نحوه، دفء يكافئ حبه الجارف لها ورغبته الثمينة في إسعادها.

أقسمت له أنها تردَّدت كثيرًا في إخباره بالحقيقة لكنها أخيرًا تجرأت وأفصحت عما ضمه صدرها لسنوات خشية أن يتهمها هو نفسه بتشويه شاهي صديقتها الوحيدة، لكن لا ضير من الإفصاح الكامل الآن بعدما تزوجت شاهي بمن تريد، بمن

تحب، فرأت رغد أنه من الظلم البين أن تهنأ صديقتها بمُرادها وتحقق واقعها الذي راودها لسنوات في حين يظل نزار تعيسًا متقوقعًا في شرنقة الألم على أمل عودة المياه إلى مجاريها، يأكل ويشرب ليبقى على قيد الحياة بينما ينخر الفقد عظامه نخرًا

لقد حاول نزار كثيرا أن يقنع نفسه بما يؤمن هو شخصيًا به وتشهد الأحداث على صحته، ولكن كيف يقتنع القلب الحزين بما يؤلمه الإقتناع به؟!

لقد بقي الرجل متعلقًا بأمل واهم، عاجز هو عن إسترداد حياته الماضية بأي طريقة، رؤيته غامضة ويقينه عليل، بينما بقيت رغد إلى جواره تُدلل قلبه المهترأ وتربت عليه لعلَّه يبرأ مما إعتراه ويلتفت إلى ما اعتراها هي!

حدَّثه الأصدقاء المخلصون كثيرًا عن ضرورة لملمة شتات نفسه المبعثرة، قال أحدهم له ذات مساء: **مازلتَ في الخامسة والثلاثين يا صديقي، لا عليكَ يا نزار داوِها بالتي كانت هي الداء.**

و أردف آخر: **النساء كلهن سواء يا أخي، فإن ذهبت شاهندة فستجدُ حولكَ ألف شاهندة، صدقني..**

رويدًا رويدًا صار لقاءه برغد عادته الجديدة التي لا يستطيع التوقف عنها، يهرع إليها كلما اشتدت عليه الذكريات وهاجت، تبتسم في استقباله وتخبره دومًا أن البعض يخلق الأعذار ليبتعد والبعض يتعلق بالوهم ليبقى، تعْلم أنه لا حيلة له فيما يجيش في صدره من مشاعر لكن عليه أن يقاوم؛ فلا يمكنه أن يعيش حياته كلها يسدد فاتورة تجربة سابقة بكل ما تحمله بين جنباتها من شقاء وسعادة، ثم كان أن إلتقته يومًا بوجه صامت وعينين دامعتين بينما وشت إليه ملامحها بأن هناك ما تكتمه وتقاوم بشدة رغبتها في الإفصاح عنه، ألح عليها بالحديث فإذا بها تخبره بما وأد آخر أمل له في استعادة شاهندته الفارة من واحته، لقد أنجبت شاهي من أشرف وجاء توأمهما صحيحًا سليمًا لا شية فيه، لقد ترسَّخت روابطها بحبيبها وتعمقت نبتتها وتوغلت في أرض غير أرضه بما لا يدع لنزار بارقة أمل في استعادة زوجته مرة أخرى وأن الأمر لم يكن ألمًا عابرًا يتحمله حتى حين، بل واقعًا ضرب جذورة الصلبة في أرض اليقين..

فهنيئًا للسعداء بسعادتهم وتعسًا للأشقياء بشقائهم، ولولا مساندة رغد والحبوب المنومة لاستحالت حياة نزار إلى جحيم

متصل، ثم حدث أن قلَّت لقاءات رغد به تدريجيًا وحين سألها يومًا عن السبب، أخبرته بقرارها الخضوع لمشورة أهلها والوقوف على تحقيق رغبتهم بأن يرونها عروسًا ترتدي ثوب الزفاف وهي التي تخطّت الثلاثين بعام واحد ولا تزال مشاعرها بكرًا بلا تجربة ولا فرصة، أعلنت له عن رفضها السابق لزواج الصالونات، زواج يراها فيه الرجل كسلعة، يُثمَّنها ويعرض السعر ثم يدفع ويحمل بضاعته ويرحل، زواج ينتهك حرمة قلبها وإنسانية مشاعرها ويُساوي بينها وبين غيرها من بنات جنسها لدى العريس.

فإن هي رفضته فسيُسارع إلى البحث والتفتيش عن عروس أخرى تقبله، ولن يتوقف عند شخصها ولا عند رغبة حقيقية أصيلة تُحرِكه للزواج بها هي تحديدًا دون غيرها، أخبرته كم طاقت نفسها لرجل تحبه ويحبها، رجل يراها أنثاه الوحيدة، يريدها بإصرار بينما تُغمض هي عينيها حين تُعانق يده يدها وهما يستمعان معًا لموسيقاهما المفضلة، إنها بحاجة حقيقية لقلب يُكمل إنسانيتها، فرغد تكره الوحدة ويفزعها جدًا أن تموت وحيدة.

لذا قبِلت أن تلتقي بترتيب مخطط بشاب في السابعة والثلاثين من العمر في بيت خالتها وجرى بينهما الحديث المعتاد في مثل هذه المناسبة، ورجعت من اللقاء حائرة لا تستطيع الحكم

على مدى إستعدادها النفسي للقبول بالرجل وإن بدا مرحًا دون ابتذال، مثقفًا دون تفلسف، جذابًا دون رعونة، أعلنت عن حيرتها لأسرتها وكادت تعتذر لولا حديثهم عن تمسك "بسَّام" الشديد بها، وعن ضرورة أن تمنح الرجل والتجربة ذاتها فرصة أخرى، فتكرر اللقاء عدة مرات وانتهى بالخطبة منذ ثلاثة أيام، هاهي تلقاه للمرة الأخيرة وهي تضع خاتم "بسَّام" في إصبعها ولا يسعها أن تطعنه في الخلف وتستمر في لقاءاتها وأحاديثها مع "نزار" وهو الذي لم تذكر اسمه لخطيبها أبدًا ولم تحدِّثه عنه بل أنها لم تدعُ نزار نفسه إلى حفل خطبتها باعتباره صديقًا، لم ترغب في ذلك.

ودَّعته رغد في هدوء بكلمات صادقة حانية وتمنَّت له مستقبلا سعيدًا في القريب العاجل شريطة أن يسعى هو ذاته إلى النسيان وتجاوز أزمته والإلتفاف حول ماضيه ومباغتته لألمه والإجهاز عليه ليهنأ بقادم سنواته فمازال للحياة بقية شريطة أن يحاول نزار بكل طاقته إنجاح الأمر.

مرَّ عامان على آخر لقاء جمعه بالرقيقة "رغد"، وشهدت تلك الفترة محاولاته الحقيقية للتخلص من شبح "شاهي"، ثم قبوله السفر إلى دبي كمديرٍ لفرع شركته هناك، وفي إحدى زياراته لأصدقائه المصريين المقيمين هناك وجدها تقف وحيدة قرب

النافذة، دقَّ قلبه بشدة وباتت خفقاته عالية تكاد تُسمع، رغد هنا، يالا روعة اللقاء..

أسرع نحوها وكأنه وجد كنزًا: **أنتِ هنا؟ كيف ومتى؟ أين بسّام وكيف حالكِ معه؟**

ولأول مرة يُصافحها وقلبه يرقص طربًا ونشوة، يتلهف عباراتها وتُطربه كلمات خرجت من فمها الصغير ذو الشفاة الوردية المكتظة في شموخ أنثوي مثير، وبخباثةٍ نظر إلى إصبعها فوجده فارغًا، بلا خاتم زواج فابتسم.

نظرت إليه بود فطري وقالت: **أنا هنا وحدي يا نزار، دون بسَّام أو غيره.**

لأول مرة شعر نزار أن كلماتها تضرب في أعماقه أوتارًا مُهملة، لم يكن يعنيها أو يشعر بها من قبل، كأن خيطًا خفيًا ربط ماهيته برغد الرقيقة، كان خيطًا لا يشرحه كلام ولا يضمَّه مضمون، كان نزار أحمقًا، نعم أحمقٌ كبير..

ناولها كوبًا من العصير ودعاها لتتابع حديثها وهو يسمعها بشغف كامل أردفت: **أعمل هنا يا نزار منذ ثمانية أشهر تقريبًا في عمل يخص منظمة العفو الدولية، قبلها سكنتُ بيروت عامًا**

كاملاً للتدريب، لم أكن سعيدة تمامًا ولا تعيسة تمامًا في خطبتي لبسّام، لا أنكر أني كنتُ مستمتعةً بمشاعره المشدوهة نحوي، أتمتع بإقباله عليّ ورغبته الزواج بي، لكني أبدًا ما شعرت بنفس تلك الرغبة ولا نصفها ليُحركني نحوه، وكلما تعجَّل الزفاف تحجَّجتُ ورُحتُ أقلب الأعذار، حاولت الإستمرار ثم تعبتُ من تمثيلي لدور المهتمة، الراغبة في الشيء، المتلهفة على إتمامه، بينما ينتحر عقلي ويذوب قلبي، ورغم كل المغريات التي قدَّمها لي "بسام" للإستمرار والتعجيل بالزفاف إلا أني لم أرغب في أن أكون منافقة، مخادعة، إحترامي لذاتي ولأنوثتي منعني أن أتزوج رجلاً لا يحمل له قلبي حبًا يُحركني، يشملني، يقتحمني ويُعزز دفاعاتي لأنسى حبي الذي أبدًا ما كان قديمًا.

عند هذه الكلمات شعر نزار وكأنه يرى رغد لأول مرة، نظر إلى عينيها فأدركته عمق نظراتها، أحسَّ أنها أبدًا لم تغب عن ذاكرته طوال العامين الماضيين، ربما لم تكن تطفو على سطح خلاياه، لكنها كانت حاضرة في الأعماق، تزوره صورتها وكلماتها كلَّما خانته أيامه وتوحشت عليه ذكرياته فيبتسم، اقترب منها وهو يموت شوقًا إلى ضمِّها، إلى تقبيلها، لا يعرف لِمَا أحس برغبة جامحة في أن يلتقي بها بطريقة ما، يريد أن يمتزج بها، أن يُعمِّق لقاءه

بها على نحو لم يعرفه من قبل، لا شيء يمكن أن يمنعه الآن، لا ذكرى تُقيده ولا ماض يُكبل يديه، ولا خاتم زواج يصفعه.

سحبها برفق إلى خارج الإحتفال، الليل والقمر والأشجار شهود عيان على حب جديد تُكتب له شهادة ميلاد بحبر خاص، حبر الصدق.

ضمَّها نزار وقلبه يرتعد بين جنباته، لا خوفًا بل فرحًا، أحسَّت رغد بأنفاسه تتسارع وبرغبة حقيقية تعتريه وحب غالب يروي قلبه، وجدتْ نفسها حاضرة في بلد غريب عن بلدها تقف في أحضان رجل أحبَّته بنُبل وبعمق لسنوات، رجل تغلغل في أصولها وكانت هي قدره الذي هرب منه دائمًا، رجل ما أحبَّت سواه فلم تستطع أن تكون لغيره احترامًا له ولنفسها..

همس في أذنها برفق: **آسف، لقد تأخرتُ كثيرًا حبيبتي لأفهم مشاعري، غبي أحمق لم أر النور الذي آتاني من خلالكِ، اغفري لي ولننسى كل ما جرى، فقد كان حلمًا مزعجًا وقد صحوتُ منه، إن التجارب يا رغد تُصقل قدرتنا على الحب وعلى الفهم والإدراك وإن جاء متأخرًا.**

أجابت وقد استقر رأسها على قلبه والتفت ذراعاها حول عنقه وكأنها تتشبث به

: وهل كنتَ تحتاج إلى كل ذاك الوقت لتستعيد توازنك يا نزار؟، لقد عذبتني.

: سامحيني مولاتي، فقد كنتُ كأسًا ممتلئة لا تقبل المزيد، يفيض الماء عن حافتي يا رغد، فأفرغتِني أنتِ على مهلٍ من مُحتواي لأستقبلَ حبكِ من جديد وهو أروع حب عرفه قلبي.

صمتت الألسن وسكنتْ الأحرف، وأخيرًا التقيا في قُبلة دافئة أحيَّت أعمارهما من جديد، تشهدها عيون مغمضة تحلم بأمنيات براقة تُرفع إلى السماء في تضرع ورجاء، فقد ابتسمت لهما الحياة وطاب مذاقها..

تمت

(٤)

يموت الحب بالهجران، وتذوب
الروح بالخذلان الذي كلما
زادت جرعاته زاد القلب
صلابة وراح يُردد "كل مَن
عليها فان"!

وتتوالى الأحداث عاصفة

انتصفت الساعة بعد العاشرة صباحًا، نهار شتوي كئيب لا تُرى فيه الشمس إلا باهتةً ككل سنوات طفولتها وصباها، وقفت "نهاد" أمام المرآة تنظر بفخر إلى معالم جمالها الجبار، وقع بصرها على استدارة نهديها الفتاكين، راحت تتحسس بحسرة ثنايا جسدها، ثم أدارت رأسها نحو زوجها الذي يغطُّ في نوم كريه، رشقته بقرف ومرارة، صوت شخيره ضاعف نفورها، اقتربت منه واضعة الوسادة على رأسه علَّها تُخفض من شخيره المُزعج، لكن لا جدوى، فمازال طنينه يصل إلى مسامعها فيوشك رأسها أن ينخلع من مكانه، كادت تخنقه بالوسادة لولا ضميرًا وخزها في اللحظة الأخيرة، أشاحت بوجهها عنه، حشرت نفسها في ثوبها وأحاطت عينيها بغلالة من الكحل الأسود الذي يزيدها جمالًا وبهاء، غادرت إلى غرفة الجلوس، رمت نفسها على الأريكة ترتشف قهوتها السادة في صمت، وأخذت تُقلب قنوات الدِّش بالريموت كنترول وهي شاردة الذهن، ينهشها القلق والترقب، رنَّ جرس هاتفها المحمول؛ فأعادها لأرض واقعها الخشن، إلتقطته بلهفة طفولية، تحدثت بصوت منخفض بينما ارتسمت

البهجة على معالمها، زال توترها وتسرب الإرتياح لدواخلها المضطربة، اطمأنت أن ابنتها مازالت مستغرقة في النوم، تجلس بجوار سريرها مربيتها الأجنبية، تعطَّرت وحرصت على ضبط غُرتها، إلا أن صوت زوجها القادم من غرفة النوم اخترق سياج غبطتها، اتجهت نحوه، ووقفت على باب الغرفة تسأله بجفاء: **طلباتك، اؤمُر؟**

سألها بنبرة ناعسة: **إنتِ رايحه فين على الصبح كده يوم أجازتي؟**

: هشتري طلبات للبيت وبعدين هعدي على مروة شوية اشرب معاها فنجان قهوة.

رمقها بطرف عينه وهو يقول بنبرة عتاب: **هو لازم يعني النهارده، ده إنتِ بتهربي من القعده معايا بقى و.....**

قاطعته بتأفف: **كفاية بقى كلام في الموضوع ده، مش كل يوم هنعيد نفس المَوال، إنتَ مابتزهقش!**

أولته ظهرها متابعة القول بنبرة أهدأ: **لو عوزت حاجة، اطلبها من "لي"، أهي عندك في المطبخ، وما تقرَّبش من أوضة البنت لو هتشرب سجاير.**

شعرت "نهاد" بالإختناق من أجواء البيت الكئيبة، هرولت إلى خارج الشقة، دلفت إلى داخل سيارتها المرسيدس الفارهة، طلبت من السائق أن يوصلها إلى الكورنيش، وهناك جلست على إحدى الصخور الكبيرة، المستقرة بوداعة على شاطئ البحر، لفحت النسمات وجهها البض، تطاير شعرها الأسود الفاحم ولامس بحنو وجنتيها المرمريتين، هدير أمواج البحر حرَّك الشجن داخلها ودفعها مجرى ذكرياتها نحو شط ماضيها، استسلمت لبكاءٍ صامت بينما لاحت لها من بعيد صورة "عماد"، ابن الجيران الذي تفتحت براعم عواطفها على حب جارف حملته له لسنوات، وفي اليوم الذي حصلت فيه على الثانوية العامة جاء الأهل والأقارب والجيران يهنئون ويباركون ومنهم الست "أم عماد"، لكنها جاءت تحمل خنجرًا ذبحت به كل أحلام نهاد البريئة، جاءت السيدة في ود وسكينة تحمل الشَرْبات وتطلب يد "مروة" شقيقتها الكبرى لإبنها البكري الأستاذ عماد، فقد تم تعيينه في النيابة ولديه شقته التمليك باسمه في عمارة والده المقاول الكبير وسيارته الخاصة، فما ينقصه غير العروس؟! إنها مروة، شقيقتها التي تكبرها بعام لكنها توأمتها، أبدًا لا تُخفي عنها شيئًا سوى حُبها لعماد، فذاكَ سِرها الأجمل الذي حفظته حتى لا

يتحطم ذاك الحب بالعلانية والإفصاح عنه، فمروة لاتؤمن بالحب قبل الزواج ولا تُعول عليه، هي فقط تنتظر ابن الحلال الذي سيدخل البيت من بابه، ساعتها ستُحبه بكل طاقتها وستُخلص له وسيكون هو الرجل الأول والأخير في قلبها، فلا طائل من الحب قبل الزواج ولا فائدة له غير اللوعة والهجران عند أول منعطفات الواقع الخشنة وما أكثرها.

لم تُعلق "نهاد" على حديث والدتها سوى بابتسامة باهتة رسمتها عُنوة على شفتيها، اقتربت من شقيقتها وأمسكت يديها في فرح مخنوق، أصابها خرس عقد لسانها، كانت تود أن تصرخ، أن تقول " **لا، عماد حب حياتي فلا تقتلوني فيه**".. لكن ألمها وصراخها خرج كزغاريد انطلقت منها بلا تفكير، ثم قذفت بنفسها في أحضان شقيقتها تُعانقها عناقًا تسْكُنه الآهات..

تزوَّجت مروة بعماد مُعاون النيابة، الوريث الشرعي للحاج "إسماعيل الصاوي" في عُرس بهيج ورحلت معه إلى طنطا حيث تم تكليفه في النيابة العامة هناك، والتحقت نهاد بكلية الآداب لتدرس الفلسفة بلا رغبة حقيقية ولكنه الروتين ومكتب التنسيق الذي يغتال أحلام الآلاف من طلبة الثانوية العامة كل عام بلا ضمير.

لتمر الشهور في رتابة وتتوفى الست "أم عماد" إثر إصابتها بمرض عُضال شاء المولى برحمته ألَّا يطول به عذابها، ورحلت وهي لم تكمل عامها الخامس والخمسين بعدما كافحت مع الحاج "إسماعيل" كفاحًا يعرفه حي الأنفوشي كله، فإذا بالرجل بعد أربعين الحاجة شريكة الكفاح يُعلن عن رغبته في الزواج، يعلنها صريحة دون خجل أو مواربة، إنه بحاجة إلى أنثى صغيرة تدلِّلُ رجولته وتُدير بأنوثتها مُحرك عمره، أبدًا لا يحتاج إلى استدرار الشفقة من ابنته أو زوجة أخيه لتقوم إحداهما على رعايته والتكفل بطلباته، فالرجل مازال في عِز صحته ولا يتصور دنياه دون امرأة شابة تُنعش لياليه الباردة، ولم يجد الحاج إسماعيل في بنات الأنفوشي ولا بنات الإسكندرية كلها سوى "نهاد" شقيقة "مروة" زوجة ابنه البكري

مازالت تذكُر ذاك اليوم جيدًا الذي دلفت فيه أمها إلى غرفتها لتُفصح في تعجب وعلى استحياء عن رغبة الحاج "إسماعيل"، وبهدوء تام أعلنت نهاد موافقتها على الزواج من راغِبها بل وتعجُلها الزفاف في أقرب وقت؛ أرادت أن تنحر حبًا تغلغل في أعماقها

وضرب جذوره بضراوة مُحتلًا أغوارها، حبٌ داهمها منذ سنوات فحملهُ قلبها وهنًا على وهن لعمادٍ بعد أن كان شوقًا على شوق..

وبفعل الصدمة ضربت أمها بكفها على صدرها واتهمت نهاد بالجنون، ثم انسحبت إلى غرفتها تبكي بحرقة على بخت ابنتها الصغرى وزهرتها الجميلة اليانعة، فما الذي يدفعها للموافقة على مثل هذه الزيجة؟ ما كل هذا اليأس الذي تملَّك من صغيرتها وما كل هذا الجنون الذي يدفعها إلى الإنتحار ببطء؟ إنها "نهاد" جميلة جميلات الإسكندرية وفاتنة الأنفوشي التي يتوقع لها الجميع أن تتزوج أحسن الشباب وأفضلهم، فما الغيبوبة التي أصابتها وما الخَرَف الذي اعتراها لتدفن زهرة شبابها مع حَمِي شقيقتها المُتصابي؟! حاولت نهاد بطيبتها إخماد حزن والدتها وإيقاف دمعها، حشرت نفسها في حِجْرها وقبَّلتها في صدغها، إلا أنها لم تنجح في تحريرها من قيد خيبتها ومعاناتها، كما لم تفصح نهاد عن أسبابها ولا قناعاتها لقبول هذه الزيجة المُخيبة للآمال، حتى مروة لم تَفلح في إقناعها بالرفض ولم تقف على عِلَّتها في القبول..

ثم قامت نهاد وأمها ذات ليلة مذعورتين على ضربات متتالية قوية على باب الشقة، ضربات أيقظتهما من السبات بعد

منتصف الليل، وما أن فتحت الأم الباب حتى اندفع عماد إلى الداخل يغلي غضبًا، يخاطب نهاد بنبرة قاسية تحمل تهديدًا ووعيدًا إن هي قبِلت الزواج من أبيه؛ سيُطلق شقيقتها وستعود أدراجها إلى هذا البيت الذي خرجت منه تحمل على كتفها صغيرهما، فلا رغبة له فيها ولا حاجة له بولدهِ منها!

ترجَّت الأم زوج ابنتها، وكيل النيابة المحترم أن يسمع، أن يفهم، رجته أن يُواجه أبيه ويُحدِّثه مفصحًا عن رأيه ورفضه، لكنه لم يأبه بها أو برأيها، فلا يمكنه أن يواجه الحاج إسماعيل، ولا قدرة له على إغضابه فربما يتهور الحاج ويحرمه من الميراث، فلتواجِهَه العروس والأجدر بها أن ترفض طلبه؛ وكيف تقبله زوجًا وهي في عمر ابنته "لمياء" التي كانت زميلتها في نفس الفصل من الإبتدائية وحتى الثانوية العامة؟!

خرج عماد ثائرًا كما دخل ثائرًا، يكاد يخرق الأرض بخطواته، رأت نهاد والدتها تنهار وتنتحب بصوت يُدمي القلوب، منذ زمن لم ترها تنظر إلى صورة أبيها وتُخْرِج حاجياته المكومة من الدولاب ثم نظرت إليه في عتاب قائلة: **الله يسامحك، مشيت بدري وسيبتني للهَم ده لوحدي، ياريت ربنا كان خدني أنا وسابك إنتَ لبناتك، حكمتك يارب.**

وفي صباح اليوم التالي هاتفت نهاد الحاج "إسماعيل" تعتذر عن قبول الزواج غير مُعلنة عن الأسباب المفاجئة التي جعلتها تغير رأيها بعدما اشترى لها الحاج فستان الزفاف بآلاف الجنيهات، لم يقبل العريس ذاك الإنسحاب المفاجئ، ضغط عليها لتُفصح عما دفعها للتراجع، انهمرت الدموع من عينيها وراحت تشهق، وفي صوت مبحوح أخبرته بما حدث في الليلة السابقة وكيف هاجمها عماد وتطاول على أمها وتمادى في غيَّه، بل أنه هددها بتطليق مروة، طمْأنها الحاج إسماعيل بعبارات وقورة، أقسم لها أن لاشيء من ذلك سيحدث أبدًا، لا مكروه سيمسَّها وهي معه، لقد صار رجُلها ومن الآن فصاعدًا لن تتخبط بها الأيام، ولن تعرف التعاسة طريقًا إليها..

لم تعرف نهاد تحديدًا ما قام به الحاج مع عماد، لم تسأله ولم تهتم، كل ما يعنيها أن لا مكروه سيصيب شقيقتها، شهر واحد بعد تلك الليلة العاصفة وسكنت نهاد شقتها الجديدة في برج سكني شاهق في العجمي يملكه الحاج، وفي ليلة الزفاف وحين انفرد بها زوجها في غرفة النوم، كانت خجلة متوترة، اقترب منها الرجل وقد تسمَّرت عيناه عليها؛ فسرت رجفة باردة في جسدها،

إنه يلتهمها بعينيه فكيف لها بما سيكون بينهما بعد لحظات، كانت نهاد متعطشة للعواطف، تتوق إلى الحب وإلى كلام حانٍ يغازل قلبها، لكنه لم يتكلم أو ربما لم تسمعه هي، جذبها نحوه فشعرت بالحرج حين التصق نهديها بصدره، أبدت رغبتها في النوم فهي متعبة جدًا الليلة لكنه اعترض، صوَّب نظراته الشبقة إلى جسدها نصف العاري بعدما خلع عنها إزارها الوردي، اقترب منها أكثر وأكثر حتى استوى جسدها تحته؛ فشعرت بحرارة شهوته تلتهمها فاستسلمت لأقدارها وفي لحظة مباغتة من عمر صباها صارت "مدام"، ثم استدار الحاج إلى الناحية الأخرى من السرير، أعطاها ظهره وغطَّ في نوم عميق، اتجهت إلى الحمام، اهتاجت معدتها وأفرغت ما فيها من عُصارة مُرة كمرارة حاضرها، نظرت إلى هيئتها المبعثرة، خجلت من عُريها، لَمْلمت بقايا ثيابها، نحيب مرير سيطر عليها حتى سمعت آذان الفجر، فاتجهت نحو سريرها وسكن جسدها حافته في تهالك.

وفي الصباح وحين فتح الحاج عينيه وجدها قد وضعت صينية الصباحية إلى جواره في السرير بينما جلست تمشط شعرها أمام المرأة، ابتسم قائلًا: **صباحية مباركة يا قلبي**. ثم فتح درج

الكومودينو المجاور له وسحب مظروفًا وضعه على الصينية وقال: **هدية الصباحية يا قشطة، تعالي هنا جنبي.**

اقتربت من السرير بحذر فجذبها نحوه وهو يغمز بعينه: **قشطة بالعسل والزبيب يا نااااااس.**

ثم دس رأسه في نهديها يُقبِّلها دون أن يمنحها فرصة للحركة فقد أحاط جسدها بذراعيه ورمى جسده الثقيل عليها فأسقطها يريد أن يقطف تفاحة أخرى من شبابها، يمضغها في فمه قطعة قطعة بينما هي ترتعش.

وفي العصاري جاءتها أمها لتُبارك وتُهنأ كعادة الأهل في مثل هذه المناسبة، قابلها الحاج إسماعيل وقد تورَّد وجهه بترحاب شديد أثلج صدرها، أخبرها أن نهاد في غرفة النوم ودعاها لتدخل لها، فالعروس ممدة في السرير قليلًا لترتاح: **البيت بيتك يا حماتي، اتفضلي إدخليلها اطمني عليها براحتك..**

أسرعت الأم لتطمئن على صغيرتها، أضاءت نهاد ضوء الغرفة فور دخول أمها، قد اشتاقت إليها كثيرًا ولم يمض على فراقهما سوى ليلة واحدة، لكنها لم تكن كأي ليلة، وقعت عينا الست "رحمة" على العروس، فلم تجدها مسفرة، ضاحكة مستبشرة بل وكأن بؤس العالم قد تجمع وغاص في عينيها!

مازالت تجلس على الصخرة في استسلام تام لشريط الذكريات السوداء، ماتت أمها بعد شهور من زواجها وهي غير سعيدة بتلك الزيجة، لكنها وحين سكن الألم جسدها الضعيف، وفي الليلة التي سبقت وفاتها كانت نهاد قد لازمتها في المستشفى وفي حديث من القلب أخبرتها أنها الآن راضية، مطمئنة، وكيف لا وهي ستتركها في كنف زوج يحميها من غدر الزمان، تعرف يقينًا أنها لا تحبه، لكن ليس بالحب وحده تستقيم الحياة، جاءت كلمات الست رحمة متقطعة، فقد تهدَّج صوتها وانطفأ بريق عينيها وانكمش جسدها، فانتاب نهاد إحساس مفاجئ بأنها ستعيش سنواتها القادمة في سوداوية لن تعرف منها مخرجًا..

أوصتها والدتها على شقيقتها، نعم إنها الأصغر لكنها أكثر صلابة وأشد تماسكًا من المسكينة مروة، تعرف جيدًا بقلب الأم الذي لا يكذب أنها غيرمُوَفَّقة في زيجتها من حضرة وكيل النيابة، تبات لياليها تتحسر على سعادةٍ تمنتها معه ولم تجدها، تعرف أنه حقًا لا يحبها، ولا يريدها، تكتوي بذلك وتبكي وهي ساجدة تدعو الله أن يُنسيه تلك التي ملَكت عليه روحه ويكاد يذوب ألمًا لفراقها، لكنها تخشى الطلاق، تهابه، تسأل خالقها ألا يقع، ليس

فقط حبًا في عماد الذي همَّشم روحها بل لتحتمي به من مجهول ينتظرها إن هي تركته، هدفها الكبير تربية صغيرها بين والديه، قناعاتها تزداد يومًا بعد يوم بعجزها عن القيام بتلك الرسالة الشريفة وحدها، فلم تُكمِل مروة تعليمها ولا تجربة شخصية تُثقلها، إن كان عماد قَدَرها فهو قدر محتوم لا مهرب منه ولا جدوى من مقاومته، شدَّدت الأم على "نهاد" ألا تُفارق شقيقتها قدر استطاعتها، فما أحوجنا دائمًا لمن يهتم بأمرنا ونهتم بأمره، ونعرف عن يقين أنه يتألم لآلامنا ويسعد لسعادتنا، فما أجمل أن يجد المرء من يشاركه شجونه ويُشعره بأنه ليس شجرة وحيدة نبتت في صحراء قاحلة، بالتأكيد لن نستطِع أن نأخذ كل شيء لكننا نستطيع أن نعطي كل شيء إن أردنا، فلتكن شقيقتها دومًا قِبْلتها ووجهتها، فلا يُفرِّق بينهما إلا الموت، ثم رحلت والدتها صبيحة تلك الليلة بعدما توقف قلبها مُبتهلًا إلى الله أن يجمعها بزوجها الراحل فقد طال الغياب حتى ذاب العمر وجعًا..

صور تتعاقب في مُخيِّلتها وأحداث تعصف بزورقها دون إرادتها، ومن بعيد هاجمتها صورة زوجها الحاج إسماعيل بطل

أحداث تلك الليلة القاتمة، كانت صغيرتها "هنادي" قد أكملت عامها الأول، أخبرته أنها ستذهب للمبيت عند مروة في المعمورة فعماد قد عاد إلى طنطا حيث عمله، عدَّلت رأيها في الطريق بعدما جاءتها مهاتفة من شقيقتها تخبرها أن عماد أجَّل السفر إلى صباح اليوم التالي، إتجهت مباشرة إلى شقتها خشية أن يُصيب الصغيرة مكروه، فنُوة الحَسوم قد أعلنت عن نفسها بوضوح، ما إن أدارت المفتاح في المزلاج ودلفت إلى الصالة حتى سمعت فحيحًا يصدر من غرفة نومها، انقبض صدرها، كانت "هنادي" ترقد على كتفها في سبات عميق، وضعتها على الأريكة ومشت على أطراف أصابعها، شعرت بالأرض تدور بها حين رأت زوجها وفي أحضانه وعلى سريرها ترقد خادمتها، أصابها الوجوم، قام الحاج إسماعيل بما له من هالة وهيلمان يجري كالفأر المذعور، قدَّم لها اعتذرات حارة متبوعة بتبريرات واهية، طالبًا الصفح والغفران، وعدها وأقسم بحياة "هنادي" أنه لن يعود لمثل هذا التصرف المُشين مُلقيًا ببعض اللوم عليها فقد انصرفت عنه كليًا منذ جاءت صغيرتهما إلى الحياة، بالكاد يلتقيها كزوجة، يشعر بتهربها منه وانصرافها الكامل إلى أمومتها، لامت نفسها وقرَّرت أن تمنحه

فرصة جديدة، لكنها لمحته في مرَّات لاحقة وهو يداعب خادمتها الجديدة في المطبخ، يضربها على مؤخرتها بشهوة مكشوفة ويتحسس مواضع أنوثتها ببجاحة بينما هي تضحك وتتمايل أمامه بأنوثة مفضوحة، توالت الحوادث وتكرر الأسف المصحوب باللوم عليها واتهامها بالبلادة، أصابها تبلد حسي تجاهه وتسرَّب إليها برود صلب كلما حاول لمْسها، تكوَّن بداخلها شعور قوي وتولَّدت لديها قناعة تامة لا تستطيع كبحها، إن الحاج إسماعيل بؤرة نتنة، لذا جاءت صغيرتهما "هنادي" إلى الحياة مُعاقة ذهنيًا ولا شفاء لها، أيقنت أنها إن تركته يصُّب ماءه الملوث فيها فإنها هالكة لا محالة..

حدَّثت مروة بما ترى وبما تعاني، فانسابت الدموع غزيرة من عينيَّ شقيقتها ثم راحت تمسحها بوشاح رأسها وهي تُقسم لها أنهما تعيستان ولا شك إذ تزوجتا من تلك العائلة القاسية قلوبهم، ففي إحدى مرات شجارها مع عماد وما أكثرها، كان غاضبًا منفعلًا يصوب لسانه نحوها يقذفها بأسخف الإتهامات ويُلقي التُهم عليها جُزافًا لكنه فجأة توقف عن الصراخ، نظر إليها بثبات وجلس على حافة السرير، سحب سيجارة من العلبة التي لا

تُفارق جيبه، ومع دخان النفس الأول جاءتها كلماته الجافة، أخبرها في هدوء أنه في الأساس لم يكن راغبًا في الزواج منها، لم تكن إختياره الأول ولا الأخير، كل ما في الأمر أن تعيينه في النيابة تزامن مع معرفة والدته بحقيقة مرضها الشرس وأن رصيدها من الحياة لن يزيد عن بضعة شهور، فألحَّت عليه في مسألة الزواج ورجته رجاء يُذيب القلب، تعلَّل أن لا فتاة بعينها تشغل باله، فربتت والدته على كتفه قائلة: **عروستك عندي، حاطه عيني عليها من زمان، بنت حلال غلبانة، طول عمرها ماشية جنب الحيط، لا هتقول لك اشتغل ولا اخرج ولا أروح ولا آجي، طوع ومن إيدك دي لإيدك دي"**...

لقد اختارتها له الست أم عماد لأدبها وطيبتها أو لنقُل لسذاجتها وطاعتها، حينها توقفت نهاد عن العوم في خضم همومها، قامت من مكانها واحتضنت شقيقتها في أسى وتمددا معًا على سريرها في محاولة للتماسك والتشبث ببعضهما البعض، تعبتا من التنقيب عن مخرج مريح آمن لأزمتهما التعسة، ثم سرق النوم مقاومتهما فدخلا في عالمه طواعية وقد تعانقا، وحين استيقظتا، اكتفت مروة بتصدير ابتسامة بلهاء على وجهها الشاحب بينما فتَّشت نهاد في هاتفها على أغنية راقصة أطلقتها من

إحدى تطبيقات تحميل الأغاني ثم راحت تهز ردفيها على نغماتها، تتذكر عماد وعباراته التي طالما سكبها في أذنيها في لحظات الإنسجام والغرام.. "**جسمك رائع هيموتني**"..

تنهدت بعمق تتذكر أوجاعها، نعم، كانت تلك عبارته الدائمة لها حين يلتقيان في غرفة صغيرة للكراكيب على سطح منزل أسرتها في الأنفوشي، عامان كاملان وجدران تلك الغرفة شاهد عيان على لقاءات العاشقين الولهانين، كانت المرة الأولى حين ظهرت نتيجة عماد في سنة أولى حقوق، امتلأ الشارع والحي بالتهاني والمباركات للحاج إسماعيل، انشغل الجميع في الحصول على نصيبه من الذبائح والفتة وصواني البشاميل وأطباق الرز بلبن، كانت "نهاد" على الدرج في طريقها للنزول إلى الساحة لتُحضر لأمها وشقيقتها نصيبهما من الغنيمة، اعترض عماد طريقها وابتسم لها ابتسامة أشرق معها نور دنياها، سهامه الفتية اخترقتها، نظراته الحانية تغلغلت داخلها، أمسك بيدها فتكهربت حواسها، صعد بها إلى غرفة المخزن على السطح فانساقت خلفه بلا وعي، كور جسدها في أحضانه وأطبق بأصابعه على جسدها المشتعل شوقًا بينما يستعر جسده رغبة، غابا عن الدنيا والناس وانتشرت في الغرفة رائحة العشق المحترق بجمرات الخطيئة...

تكرَّرت اللقاءات في آجواء الغرفة حيث نقل عماد سريرًا خشبيًا قديمَا إلى هناك، وطاولة صغيرة سكنت إلى جواره يضع عليها علبة السجائر العادية وتلك المحشوة بعرانيس البانجو، دفء الفراش ساعد على استرخاء أجسادهما من جديد، وهناك زحف عماد بيديه وشفتيه على كل بقاعها وانسكب صوته الرخيم الحنون في أذنيها مرارًا بعبارات العشق والهوى واعدًا إياها بقرب اللقاء على سرير الزوجية مجددًا العهد بالحفاظ على عفتها، فقد التقته "بنت بنوت" وستظل كذلك، فرغم تجوله الدائم في آرجاءها فقد كان شديد الحرص ألا يغزوها، وفي أحرّ لحظات الغرام والشبق كان متنبهًا ألا يأخذ الخاتم إلا بحقه حين يحين الوقت المناسب، ثم فوجئت بالست أم عماد تطرق باب بيتهما طالبةً يد شقيقتها الكبرى، وفي نفس الغرفة عاتبته على طلب الست الوالدة وطالبته بالتصرف، أصابتها خيبة أمل حين أخبرها أنه تحدَّث إلى والده الحاج إسماعيل عن رغبته في الزواج منها إلا أنه رفض متعللًا أنها مازالت طالبة جامعية وأنها هوجاء تتسم بالتسرع والعنفوان وبعض العصبية مما يجعلها مرفوضة كزوجة لابنه البكري الأستاذ عماد معاون النيابة الذي حتمًا سيصبح قاضيًا في يوم من الأيام ويلزمه زوجة طوع خام لا صوت لها،

خجولة متقوقعة على دواخلها، لا يشغلها في الحياة إلا زوج يصير رضاه غاية أملها وفي نجاحه تحقيق لذاتها ووجودها.

أحسّت بالضيق يجثم على صدرها من كلمات الحاج إسماعيل عنها ورفضه زواج عماد منها، عاودت تسأله "**وإيه العمل دلوقتي؟ هتحلها إزاي؟!**" صمت لبرهة، طأطا رأسه، فجأة اختطفها في حضنه وانسكبت نبرات صوته في شراينها وسألها بجرأة: **ايه رأيك تبقي مراتي قدام ربنا دلوقتي وهنا على سريرنا ده اللي شهد على حبنا وعلى كل وقت قضناه سوا؟**

ألجمها طلبه المفاجئ الذي يتنافى مع كل تاريخ لقاءاتهما السابقة، لِمَا يريد الآن الغوص في عمق أنوثتها إن كان سيتزوجها كما يقول؟

مازال أمامه فرصة ليُقنع والده، مازال بإمكانه الإعتذار عن الزواج بشقيقتها؟

اعتذرت عن تلبية رغبته المحمومة، قاومت بعنفوان رغبة جامحة تتراقص في عيونهما معًا، التحمت نظراتهما ثم أشاحت بوجهها عنه محاوِلة الهرب من نظراته الثاقبة النافذة إلى أغوارها البعيدة، كادت تضعف لولا صورة مهزوزة لاحت أمامها

لشقيقتها المبتهجة فرحًا لطلب الست أم عماد ليدها زوجةً له، جمعت رباطة جأشها، اخترق صوتها حواجز الصمت بينهما قائلة: **هستناك تحل الموضوع ده من غير ما تجرح مروة يا عماد، أرجوك، دي أختي حبيبتي اللي مليش غيرها، مش هقدر أقابلك هنا تاني قبل ما الوضع الزفت ده يتحل.**

أسبوع مضى وهي عاجزة عن الحركة، ترقد في سريرها وقد ارتفعت حرارتها وأصابتها حمى شديدة، التهب قولونها العصبي وافترشت الحبوب والقرح لسانها وسقف حَلقها، امتنعت عن تناول الطعام عدا السوائل، بدتْ متوترة، عصبية، مشتتة التفكير، وفي لحظة شوق جارف، هاتفته تسأل: **إيه الأخبار؟** فجاءتها إجابته في اقتضاب: **بكره هتعرفي.**

ثم اغلق الخط، حاصرتها هواجس التفكير من كل جانب، هرب النوم من عينيها طوال الليل، ظلَّت تحاور نفسها، "ياترى كيف يكون الخلاص؟ فقد تشبَّعت مروة بفكرة زواجِها من عماد وكأنها كانت تنتظره طوال عمرها، تُعِد نفسها لليلة الفرح، تقف طويلًا أمام دولاب ملابسها، تريد أن تنتقي أفضل ثوب، غايتها أن

تبدو جميلة، أنيقة، تُعِد نفسها للقاءه؛ عليها اجتياز ذاك الإختبار، تؤمن بأن اللقاء الأول له اعتباراته الكثيرة عند الرجل، صحيح أنهما جيران ولقد رأته مرارًا فيما سبق ولابد أنه رآها أيضًا، لكنه الآن سيراها بعين أخرى، سيتفحصها ويدقق في ملامحها، تعبت من التنقيب؛ فطلبت من شقيقتها أن تنتقي لها الأفضل، تثق بها وتثق في اختياراتها، تحاملت نهاد على نفسها وبصعوبة تحرَّكت نحو الدولاب، تفحصت الفساتين جيدًا، لا شيء يصلح للمناسبة، مزَّقتها الحيرة بين سعادتها وسعادة شقيقتها التي تعشقها، وقع اختيارها على ثوب أحمر اللون يخُصُّها، أهدته لشقيقتها؛ تعرف جيدًا أن عماد يعشق الأحمر!

لم يأت عماد في اليوم التالي، فقط جاءت الست والدته وأخته لمياء للإتفاق على كافة التفاصيل وتحديد كل شيء، فبيتهم بلا رجل؛ لذا أرسل الحاج إسماعيل زوجته وابنته لترتيب الأمور مع أم العروس، لا يُطالبهم سوى بالقليل، مجرد آشياء بسيطة تُشعِرهم بمساهمتهم في الفَرش، ستذهب مروة إلى بيت زوجها بحقيبة ملابسها وسيتكفل الحاج أبو الكَرم بكل ثقيل وثمين؛ فمروة تُوزن بالذهب، كفاية أدبها وأخلاقها.

تزوجت مروة وسكنت المعمورة في شقة عماد، الشقة التي لطالما حدَّث نهاد عنها كثيرًا حتى رُسمت في مخيلتها وكأنها رأتها رؤيا العين، أصرَّ على ألا يبيت في الفندق حيث جرت مراسم حفل الزفاف الصاخب الذي لامست أطرافه الفجر، لا يمكن أن يأت الأهل لزيارته في الصباحية للإطمئنان على مجريات ليلة الدخلة في غرفة فندقية، يكره إنكشاف خواصه على العلن وخدمة تنظيف الغرف، فالأمر خاص جدًا، يحترم عذرية زوجته ويقدس ذاك الطقس ولا يمكنه المكاشفة أو المجاهرة به في غير داره.

وهكذا انتهى فصل كامل من حياة عماد كانت نهاد بطلة أحداثه ليستبدلها بأخرى هي شقيقتها، أفاقت من شرودها على أبواق السيارات المتزاحمة على الكورنيش، لمح بعض أصحابها الجسد الممد على الصخرة، تعالت أصواتهم بكلمات غزل بعضها جريء وأغلبها وقح، اضطربت، اعتدلت في جلستها، الأغاني المنبعثة من السيارات اختلطت بعضها ببعض، تداخلت الأصوات والألحان، تعبت أعصابها من الضجيج الذي لم يحترم خلوتها، وضعت يديها على أذنيها تسدهما، غاصت في بحر أحزانها من جديد، نجحت أمواج البحر المتلاطمة رغم عُنفها في

إعادة نفسها التائهة من صندوق الذكريات، نظرت إلى ساعتها، تأخرت على هنادي، تأمن لمربيتها الأجنبية لكنها لشديدة الحرص على الإشراف بنفسها على مواعيد أدويتها، كان سائقها في انتظارها على مقهى قريبة، هاتفته، جاءها مسرعًا، أقفلت عائدة، وفي طريقها تذكَّرت المغامرة التي تنتظرها غدًا، فمنذ فترة وآثناء خروجها من المول التجاري بعدما تبضعت واشترت بعض الملابس لهنادي ولأحمد ابن مروة وعماد، رمى لها شاب ورقة بها رقم هاتفه، راقت لها هيئته القوية، جسارة نظراته، وقوة حضوره، لا تعرف كيف تجاسرت ودسَّت الورقة في حقيبة يدها، ابتسم وغمزها ثم غادرها إلى سيارته الفارهة..

وفي المساء جلست وحيدة أمام التلفاز تشاهد فيلمها المفضل "دعاء الكروان"، تسرَّب الشجن إلى خلاياها، تعشق "هنادي"عشقًا خاصًا لذا منحت صغيرتها هذا الإسم، تراءى الشاب لها، تجرأت وطلبت رقمه، جاءها صوته قويًا حانيًا في آن واحد، مكالمات خاطفة عبر الهاتف خلال شهر كامل هو كل عمر علاقتهما، اسمه "آسر"، يكبرها بخمس سنوات، لم يتزوج من قبل، رسّام يعيش وحيدًا على ذكرى امرأة أحبَّها بعنف

فتزوجت أعز أصدقاءه، ثم لقيا مصرعهما معًا على الفور إثر سقوطهما المُروع من أعلى أحد الجبال الموجودة في مضيق "تودغي" بمدينة "تنغير- أسبانيا" أثناء رحلة شهر العسل، لم تعرف عنه غير ذلك ولم تهتم بالتفاصيل، ففي العلاقات العابرة لا تهم الظروف المحيطة المهم فقط أن يكون كِلا الطرفين قادرًا على تأدية احتياجات الطرف الآخر، الأكثر أهمية أن يتفاعل معه مستجيبًا لمغناطيسية الآهات داخله.

اليوم تحدثا طويلًا، انقضت ليلتهما وهما معًا على الهاتف حتى انشق جلباب الظلام وظهرت الملامح الأولى لليوم الجديد، كانت عباراته سلسة مُنمقة ومُرتبة تتسم بالرزانة والعمق والمرح وسرعة البديهة في آن واحد، توليفة جديدة شيِّقة شهية لم تختبرها من قبل، ولأول مرة يطلب لقاءها، ابتسمت لنفسها مُردِّدة عبارة خدَّرت أعصابها وسكن معها ضميرها "غدًا سأطرق بابًا إلى جنة جديدة، أصنعها بنفسي ولنفسي، وليذهب الجميع إلى الجحيم، أكاد أموت وجعًا، أنبض فقدًا وأتنفس عوزًا ولا أحد يُبالي"..

سويعات قليلة نامتها، أيقظتها خادمتها الآسيوية في العاشرة صباحًا كما أمرتها، انصرف الحاج إسماعيل إلى عمله في التاسعة

كعادته كل صباح، لا تزال هنادي في الشرفة ممدة في مهدها ليلتقط جسدها العليل بعض أشعة الشمس كما أمر الطبيب، كانت نهاد مضطربة بعض الشيء، فالتجربة جديدة، تنتشي بروح المغامرة لكن شيئًا آخر لا تعرف ماهيته يُقلقها ويشعرها ببعض التوتر، لاتزال هناك ساعة على الموعد المرتقب، رنَّ جرس هاتفها، ردَّت بلهفة وحرص:

نص ساعة وأنزل، آه عرفْت العنوان، مش هاجي بالسواق، اطمِن، مع السلامة..

أغلقتْ الهاتف وأسرعت إلى غرفتها تُكمل هندامها وتتأكد من زينتها وكلها حماسة وترقب للساعات القادمة..

توقفت سيارة الأجرة أمام العمارة حيث آسر، تلفتت يمنة ويسرة، ثم أسرعت إلى داخلها، دلفت إلى المصعد في عجلة وترقب، توقف بها في الطابق التاسع، كانت ضربات قلبها متسارعة عالية كالسوط، أحسَّت كأن أزمة قلبية أطاحت بشجاعتها، خشِيت أن تموت فجأة وينفضح أمرها، وقفت لحظة أمام باب الشقة تريد أن تعود أدراجها، لم تستطع الضغط على زر الجرس، خذلتها قوتها وتبخرت شجاعتها العنترية، كادت تسرع إلى المصعد لولا أن الباب انفتح فجأة وظهر لها آسر مبتسمًا،

كان يراقبها من العين السحرية المثبتة في الباب، سحبها من ذراعها، كان العرق يتصبب من مسامات جسدها المخملي، طافت بعينيها في هيئته، وطاف بعينيه في مفاتنها، استقبلها مرتديًا بنطلون جينز كحلي وقميص أبيض قطني مفتوح الأزرار حتى أعلى البطن تقريبًا، مظهره الجبار يُذكرها ب "أحمد رمزي" بطلها المغوار من أفلام الأبيض والأسود، تسمَّرت نظراتها في شعيرات صدره النافر، عضلاته الرياضية البارزة في توازي، المشدودة على وتر من القوة والصلابة، عنقه الطويل الممشوق في كبرياء، ملامحه دقيقة ووجه منحوت، رائحة عطره الرجولي غطَّت على عبق عطرها المثير، كل شيء يشير إلى عمق رجولته الفَتيِّة، كل شيء يدعوها بصخب إلى أن تُلقي بجسدها بين أحضانه، أن تستوي بين يديه كقطعة صلصال يعبث بها كما يشاء، اقترب منها برفق، احتضنها، أحست كأن العالم يحتضنها، العالم كله بقاراته ومحيطاته، بجباله ووديانه، ضمَّها أكثر، امتدت يده إلى سحّاب ثوبها، سحبه حتى صار في منتصف ظهرها، خلع عنها كُمها الأيمن وهمّ يخلع الكُم الآخر، لكنها تمسَّكت بثوبها، سألها بنبرة رخيمة: "**إنتِ خايفة؟**".. لم تُجبه، هاجمتها كل آلام الماضي واتحدت عليها في مشهد واحد، صوت خافت إخترق

ذبذبات عقلها، نبهها أنها مازالت عند بر الأمان، سفينتها لم تُقلع بعد، اقترب منها أكثر، قبَّل كتفها العاري بشفتيه المنفرجتين، مرر لسانه الدافئ على رقبتها وترقوتها، لامست أنفاسه النارية جسدها، تقبض عليها يداه القويتان يحتفظ بها داخل حضنه المتوهج كشمس الصحراء المُحرقة، راحت أنامله تطوف بها تعبث بحرية دون حرج أو رهبة كموسيقار بارع يعرف ايقاعات نوتَتِه جيدًا، أشعلت جولاته فتيل أنوثتها، زادت إيقاعات عزفه وانطلقت صولاته حرة مدوية هنا وهناك، شعرت بأصابعه تعتصر صدرها، انهارت مقاومتها وتحرر مارد الرغبة داخلها، وتأججت نيران الإحتياج تدفعها دفعًا لتغوص في أحضان آسر وقد انفرطت في البكاء، سقط عنها ثوبها وسقطت معه كل الحواجز، وقفت أمامه عارية تمامًا يلاحقها بعينيه البنيتين الواسعتين يدعوها بحنان لتستلقي بجواره على أريكة صغيرة كنزة؛ استجابت وغرقا معًا حتى النخاع لا يفصل بينهما حدٌ، ثم استوى شعرها الأسود الناعم على صدره بينما دفنت نهاد وجهها الذي جرت به الدماء ونضجت خلجاته في حضن آسر وغرقا في نوم عميق.

تكررت الزيارات وكانت في كل مرة تحرص أن تكون أكثر جمالًا وفتنة من سابقتها، تُعد نفسها للقاء من المساء السابق له،

وفي بداية النهار تحرص على الاستحمام وتدليك جسدها بالحليب الممزوج بالكركم، تقف طويلًا أمام خزانة ملابسها، ترغب في انتقاء أفضل الثياب كما تحرص أن تدس في حقيبة يدها قميص نوم جديد غاية في الإثارة، في طريقها إلى آسر كل مرة تحس كأن شِباكًا من الخوف تلتف حول جسدها، شيءٌ خفي يحثها على التراجع، قدماها تتجمدان عند عتبة بابه ثم تزيح عن كاهلها كل تلك السخافات، حاجتها إلى حضن آسر تضحض مخاوفها، تضغط الجرس، يفتح الباب بشوق، تهرول مسرعة إلى الداخل وهي تلتقط أنفاسها، ينظر إليها بإعجاب يُرضيها، ترتمي في حضنه فيزيح عنها ثوبها قائلًا: **يخرب بيت حلاوتك، كل مرة بتبقي أحلى من اللي قبلها، ببقى عايز أكلِك أكل..**

فيُذيب دفء كلماته جليد هواجسها ويسقطان معًا في بئر العسل.

كان منزل آسر واسعًا ينمُّ عن ذوق رفيع، الأثاث راق وغال، الألوان مبهجة تنطق بالحركة، ما أكثر اللوحات وما أروعها، وفي غرفة النوم بهرتها لوحة لامرأة مرسومة بدقة متناهية، أجمل ما فيها عيناها الغائرتان وبؤبؤهما البلوري ووجنتاها اللتان تخضبتا

بحمرة مُغرية، وكانت كلما دلفت إلى غرفة النوم تقف أمام اللوحة وتتسمر قدماها تشعر أن شيئًا مشتركًا يجمع بينها وبين هذه المرأة، ربما النظرات، إنها تشع البريق نفسه، ظلال الحزن نفسها المرسومة في حدقتيها، تشجَّعت ذات يوم وسألته من تكون تلك الفاتنة الحزينة؟ جاءتها إجابته في حزن هادئ، إنها المرأة الوحيدة التي عرف عشقها طريقه إلى قلبه، تلك التي كافئته على غرامه بها فتزوجت صديق العمر، نعم، إنها تشبهها لذا قرر المغامرة ومرَّر إليها الورقة التي حملت رقم هاتفه، وما كان ليفعلها لولا ذاك التشابه العجيب، ثم سألها: **اللوحة عجبالكِ؟** اومأت بالإيجاب، اقترب من اللوحة، رفع ذراعيه، أمسك بها وأنزلها أرضًا وهو يقول: **هرسمك إنتِ وهحط صورتك هنا، إيه رأيك؟**، تفتَّحت أزاهيرها واتسعت ابتسامتها، أمسك بيدها إلى جوار النافذة، يريد أن يرى انعكاس الشمس في عينيها، أرخى صدرية ثوبها حتى انكشفت ترقوتها العاجية وبرز نهداها في دلال مثير، ضبط لوحة بيضاء جديده على نول الرسم وراح يُبدع، فاللعشق قوته وسحر فِعله في تلك الأرواح التي تُغرقها العتمة والليالي الفارغة حين تُطلِق الخيبات وحوشًا على الجدران.

أتمَّت هنادي عامها الثاني، مازالت حبيسة مرضها، حرمتها إعاقتها من السير والحركة، ورغم ذلك أصرت نهاد أن تحتفل بذكرى مولدها مع خالتها مروة وأخيها عماد والصغير أحمد الذي صار رجلًا صغيرًا يعرف طريقه إلى روضة الأطفال كل صباح، وليحضر زوجها الحاج إسماعيل إن أراد أو لا يحضر لا يهم، المهم أن يدفع التكاليف اللازمة للحفل، أحضرت قالبًا كبيرًا من الحلوى على شكل دُمية صغيرة تمسك بالونات كثيرة متعددة الألوان، غرست فيها شمعتين، تعالت أغاني الأطفال تهز الآرجاء، رقصت تحمل صغيرتها تحتويها بين ذراعيها، تغمرها بقبلات حارة لتُغطي على انقباضٍ تشعر به في صدرها ولا تعرف له سببًا، مضى الحفل بسلام، لم يشاكسها عماد كعادته ولم يرشقها بنظراته الإستفزازية.

فوجود إسماعيل يصُد عنها هجماته الشرسة بينما اكتفى هو بتجاهل زوجته مروة وكأنها هواء، وتشاغل باللعب مع أحمد، مضت الساعات وودَّعت نهاد شقيقتها التي عاتبتها كثيرًا لانشغالها عنها في الفترة الأخيرة، اعتذرت نهاد ووعدتها ألا تكرر ذلك وستعود لزيارتها باستمرار في غياب عماد الذي رفض نقله

إلى الإسكندرية وتمسَّك بالبقاء في طنطا، انقضت الليلة ودست نهاد هنادي في سريرها وتأكدت من تناولها لجرعتها من أدوية قبل النوم، أوصت مربيتها بالإنتباه الكامل لها كعادتها كل ليلة، انصرفت إلى غرفة نومها، تظاهرت بالنعاس فتسلل الحاج إسماعيل إلى غرفة خادمتها "لي" ليهنأ بسعادة يرتضيها لنفسه، لم تعد تقفز من سريرها لتنهره، لم تعد تغضب أو تنفعل، فالخيانة ثمنها خيانة، إن كان إسماعيل يذبحها مع "لي" ومِن قبلها الكثيرات، وقبلَه ذبحها عماد حين استحل جسدها واستغله ليسدد فاتورة رغباته الشبقة، الآن هي أيضًا لم يعد جسدها طاهرًا، لحظات طويلة يقضيها آسر داخله، يتحدان، يمتزجان معًا ككتلة نارية متأججة تتدحرج في عوالم اللذة، يثوران يرتجفان، تفور براكينهما معًا ثم تخمد معًا فيبقى متشبثًا بها يتوسد رأسه صدرها بينما تتشابك كفوفهما كأنها خُرطت هكذا، تحرص ألا تستحم بعدما يُغادرها، لا تزيل رائحته من خلاياها، تبقى على الفراش بجواره تراقب وجهه بجسدها العاري دون خجل، لا تستر من بدنِها شيئًا، تهديه في كل مرة القطعة الصغيرة الأخيرة من ملابسها "الجيسترينج" التي يخلعها عنها قبل أن يتجول محمومًا

داخلها، لم تعد عيناها تهطل دمعًا، إنه رجُلها الجديد الذي أخذ بيدها من فراغ اليأس وأحدَّث بها هذا الإنقلاب الداخلي بعد معاناة أحرقت حطبها..

ليس الأمر في نظرها مجرد إنتقال من رجل إلى رجل، ومن ذراعين إلى ذراعين، عماد، إسماعيل والآن آسر، إنه اليوم إختيارها وإرادتها الحرة، إنتقال له جدوى، تخشى أن يملَّها يومًا فيهجرها، لا ترغب في أن تصطحب أغراضها معها وهي تغادره، لا تريد أن يُعاودها توترها وقلقها وخواءها النفسي، كل غايتها أن تبقى "محلَك سِر" وألا تنتقل من خيانة إلى خيانة!

ألقت بنفسها على صدره مرارًا تبكي وهي تحكي له كل فصول حكايتها، وكل شيء جرى لها ومعها منذ مولدها، حكت عن عشقها الأسود لعماد الذي أفسد عليها روعة إيمانها بالعشق وبراءته، حكت له عن فساد إسماعيل وداءه النجس وولعه الشديد بمعاشرة الخادمات، ورفضه زواج ابنه عماد منها وإصراره على الرفض بل وتزويجه له بشقيقتها الأثيرة، خطَّط ودبر ونفذ؛ لقد كان يختزلها لنفسه، حكت له عن علاقتها المتينة القوية بشقيقتها الطيبة وكيف يقتلها شعورها بالذنب كلما شكت

لها مروة جفاء عماد معها وتلذذه بتعذيبها برفضه لها وجَلدِهِ لها بذاك الإعتراف الوقح بأنها لم تكن اختياره ولم تكن رغبته، مروة قديسة لا ذنب لها ولا جريرة حتى يُشعرها بالفزع الدائم والتهديد المستمر لها بالترك والطرد من دنياه وهي ساذجة لاتدري أن شقيقتها الصغرى هي سِر تعاستها!

غفَت نهاد قرابة الثلاث ساعات بعد مجهود كبير بذلته لإخراج حفل عيد ميلاد هنادي كما خطَّطت له، لا تدري ما السبب وراء استيقاظها المفاجئ رغم إجهاد يسيطر عليها، شيءٌ من الكآبة فرض نفسه على روحها، اتجهت إلى غرفة صغيرتها تطمئن عليها، الضوء الأخضر الخافت المنبعث من مصباح صغير في الغرفة يُمَكِّنها من رؤية أن كل شيء على مايرام، تنبَّهت أن الساعة تشير إلى الرابعة إلا ربع فجرًا، بعد دقائق معدودة ستستيقظ مربية هنادي لإعطائها جرعة واجبة من الدواء المُهدئ للنوبات التشنجية، جلستْ في الصالة في انتظار الموعد، أغمضت جفنها استجابة للصمت المطبق حولها، فجأة اخترق سمعها صوت المربية تصيح بنبرة هلِعة، اندفعت نحو غرفة هنادي،

ارتطمت ساقها بالطاولة التي تتوسط الصالة، لم تستيقظ هنادي ولن تستيقظ، رفرفت روحها البريئة وصعدت للسموات العلى، مادت الأرض بنهاد، تسمَّرت عيناها على جسد وحيدتها الساكن بلا حركة، ترنَّحت ثم سقطت أرضًا في مكانها..

شهران أضحت فيهما نهاد خرقةً بالية، استهلكها الألم ونَحرها الفقد، غدت هشة ضعيفة، لا تتعلق بالحياة ولا تتمسك بخيوطها، راغبة في اللحاق بصغيرتها، شعرت بالخجل من نفسها حين طالبتها مروة باللجوء إلى الله والإستعانة على بلوتها بالصبر والصلاة، كيف تقف الآن أمام الله، تصلي وتدعو؟ كيف تستغفره على عقابه لها وهي تؤمن أنها تستحقه، إنها ساقطة لعينة وزانية فاجرة، فكيف تطمع في الرحمة بل وتطلبها؟!

استقر في ضميرها وقناعاتها أنها قاتلة، مجرمة آثمة، قتلتْ ملاكها البرئ حين افترشت سرير آسر في استرخاء وافترشها هو في غبطة، كانت غبية حين اعتقدت أن كل شيء سيسير وفق رغبتها، نظرت إلى يدها اليسرى حيث تستقر دبلة زواجها من إسماعيل، شريكها في التدني، زير النساء القذر، ليتها تملك الشجاعة الكافية لتغرس سكينًا في أحشاءه كما غمد خنجره في سويداء قلبها..

حقًا استحقت هنادي الموت لأنه الأفضل لها، فأي أرضٍ تلك يمكن أن يتشاركها من تلطخت أرواحهم بالخطايا مع من نُقِّيت أرواحهم من أي دنس؟ فالموت رحمة لهنادي وإنقاذًا لملائكيتها من أب عربيد وأم نجسة وأخ وغد تذوَّق أمها لحمًا محرمًا ورفض أن يستسيغه بمباركة المأذون والشهود..

طوال تلك الفترة كانت اتصالاتها بآسر مقطوعة، ثم فاجأها ذات يوم بزيارة في المستشفى بعدما تأكد من رحيل الحاج إسماعيل إلى القاهرة في مهمة عمل، حرص على زيارتها خلال الفترة التي تُغادرها فيها مروة إلى بيتها للإطمئنان على أحمد ورضيعتها الوافدة الجديدة، طرق باب غرفتها ففتحت له الممرضة الملازمة لها والتي رتَّب معها أمر هذه الزيارة، عبَر إلى الداخل فتقابلت عيونهما في صمت، وقف لحظة مشدوهًا، فاغرًا فاه، نظراته ممزوجة بالصدمة والجزع، نظراتها زاخمة بالخزي والعار، تمطر عيناها دموعًا ساخنة تكوي وجنتيها، تمالك نفسه، اقترب منها، انحنى يُقبل رأسها، لكنها أدارته بعيدًا عنه، استقام ثم أعطاها ظهره وزاد من اتساع خطواته نحو الباب كأنه يهرب من جنازة أو يفر من عاصفة، لم تره بعدها ولم تعرف عنه شيئًا وكأنه

قد تبخر من الوجود، وكلما زارتها أطياف مبهمة من لحظاتها معه تهرع إلى الحمام تنزع عنها ملابسها كاملة ثم تقف تحت الدش تنهش لحمها دعكًا وفركًا حتى يتشقق جلدها وتغطيه الجروح؛ فتشعر بالراحة مع أول قطرة دماء تخرج منها..

أن تنسى، كانت تلك معركتها الدائمة، فالنسيان غاية لم تُدركها، تحدق في ظلام غرفتها كل ليلة تطلب الغفران بينما ينبض قلبها بالألم صباح مساء، هل يمكن أن تعود هنادي وتعود معها السعادة؟؟

هل يمكن أن يعود الغائب بعدما حُرِمْتَ منه رغمًا عنك؟ لا، لا يُمكن أبدًا...

مرَّت الأيام وتعدَّدت الشهور ولم تتحسن حالة نهاد بالشكل المرجو، لم تعد أبدًا كما كانت، تعاني من نوبات متكررة لانخفاض في ضغط الدم يصاحبه اختلال في وظائف الجسم وعدم انضباط في الدورة الدموية، ترافقها مروة باستمرار، تعمل كل ما في وسعها للترفيه عنها حتى أنها تركت منزلها في المعمورة وسكنت معها في العجمي، كتب الحاج إسماعيل الشقة تمليكًا

بإسم حفيديه أحمد ونورين ولم يسجلها بإسم ولده عماد، ومن مبدأ العدل سجَّل شقة أخرى تمليكًا باسم ابنته "لمياء" شقيقة عماد الصغرى لكنه أوصاها ألا تتنازل عنها لزوجها ما بقيت على قيد الحياة، فلا أمان لرجل أبدًا، فقلوب الرجال متقلبة، غدَّارة لا تعرف الوفاء، هكذا أفضى الحاج إسماعيل لابنته في لحظة صدق أبوي، كان حريصًا على هذا الأمر بشكل لا يقبل النقاش؛ فجعلها تُقسم له أنها ستنفذ الوصية بلا جدال..

ولأن العواصف لا تأتي فُرادى بل هي تتوالى في تناغم يعجزعن تفسيره عقول البشر، فقد تم ترقية عماد ونقله للعمل في إحدى نيابات القاهرة، سأل زوجته أن ترافقه، ليس حرصًا على جمع الشمل بل كنوع من تأدية الواجب أو لنقُل أنه نوع من التعجيز؛ هل ستقبل مروة ذات القلب الطيب البريء أن تترك شقيقتها وهي على هذه الحال لتلحق بزوج يتلهف على كل ما يُبعده عن زوجته وأبناءه ومازال يتعجب كيف أتت نورين الصغيرة إلى الدنيا وهو بالكاد يلمس أمها كلما اهتاج عليه جسده وفشل في إطفاء ناره بكل ما هو متاح غيرها، يضاجعها ليرتوي ثم

ينتفض ليغتسل وكأنه كان للتو يواقع جِيفًا، ودون كلمة ولا نظرة يتركها مستلقية في الفراش تبكي حالها وقد التصق الحزن بشراييها؛ تؤمن أنها ليست أكثر من وسادة يُفرغ فيها شهوته، ليست حبيبة ولا هي أنثى يثيره جسدها الغض، لحظات ويعود وقد تبلَّل جسده يدخل الفراش يدخن سيجارة أو اثنتين، ثم يوليها ظهره بينما تعتدل هي جالسة في الفراش تمسك رأسها بين كفيها تسأل نفسها في حيرة، لما يحدث معها ما يحدث؟ وما السبيل للتخلص من هذه العبودية وذاك القهر؟ وما حيلتها في كل هذا الحزن الذي يسكُنها، يحتلها ويطل برأسه الخشنة في كل تفاصيل معيشتها؟ ومن هي تلك الأنثى اللعينة التي تملك على زوجها نفسه حتى يضَّن عليها وهي زوجته بقلبه وبجسده ولا يمنحها إلا فتات رجولته كلما غلبته غريزته؟!

وبعد تفكير عميق اهتدت مروة إلى حل نموذجي يُريح عقلها المنشغل دومًا بغيرها وقلبها المتعلق دومًا بمن حولها، سافرت مع عماد حتى تساعده على ترتيب عيشته وتأثيث مسكنه والوقوف على توفير كل أسباب الراحة له في مقره الجديد على أن تعود بعد ذلك إلى الإسكندرية حيث نهاد، كان الوقت يمر بطيئًا،

تشعر بالقلق على شقيقتها، فمازالت معتلة الجسد، شاردة الفكر، تعيش على هامش الحياة، تنفست الصعداء حين تأكدت أن كل شيء أصبح على ما يرام وطلبت من عماد أن يبتاع لها تذاكر القطار لتعود إلى الإسكندرية؛ فلا حاجة لها بالبقاء في القاهرة؛ فقد استقرت أوضاعه، بل أنه سرعان ما تعرَّف على عدد من الأصدقاء والجيران وأصبح من المعتاد أن يتقابل معهم على أحد مقاهي وسط البلد بعد إنتهاء مناوبته ولا يكلف نفسه عناء الإتصال بزوجته للسؤال عليها أو على الصغار خلال ساعات اليوم، يعود مساءً وقد تهالك بدَنه فيُلقي بنفسه في الفراش بينما زوجته تحترق من إهماله لها، زوجة تعشق تراب قدميه ويستطيع بابتسامة واحدة منه أن يمحو دموعًا تتكاثرعلى وجهها الخمري يوم بعد يوم، فالإهمال جريمة واللامبالاة كبيرة نُعذب بها من يعشقوننا وتهفو أرواحهم لعناقنا ولكننا لا نبالي بل ونكابر حتى تشتعل في قلوبهم نارًا لا تنطفئ، نارٌ تأتي على كل ما في أعمارهم من أزاهير..

انزعج عماد من مطلب مروة الذي تُلاحقه به كلما رأته، صرخ بها "هل تحب نهاد إلى هذا الحد فلا تطيق مفارقتها

لأكثر من شهر؟ هل سألتْ نفسها يومًا هل تحبها نهاد بنفس القدر؟ لم يرها يومًا تحنو عليها، تبكي من أجلها أو حتى تفكر بها؟"... جمل كثيرة متناقضة صرَّح بها عماد في وجه مروة ليُخْرج شعاع الحزن من قلبه، يزداد ولعه بنهاد مع كُل كلمة تخرج منه لترتطم برأس زوجته المسكينة، فكلما ازداد جفاء نهاد معه كلما ازداد جنونه بها واستعر هواها في قلبه استعارًا، وبعدما هدأت موجة غضبه، استجمع عباراته ليقول

: مروة إنتِ أطيب وأهدى وأعقل من نهاد ميت مرة ياريت تعيدي تفكير في علاقتك بيها، هي مسيطرة عليكِ ووجودها هو اللي واقف بينا.

: واقف بينا ازاي يعني، إنت بتقول إيه؟ دي أختي الوحيدة وهي اللي بقيالي بعد ما أبويا وأمي ماتوا، إنت بتكرهها كده ليه يا عماد؟ إيه اللي عملته نهاد عشان تعاديها بالشكل ده؟

قال عماد ما قاله وتعالى صراخه، غادر الشقة وصفع الباب خلفه تاركًا مروة وقد انزوت باكية تحتضن رضيعتها نورين وقد أكلها الهم والغم.

تمالكت نفسها وهاتفت حماها تسأله أن يُرسل لها السائق ليصطحبها إلى الإسكندرية بمجرد أن يعلن الصباح عن نفسه،

عرف الحاج إسماعيل من صوتها أن أمورها مع ولدِه ليست على ما يرام، بل يبدو من صوتها الحزين ذي النبرة المنكسرة أن الشجار بينهما قد اشتد رغم أنها نفَت ذلك بالمرة حين سألها.

يومها أغلقت باب الغرفة عليها، اعتكفت تحتضن طفليّها حتى الصباح وقد توسد أحمد ذراعها الأيسر بينما تحمل نورين وتهدهدها على ذراعها الأيمن، وفي السابعة صباحًا جاءها الحاج إسماعيل بنفسه ليعود بها وليرى كيف أفرغ بها ولده عماد شحنة غضبه، وهل انتهت الزوبعة على خير أم أنه تغابى وصفعها مثلًا؟ فالحاج إسماعيل يحب مروة كابنته ويراها أفضل من عماد بل إنها خسارة فيه، خسارة لا تُعوض..

كانت عيناها متورمتين ووجهها شاحب وقد حفرت الدموع مَسْلكها على وجنتيها، إلا أن مروة كعادتها تماسكت وعلَّلت وهنِها لإصابتها بنوبة صداع مؤلمة لازمتها طوال ساعات الليل..

وفي الثامنة صباحًا كان الحاج إسماعيل يلتهم الطريق الصحراوي عائدًا بكُنته وحفيديه إلى حيث نهاد؛ فقد هاجمتها إغماءة مفاجئة وفقدتَ الوعي فأسرع بها الجيران إلى المستشفى، ضغط الرجل بقدمه على دواسة الوقود وانطلق مسرعًا استجابة لرجاء مروة، فنهاد بحاجة ماسة لهما الآن..

دخل الحاج إسماعيل إلى المستشفى على كرسي متحرك، ليس للإطمئنان على زوجته نهاد بل لينقل لها خبر وفاة شقيقتها مروة في حادث مروع الأسبوع الماضي، فقد كانت المرحومة تستحثه للحاق بنهاد في أسرع وقت؛ فقد وخز الأطباء أوردتها بالمحاليل اللازمة لكنها مازالت في غيبوبة، تجلس مروة إلى جواره يبتهل لسانها بالدعاء والرجاء أن ينقذ لها الله نهاد، وفجأة انفجر إطار السيارة ولم يستطع إسماعيل السيطرة عليها؛ انحرفت السيارة عن مسارها وانقلبت عدة مرات قبل أن ترتطم بلوحة إعلانات كبيرة ثُبتت قاعدتها بإحكام على حافة الإتجاه المعاكس، اخترقت مروة الزجاج الأمامي للسيارة وطار جسدها في الهواء ثم استقرت أرضًا على الأسفلت تحتضن رضيعتها نورين تقِيها بجسدها، ماتت المسكينة في الحال بينما ظلَّت الرضيعة بخير ماعدا بعض الكدمات البسيطة التي طالت جسدها الهزيل إثر الإرتطام؛ فلولا جسد أمها الدرع الواقي لكانت قطعًا قد فارقت الحياة في الحال ورحلت كما رحل شقيقها أحمد الذي أصيب بإرتجاج شديد في المخ ونزيف داخلي لم تفلح الإسعافات الطبية في السيطرة عليه، عادت سيارة الإسعاف إلى

المستشفى تحمل مروة وأحمد جثث هامدة، لا حراك فيها، مُخلِّفة خلفها سحابات سوداء لا تنقشع..

صرخة كبيرة استقبلت بها نهاد الخبر المشؤوم، كانت تصرخ وتتألم وكأن عظامها تُكسر الواحد تلو الآخر بلا رحمة، كانت تصرخ حُزنًا فقد أعياها الفقد، تتمنى أن تصل صيحاتها إلى قلب السماء ليرحمها خالقها ويُلحقها بهنادي ومروة، صرخة أخرى كبيرة ثم غابت نهاد بعدها عن الوعي بعدما رشقها الطبيب بحقنة منومة، استمرت في غيابها تدعو الله أن تلحق بمن لا حياة لها دونهم ولكن هيهات.

وحين عادت إلى وعيها وفتحت عيناها وجدت عماد إلى جوارها شاحب اللون، غائر العينين يبتسم ابتسامة باهتة يخبرها أنها بخير، ثم ربت على كفها وغادر الغرفة... "إنها بخير"، ما أسخف أن تكون بخير حين تتمنى الموت فيعزّ عليك، كانت ترتجف من الوحشة، طالبتها الممرضة أن تعتدل جالسة، ففعلت، طويت ركبتيها وضمتهما إلى بطنها، تحتضن ذاتها، بينما دلفت إلى غرفتها ممرضة أخرى تحمل "نورين" اقتربت المرأة من نهاد ثم وضعت الطفلة الرضيعة بين يديها، كانت المسكينة

تضع إبهامها في فمها تمُصّه، نظرات عميقة صوَّبتها نورين نحو خالتها وكأنها ترجوها أن تتماسك، فهي الشخص الوحيد المتبقي لها من رائحة أمها، انتفضت نهاد مرتعبة من الحقيقة الموجعة التي نزلت عليها كالنيزك، وضعت سبابتها بين كف الصغيرة فأطبقت نورين عليها وسقطت دموع نهاد منهمرة تبلل الوجه الملائكي بينما تحاول نهاد أن تفتح عينيها دون دموع لتستوعب الوجه الآخر من الحياة، حياة تخلو من مروة وهنادي، حياة يجب أن تستمر، حزن مجنون يعتمل داخلها، ولع يغلي بين عروقها، ما السبيل إلى النجاة؟

لا نجاة ولا خلاص إلا بالخروج من كينونتها إلى تكوين جديد، لا عبور إلى الأمان إلا بالانسلاخ من انفراديتها الشخصية إلى نفس أخرى تنشغل بغير ذاتها، فما هو الشيء الذي تريده الآن؟ وماهو الشيء الذي تحسب له ألف حساب؟ إلى الشاطئ الآخر من نفسها رحلت تبحث عن إجابات في حين ناولتها الممرضة قارورة الرضاعة الخاصة بنورين لتلقمها إياها وقد قرَّرت أن تدفن جزعها وتتحرر من سريرها وتنفِض عنها مرضها من أجل مروة، من أجل نورين..

تجاوزت نهاد نفسها، وبسرعة تجاوزت أزمتها بحثًا عن الأسمى والأرفع، أفاقت من قوقعتها التي أغلقتها عليها تجربتها وآلامها، فالله يأخذ بقدر ما يُعطي، ويُعوض بقدر ما يمنع، ويُيسر بقدر ما يُعسر، فقد حرمها الله هنادي وأعطاها نورين، منعها مروة ومنحها نورين، إن كل الحرائق تبدأ كبيرة ثم ما تلبث النيران أن تخمد، ها هي نهاد تتوضأ وتقف بين يدي خالقها تُصلي، تتذوق لأول مرة حلاوة القلب، وفي كل ليلة تضم نورين إلى صدرها ثم ترقد بجوارها في الفراش تخبرها أنها تحبَّها بقدر ما أحبَّت مروة، بقدر ما أحبَّت هنادي، بقدر ما أحبَّتهما معًا..

تغيَّرت الحكايا ورُواتها، خرجت مروة من دنيا نهاد ودخلتها ابنتها، خرجت هنادي من عروق نهاد وسكنتها نورين، الحاج إسماعيل أيضًا شيء في عينيه بات مكسورًا، ذبحه المرض وأهلكه العجز، فالعواصف تهب في لحظات، وعاصفة المرض غيَّرت كل ما في يوم الحاج، فإصابته في العامود الفقري كانت خطيرة أحدثت تلفًا لا يمكن إصلاحه في الحبل الشوكي، وفي أيام قليلة زاد عمره سنواتٍ كثيرة، قلَّ حديثه وتعليقاته، حتى نظراته أصبحت لا معنى واضح لها، في عينيه حسرة لا حد لها وفي يوم

وليلة غدا عاجزًا حبيس البيت، أصبح جسده ثقيلًا كأنه يزن أطنانًا، ينتفض غيظًا إذا فشلت نهاد وخادمته في حمله أو تحريكه، لكن ما حيلته؟ لا شيء أكثر من الإستسلام لعجزه والإنصياع لتعليمات "نهاد"، يبكي كالأطفال إذا رمقته خادمته بنظرة لوم حين يلوث الملاءة تحته، كثرت مواعيد أدويته وتداخلت؛ فاستخدمت له نهاد ممرضًا مرافقًا متخصصًا في الإشراف على مثل حالته، كان شابًا مفتول العضلات، ذو خبرة ودراية ليرعاه ويكون مسئولًا بالكامل عن مواعيد الأدوية وجلسات العلاج الطبيعي التي قررها الطبيب المعالج لحالته، ليس أملًا في الشفاء بل لحفظ البقية الباقية من حيوية طرفيه السُفليين وإلا فقد تُصاب ساقيه بضمور كامل في الأعصاب وتيبُس يُشقيه للأبد، فلا تهاون في التمارين ولا مواعيد الجلسات.

اتصلت نهاد بعماد ترجوه أن يحضر ليحادث والده بشأن الانتظام في الجلسات دون كِبر وغطرسة، فالإنسان لا ينتحر إلا في لحظات الغرور المطلق والتعصب الأعمى، لحظات لايرى فيها نفسه على حقيقتها، لابد لإسماعيل أن يفيق ويرى النكبة المريرة التي أصابته وليتعامل مع وضعه الجديد المستمر دون عناد.

أتاها عماد بنفس غير التي كانت، لا يستطيع العدوان عليها ولا الإنقضاض على إنسانيتها، يتمنى أن يرى في عينيها مناخًا آخر، هي أيضًا كانت مختلفة؛ قابلته بروح وكيان وتطلعات جديدة، يغمرها امتنان كبير له إذ وافق على أن يترك لها قطعة منه، يغمره امتنان أكبر لها لتمسكها بالبقاء مع والده وقد غدا عاجزًا مشلولًا لا حيلة له، بكيا معًا، يتساءلان في جزع، ماذا لو عاد بهما الزمان للوراء؟ أقسم لها أنه فقدَ نفسه يوم فقدها، فقد أحبها بصدق وكانت شغفه وغايته؛ لكنه كان سجينًا في بيت الحاج إسماعيل، لا طاقة له على مواجهته ولم يستطيع يومًا مراجعته في أي قرار يتخذه، ربما يناقش حينًا ويغضب حينًا لكنه سرعان ما ينسحب إذا ما زمجر الحاج وتعالى صُراخه وراح يُطلق اللعنات والويلات المصحوبة بالتهديد المطلق والوعيد لكل من في الدار، فيتصلب جسد الست "أم عماد" فوق سطح بركة متجمدة من الخذلان وتسأل كبيرها أن يطاوع والده ويُحسِن رفقته وألا يُغضبه أبدًا؛ فينسحب عماد إلى غرفته ويطفئ الأنوار حوله ويسكن الظلام حتى تُبلِّغ الست الوالدة زوجها أن ابنها البكري

رهن إشارته وطوع بنانه، فالرأي رأي الحاج والشورة شورته، لم تستطع أن تناقشه حين أصر على تزويج ابنته "لمياء" لابن شريكه بعد حصولها على الثانوية العامة مباشرة، رأى في تزويجها صونًا لعفتها، وإنقاذًا لرأسه المتكلفة من هَمِّ خلفة البنات، تزوجت لمياء في صمت بليد مُغلّف برضا ظاهري، شهور بعدها وتخرَّج عماد وتوظّف في النيابة العامة؛ ثم أراده إسماعيل أن يتزوج إذن فليتزوج، اختار له مروة فأصبحت عروسه في أقل من شهر بلا نقاش، لم يتوقف عماد يومًا عن الزحف على زجاج إرادته المُتكسِّر، يزحف في مكانه، يغادر البيت ممتلئًا برغبته، زاهيًا بقراره ثم ما يلبث أن يعود فارغًا من ذاته، متنصلًا من رغباته، تنبت لحيته وشاربه، يكبر عمره لكنه يظل بذات البسمة البلهاء والطاعة العمياء لوالده الحاج إسماعيل الصاوي.. هكذا كان، غير أن ندمه كان نازفًا وجرحه غائرًا حين طعنته نهاد بموافقتها على الزواج من والده، فاستحال حبهما محكومًا عليه بالإعدام، قتلته بقرارها اللعين وحرمته قدرته على استعادتها يومًا ما فلا يفارقها أبدًا.

لم يكن يعاقب مروة ولا يحاسبها على زواجه بها بقَدر ما

كان يعاقب نفسه ويعاقب نهاد فيها، يبكي في أعماقه كطفل تائه، يسأل عن أسباب شقائه بمرارة وينتظر جوابًا، فلا يأتيه شيءٌ ولا أمل له في الخلاص؛ فالألم يُحول أنفاسنا رمادًا.

صمتت نهاد حتى انتهى مَن كلامه، عشقته فيما مضى بكل جوارحها، نظرت في وجهه للمرة الأولى ربما منذ أسابيع أو شهور، شعرت أنها تختنق بأشياء كثيرة، ثم قالت في رجاء: **لو كنت حبتني في يوم سيب لي نورين تعيش معايا، أرجوك.**

كانت "أرجوك" حارة ملتهبة تحمل رجاء العالم كله!!

أجابها بكلمة واحدة، "**أحبكِ**".. قالها مرتجفًا، كأنه يرتكب خطيئة، رجفته وذوبان نفسه جعلاها تحسُ برغبة لا تقاوم في البكاء، ففعلت بينما دفنت رأسها المتخم بالفقد في أحضانه، لم يكن حضنًا تحركه الرغبة، لكنه حضن ران الصمت فيه على أرواح اختنقت صمامات حروفها وعجزت الكلمات عن التعبير عنه.

يا ويلنا إن استوى الحب في قلوبنا خطيئة بذُلها وشراستها ونيرانها!!

سنوات انصرمت امتد خلالها خيط خفي من الأحاسيس المتداخلة بين عماد ونهاد، حيرة غريبة تقرأها في عينيه كلما التقت بهما، بيد أن مشاعرًا إنسانية غاية في الصفاء، توق عجيب غاية في العمق، وحنين لذيذ سكن النفس، كل هذه المشاعر شكلَّت زمنًا جديدًا بينهما، ودون أن يقول لها "أحبك" ولو لمرة واحدة طوال تلك المدة، كذلك هي لم تفعل و مرَّت سنواتهما متتابعة، يغمرهما بصدق حب أكبر وأعمق، حب "نورين"، فقد يخذلك العالم وتساندك ضحكة صغير..

ثم وفي العام الخامس بعد رحيل "مروة" توفى الحاج إسماعيل قبيل عيد الأضحى بأسابيع، وفي صبيحة العيد وقف عماد يوزع لحوم الأضاحي صدقة على روحه ويسأل الناس الترحم عليه والدعوة له، وفي المساء جلس عماد إلى نهاد ونورين يتناقشون حول وجهتهم لقضاء أيام العيد على أن تختار الصغيرة ما تريد وينفذ عماد دون نقاش بينما تكتفي نهاد بالمتابعة، إلا أن شيئًا مبهمًا ظل يُشاغل تفكيرها منذ فترة، لمَا لا يتزوج عماد ممن تُرضي نفسه ويرضاها عقله؛ تشعر أنه نصف ضائع لا استقرار له إلا بنصف آخر يحتويه.

فما كان بينهما يومًا لا يمكن أن يعود، فقد انزلق من بين أصابعهما كحبات رمل راحت هباءً منثورًا، غدت تبحث له عن عروس، تريدها أنثى رقيقة بطراز فريد ومختلف لا تستطيع أن تنكرها عيناه، استنكر عماد الفكرة ونعتها بالجنون أو أنها تحمل شططًا جديدًا؛ هي بنفسها تبحث له عن أنثى يسكنها وتسكنه؟ عاتبته، كيف يتساءل وهو يعرف الإجابة؛ لا يمكنهما أن يكونا معًا أبدًا، تتمنى نسيانًا كاملًا لما كان، لما كان يُمكنه أن يكون لولا ما كان، لقد هيأت نفسها، من رأسها إلى أخمص قدميها لإفتقاده، بل درَّبت نفسها على هول ذاك الفقد الذي توغل داخلها وضرب بجذوره الغير مسبوقه في نفسها، لا تستطيع أن تجزم أنها لن تتألم، لن تعاني؛ لكنها صارت الآن تفهم أن الخراب والفجيعة والفقد من أبواب الحياة الموصدة التي يخافها القلب ويخشاها، لكنها أبواب قد تُفتح في أي وقت ودون سابق إنذار.

مازال عماد هو ذاك الطفل الغارق برأسه في غيمة ذاته يجمع بقايا عِناده، مازال طفلًا يصعب ترويضه، ربما احتاج زمنًا أطول ليستوعب إستحالة أن تكون نهاد أنثاه؛ ثم بعد فترة ولسبب غير معلوم إستقال عماد من سلك النيابة والقضاء، وافتتح مكتبًا

للمحاماة مشاركةً مع محامية مبتدئة، ابنة لمحامي شهير مِن أباطرة المحاكم، "صبا التوني"، أنثى لا يستطيع المرء الفكاك من أسرها إلا بأعجوبة، نظراتها الثاقبة القوية قصف نووي لا يُحتمل، ألوانها جميلة، وألحانها عذبة، ضحكتها أفقدت عماد صوابه بسهولة غريبة، ربما هزَّة افتقاده لنهاد كانت عنيفة إلى درجة لم تستوعبها نفسه الظمئ إلا في سنوات، لكن "صبا" بحضورها الطاغي أخرجته من سكرته واحتضاره وأعادته إلى دنيانا، لم يكن بحاجة لشيء سوى أن يصارحها بما في قلبه، إلا أن شجاعة المواجهة كانت تنقصه هذه المرة أيضًا، ف"صبا" نواة ملتهبة بالأفكار والآمال، كيانها متخم بالطموحات، لا تنسحب بعيدًا وهي تبحث عن مهرب إذا صادفت ما يُخيفها، أنثى لا تبقى في ظل أحد ولا يرعبها أحد..

و ذات مساء ومع إنصراف كل من في المكتب، طرقت "صبا" باب غرفته ودخلت، وقف منتبهًا لوجودها الذي لا يُخطئه، جاءته مباشرة ووقفت بمحاذاته عند طرف مكتبه، اقتربت منه، تماسك على الرغم مِن أن كل ما فيه يرتعش بقوة، فاقتربت أكثر ثم وضعت وجهه بين راحتيها وقبَّلته أطول قبلة عرفها في

حياته، ثم وقفت تتأمل ردّة فعله، لم ير من قبل امرأة بهذا الجنون ولا هذه القوة، ضمَّها بشوق وراح يعزف على شفتيها الدافئتين إيقاعاته الحزينة المنكسرة في حين امتدت ذراعه اليمنى لتطوق خصرها كطفل يبحث عن يد تشده لتُنقذه من التيه، يتشبث بقِدها المياس ليُبصر نور الحياة التي حُرمها من سنوات.

أخبرها بأن ماضيه كان قاسيًا على قلبه وشبابه، وأنه لا يريد أن يخبرها به لا لشيء إلا لكي يحبها أكثر، كان مريضًا بغيرها، مسحورًا بإمرأة لا يريدها أن تسرق ما بقى من عمره، امرأة هشَّمته غيرعابئة، ثم راحت تبكيه وتبكي معه، لكنه الآن قد غادرها بتأشيرة نهائية، لقد نال استقلاله، متنازلًا عن كل ذكرياته معها، مهاجرًا إلى "أرض الصبا" بمروجها الخضراء، فهل تقْبَله؟

أجابته صبا بقبلةٍ أكثرعمقًا قائلة: **أحبك**.

رسالة نصية أرسلها إلى جوال "نهاد"، تردَّد كثيرًا في إرسالها وتحيَّر أكثر في إختيار كلماتها، قائلًا: "احتاج إلى تركيز كبير حتى أنقل إليكِ ما أريد قوله، تتراقص الكلمات في عقلي لكنها تخاف أن تخرج، لكني رغم ذلك أحتاج أن أخبركِ الأمر بنفسي،

سأتشجع نحو أكثر الأمور صعوبة عليّ، سأتخذ مسلكًا لطالما دفعتيني نحوه، سأتزوج صبا اليوم، يمكنك أن تقولي عني ما تشائين، أناني، ضايع، أبله، لكنني فقط أقولها لكِ، لكِ وحدكِ، الآن وجدتُ من تملأ قلبي كاملًا بالحياة دون خوف أو ترقُّب، دون إثم أو خطيئة، وجدتُ من أمسكُ بيدها وأصرخ أمام الملأ قائلًا "**إني قد رُزقتُ حبها**".. ارجو ألا تكون في نفسكِ غضاضة مني، أتمنى لك كل الخير يا أرملة أبي العزيزة "..

لحظات وجاءته رسالتها ردًا: "لا حقَ لي فيكَ يا عماد، فنهايتنا سطرناها معًا بغباء منذ عشر سنوات، أشكركَ أنكَ منحتني بعض الحق في قلبك، كنتَ ولازلتَ وستبقى أبًا لغاليتي نورين، مبروك زواجك من الرائعة صبا ولعلها تكون شمسًا تشرق بضياءها على عتمة حياتكَ".

تزوَّج عماد بالفجر من جديد وتشبَّعت دنياه بصبا، لم يعد ضائعًا في تفاصيل حادة قديمة، أما نهاد فقد وقفت تراقب خسارتها وتقرأها للمرة الألف، تراءت أمامها حماقاتها التي ارتكبتها في حق نفسها، كان يمكنها إختزال الكثير من شقاءها لو أحسنت

خياراتها وآمنت بقدرتها على الإستمرار وعزَّزت دوافعها وأثقلت إنسانيتها بالتجربة والعلم والتعلم، فقط كانت تهرب من أزمة لتُلقي بنفسها في أزمة أكبر، حاربت أقدارها بأسلحة فاسدة فقط لتشعر أنها مُشتهاة كتفاحة ممنوعة مُحرّمة، كان ذلك كل جنونها أو بعضه، لا تتذكر يومًا كانت فيه عاقلة كمروة، أو هادئة كوالدتها، أرادت أن تصفي حساباتها مع الماضي، كل الماضي بأسراره وآثامه وآلامه، اعترفت بمسئوليتها الكاملة عما جرى لها، مقتنعة بمحض إرادتها أن تنسحب من عوالم متسخة سبحت فيها لسنوات، متسائلة: كيف سرقت منها تجاربها الحياة الحلوة التي لطالما تمنتها، لكنها الآن عازمة على تغييركل ما سبق بكامل كيانها..

تسعة عشر عامًا مرَّت من عمر الفراشة الطازجة والنور البهي الذي عطَّر حياة نهاد، كبرت نورين بسرعة وصارت آية في الجمال والحضور، عيناها لوزيتان، شفتاها مرسومتان بإتقان، يداها ناعمتان، أصابعها ممشوقة طويلة، جسدها فارع مستقيم، نسخة طبق الإصل من خالتها نهاد، يالله هل أحبتها مروة إلى الحد الذي

جعلها تتشبع بتفاصيلها فتأتي ملامح ابنتها لتُطابق خالتها إلى هذا الحد، هل تغلغلت داخل نفس عماد حتى امتصتها خلاياه فيضع بذرته في رحم مروة ويتركها تنبت هناك وفيها ما فيها من تفاصيل نهاد، لها العطر نفسه الذي يفوح طبيعيًا من جسدها البض، عطر البنفسج البرّي كأنها ابنتها التي جاءت من صميم خلاياها، عميقة هي في كل ما بها، نظرتها، ملمسها، أحاسيسها، لغتها الخاصة، قطعة من الماضي في ثوب من الآتي.

تحبها نهاد كثيرًا وتؤثرها على نفسها، تحسها ابنتها القادمة من رحم أنوثتها، تشترك معها في الكثير من الصفات وتشاركها نهاد في أغلب تصرفاتها حتى الغريب منها، تعرف نهاد شططها وعنفوان أيامها فتحتويها وتهدهد روحها، تدعمها بقوة وتدافع عنها بشراسة، تريدها أن تتخطى كل العقبات والعتبات والموانع، ترافقها دومًا إلى خارج البلاد في جولات متعددة كلَّما اشتركت في معسكر أو بطولة دولية، وها هي "نورين الصاوي" قد تُوِجت بطلة العالم في الاسكواش، وأمام الجمع الغفير من الناس أهدت فوزها باللقب إلى من منحتها كل شيء دون أن تتردد لحظة، أهدته بكل الحب إلى أمها "نهاد" التي بعد ترملها امتلكت الدنيا

كلها، ففي خزنتها نامت خواتم الماس والزمرد والجواهر الثمينة، وفي حسابها البنكي استقرت ملايين الجنيهات بعدما فضَّت شراكة المرحوم الحاج إسماعيل مع شريكه الذي كان أمينًا على نحو قلما وُجِد، وفي جراج عمارتها السكنية تقف سيارة مرسيدس وأخرى بي إم دبليو على أحدث طراز، كانت تتمدد بغنو ودعة فوق سنواتها الثلاث والثلاثين فيزيدها الزمن جمالًا وأنوثة؛ فيأتيها العرسان من كل صوب وحدب، إلا أنها كانت تعرف ماذا تريد وتعرف أيضًا ماذا ترفض..

ببساطة مقترنة بكبرياء كانت نهاد ترفض كل من يطرق بابها، تمط شفتيها لامبالية إن لامتها جارة على رفض عريس لُقْطه لا يُرفض!

وفي غرفتها ليلًا وعلى سجادة الصلاة تسأل الله الثبات، لا تريد إلا أن تكون أمًا صالحة لنورين، ففيما مضى من سنواتها لم تكن ترى سوى رغباتها، لم تكن تشعر إلا بنفسها، لم تكن ترى سوى نفسها، أما اليوم ولقادم سنواتها لاتريد إلا أن ترى ملامح هنادي، تسْتشِفها في نورين، تحتضنها ليلًا وتغسل

وجهها بدموعها، إنه اليقين الذي يُسعدها، فبرحيل شقيقتها مروة وفراقها لصغيرتها هنادي ولِدتْ إنسانيتها، إنها رحمة الله التي يُخفيها في القضاء والقدر..

فبعد كل هذه السنوات الجميلة حينًا القبيحة حينًا آخر والتي أمضتها "نهاد" في عمق الفقد رأت نفسها قد فازت بما لا يُقدّر بثمن، نالت ما يستحق أن تُضحي من أجله بكل غال ونفيس، "نورين" كنزها الغالي وثمرة صبرها الصامت لسنوات دون أن تصرخ ألمًا، هكذا أغلقت باب قلبها ليس بأسًا ولا عجزًا إنما حبًا وإيثارًا.

بينما عاش عماد يقلب فصول حياةٍ جديدة مع "صبا" فصلًا فصل على مهل وبترٍو جميل، يفتش بحرص عن أكثر اللحظات جمالًا وخصوصية، يجد في كل تفاصيلها سحرًا خاصًا، منحها كل اهتمامه وتركيزه وخَلُصَتْ لها رجولته؛ فغدت كسحابة مِسْك في متناول يده يمر داخلها فتحتويه، لم تهبه صبا أطفالًا، كان رحِمها صغيرًا غير مكتمل النمو، لم يتجاوز حجمه حجم رحم طفلة في العاشرة من عمرها، لا طاقة له على حمل جنين والاحتفاظ به لتسعة أشهر، أصابها ارتباك طفولي تعذَّرت معه

كلماتها وخبت ضحكتها حين فقدت الأمل نهائيًا في الإنجاب، اختل توازنها وأُغمي عليها حين صارحها طبيبها بالحقيقة الصادمة، وحين فتحت عينيها بوهن وثقل رمى عماد نفسه في حضنها وتوغل كل منهما في الآخر لا يريد أن يفارقه، يشعر معه بأمان كُلّي، لم يعُد بعدها الإنجاب يشغلهما مطلقًا، تخطيا معًا تلك العتبة إلى منطقة حرة لا محدودة من الرضا الذي يجلب السعادة، جميل أن تُحِب، والأجمل أن تُحَب والأروع والأخلد أن تتحد مع حبيبكَ فتصيرا كيانًا واحدًا أبديًا لا يفرقه حتى الموت، فيظل القلب رطبًا طالما ظل مغمورًا في مسبح الحب..

تمت

(٥)

ماذا نحب أن نعيش؟، مَن نريد أن نكون؟، آلامنا التي حفرت أخاديدها في أرواحنا ثم ملأتها الحياة خيبة ألِفناها فصارت واقعًا نعيشه، بينما فَقَد وجيف القلب طُهْره ومسَّه من الدنيا لغوب.

على قهوة بركان

ها هي دقات المُنبه اللعينة قد أعلنت عن نفسها، إنها الخامسة عصرًا من يوم صيفي شديد الحرارة، لزج الرطوبة، تكره "بُتيلة" أغسطس، وتكرهه أكثر حين تكون أقدارها قد حتَّمت عليها قضاءه في قاهرة المُعز بعيدًا عن الساحل الشمالي مصيفها المفضل..

قامت بتكاسلٍ من مخدعها، تشعر بثقلٍ في جسدها كله، تتمنى لو أنها استطاعت الإعتذارعن موعدها الذي تورَّطت فيه مع "زينة"، جارتها الجديدة التي قدَّمت نفسها إليها حين جمعهما المصعد بين جنباته منذ أسبوعين، إمرأة جميلة في منتصف الثلاثين لاتزيد عن ذلك، تقاربها في العمر، أم لصغيرتين في المرحلة الإبتدائية تعتمدانِ عليها في كل شيء، كانت تعيش في حي "غمرة" في شقة إيجار قديم مع والدتها الأرملة منذ سنوات بعيدة، لا يشق سكون الدار إلا ابنتيها، بكريتها ذات التسع سنوات والصغرى في السابعة من عمرها، أما زوجها فهو مهندس كهرباء، مغترب في الرياض حيث يعمل هناك مُنذ عشر سنوات هي مجموع سنوات زواجهما أيضًا، رحل عنها زوجها إلى بلاد النفْط من الشهر الثالث بعد الفرح ويرفض مطلقًا العودة إلى أرض

الـوطن بينمـا تـرفض هـي أيـضًا مرافقتـه إلـى المَنفـى كمـا تُـسيمه ويكتفيان بالزيارات المتبادلة كلما سمحت الظروف؛ فمَـن غيرهـا سـيتولى رعايـة والـدتها الكفيفـة ؟، ولمَـا يتوجـب عليهـا قبـول الإنعـزال في غُربـة تخافهـا وتخـشاها و زوجهـا مـشغول هنـاك بورديـاتٍ متناوبة لا يكاد يجلس في داره سـوى سـويعات قليلـة يغُـط خلالها في نوم عميق لا يكاد يفيق منه إلا ذاهِبًا للحمام، وحين احتدم النقـاش بـين الـزوجين وأفـصحت "زينـة"عـن رغبتهـا في لَـمِّ شـمل الأسرة، فيكفيهم ما عـانوه جميعًـا مـن فـراق وشـتات وليتمتعـوا بمـا جناه زوجها من ثمار الغربة، رُفِض اقتراحها رفـضًا قاطعًـا؛ فالرجـل راغب في الإستمرار حيث يكون، مازال بإمكانه جمع المزيد وزيـادة رصـيده البنكـي وشـراء بعـض العقـارات الأخـرى وتـأمين مـستقبل البنـات، فمِـن غيـر الحكمـة أن يقطـع بيديـه شـجرته المثمـرة هنـاك ليغرسها هنا في وطنٍ لا يرى لنفسه فيه أملًا ولا مستقبلًا.

لقد اعتـاد العـيش وحيـدًا يـروي ظمـأه ويُبلـل جفافًـا يـصيب زوجته الشابة في زيارة يمنحها لها في الشتاء حيث يصطحب أسرته إلى الأقصر وأسوان خـلال إجـازة نـصف العـام ثـم يتبعهـا بإجـازة أخـرى لـشهر كامـل في الـصيف، انفعـل الرجـل علـى زينـة حـين

أفصحت عن حاجتها إليه وإلى فراشٍ دافئ يجمعهما وأقسم عليها يمينًا بالطلاق ألا يعود من الرياض إلا إن طرده ربُّ عملهِ أو يعود على ظهره؛ وحين هدأ غضبه تودَّد لزوجته الشابة الصابرة ورأى أن يشترى سكوتها ومعه قُبولها بعقد شقة تمليك باسمها في الزمالك حيث قابلت بتيلة، لقد تودَّدت زينة إلى جارتها التي تشاركها الطابق ذاته بعدما قدمت بتيلة لها ولأسرتها عشاءً ساخنًا لذيذًا أثناء فَرشها لشقتها، ربما تختلف الجارتان في كثير من طباعهما، إلا أن" زيزي" ودودة جدًا وثرثارة جدًا جدًا، وبالتأكيد ستملأ الفراغ الذي يحتل حياة بتيلة ويتمدَّد فيها..

ما كادت فكرة الإعتذار تلمع في رأسها الصغير حتى دلفت خادمتها إلى الغرفة تخبرها بوصول مدام زينة.. نظرت إلى ساعة المحمول، لاحظت أن جارتها حضرت قبل الموعد بساعة كاملة، تنهدت بتأفف، إنها تفضل الدقة في المواعيد، أمرت مخدومتها أن تقدم شيئًا للضيفة حتى تنتهي من حمامها.

نصف ساعة مرَّت دون أن تكترث "بتيلة" لتلك الجارة التي تنتظر في الصالون وكأنها تعاقبها على عدم التزامها بالموعد المحدد، ألقت نظرة أخيرة على مظهرها في المرآة، غمرها الرضا؛

فقد بدَت أكثر جمالًا بعد التزامها بجلسات تحسين البشرة بالكولاجين، فالهالات السوداء تحت عينيها خفَّت كثيرًا عن السابق، كانت تلك الهالات ضمن الضريبة الإجمالية التي دفعتها في الشهور الماضية مقابل حصولها على الطلاق من زوج لاءٍ جمعها به الحب أثناء دراستها الجامعية، حينها كانت في عامها الثاني من دراسة الصيدلة وكان هو في بكالوريوس التجارة، ارتبطا عاطفيًا ورسما معًا أحلامًا وردية حقَّق الزواج بعضها فور تخرجها، إلا أن البعض الآخر كان أحلامًا زجاجية سريعًا ما تحطَّمت على صخرة الروتين وأصابها العطب جراء العادة والتعود، ابتعدا وزادت بينهما المسافات والفوارق وتكشَّفت إختلافات الطباع والرؤى، وتبلورت الأزمة حين ورثت "بتيلة" نصف مليون جنيه عن والدها ورفضت أن تُقرض زوجها "علاء" المبلغ، لقد طالبها به ليفتتح "كافيتريا" تكون مشروعه الخاص بعد فصله من شركة الكيماويات التي كان يعمل بها كمدير مشتريات لأسباب تتعلق بذمته المالية. أدركت حينها كم كانت بلهاء غبية تُسارع دومًا الى خلق التبريرات لتهاونه و تقاعسه عن تحمل مسئولية البيت وإدارة دفة الأسرة، تركض هنا وهناك واضعة يدها على رأسها تكاد تنفجر من بروده اللامتناهي حين

يتمدد على الكنبة الكبيرة أمام التلفاز يشاهد فيلمًا أجنبيًا بينما تتلوى هي تعبًا داخل شرنقة الواجب واللازم و الضروري، وحين تعاتبه ليلًا على ما كان من أحواله في النهار، يستمع الى حوارها ناظرًا الى سقف الغرفة أو الى شاشة محموله حتى تُفرغ ما في جعبتها من سخافات زوجة مصرية أصيلة "هكذا يرى الأمر برمته"، ثم يغوص في سريره وفي حالة نسيان كُلي لما قالت ولما أفصحت.

عانت كثيرًا من منطق القبول بالأمر الواقع، وأن عليها تحمُل تبعات اختيارها، فنظرة المجتمع للمطلقة تُشينها حتى وإن كانت خالصة لا شيَّة فيها، هاجمتها آلام جسمانية ونفسية؛ لأن واقعًا عاشته لسنوات امتدت لتصل إلى خمسة عشرعامًا يُجبرها على الإستمرار لسنوات أخرى تتعاقب حتى يتخرَّج "نور" نجْلها الوحيد وثمرتها الطازجة من بستان كان فيما مضى يانعًا، فلا ضيرمن العيش في الظلام من أجل نور، ولا ضرر من العيش على هامش الحياة مكتفية ببضع قطرات من ماء السكينة الناجمة عن الأمل في الخلاص، ثم قرَّر"علاء" فجأة الهجرة إلى بعض أقاربه في كندا، عرض الأمر على وحيدهما الذي طار فرحًا وبات يعُدّ الأيام المتبقية على الرحيل، لم يفكر أحدٌ فيها ولم يهتم أحدٌ برغبتها، ورحل

الزوج والابن غير آسفَين عليها، فكان رحيلهما ضربة موجعة أفاقت على إثرها من غيبوبة سُكونها؛ فقرَّرت الحصول على حريتها وخلع خاتمه الذي يعتصر بنصرها منذ الخطبة..

: "**توتي**"، **إيه الأناقة والشياكة دي كلها، إنتِ هتاكلي مني الجو في الحفلة ولَّا إيه؟**... جملة قالتها زينة بابتسامة بينما عيناها تنطق حسدًا وهي تتأمل بتيلة وطلَّتها النارية؛ فقد ارتدت فستانًا ورديًا ذو أكمام قصيرة سقطت عن كتفيها البلورتين المشربتين بحمرة كالخوخ، في حين بدت ترقوتها بارزة بعض الشيء في دلال مثير تتهادى عليها ياقوتة حمراء برشاقة...

وطوال الطريق انطلقت "زينة" تتحدث بطلاقة عن تفاصيل الحفل، وعن السيدة "هيام الصادق" صاحبة الدعوة، أكثرت من الإشادة بكرمها، ذوقها، أناقتها، ثم انتقلت لتثرثر عن السيد "عزت الباجوري" الذي يكبرها بعشرين عامًا، لكنه يتمتع بثروة ضخمة ونفوذ كبير وعلاقات لا حصر لها.

وفي كومبوند سكني بعيد نوعًا عن وسط القاهرة، دلفت سيارة

زينة بعد مرورها على أمْن البوابة، ثم فُتحت أبواب قصر مهيب لتستقبل الصديقتين، الفخامة عنوان كل ما يمكن أن تقع عيناك عليه، أنوار الحديقة خافتة، أشجار مختلفة الطول غُرست بعناية وتناسق، زهور بديعة تغطي مساحات هندسية من الحديقة، وفي الركن الشرقي وحول حمام سباحة كبير رُصَّت طاولات دائرية ذات مفارش مخملية بيضاء محاطة بخمس كراسي من القطيفة السوداء حول كل مائدة، مربوط بظهرها شرائط من التُل الأحمر اللون..

:أهلاً زيزي، اتفضلي يا قمر، مش هتعرفيني بصاحبتك المنيكان العسل دي؟.. جملة قالتها صاحبة القصر، مدام "هيام" أو "هومي" كما تناديها صديقاتها حين رأت بتيلة.

وكأن ما قالته صاحبة الفخامة إذنًا لانطلاق سهام الحديث من فم زينة عن جارتها بتيلة.

: دي توتي جارتي الجديدة التي كلمتك عنها وعن جمالها، هفكرك بيها، دي اللي قولتلك عليها المرة اللي فاتت لما كنا في الجيم، اللي لسه مطلقة من كام أسبوع بعد ما شافت الويل من طليقها لسنين، طليقها اللي كان هيمان فيها حب وغرام قبل الجواز!!

نظرة استغراب وعتاب صوبتها بتيلة نحو زينة لتصمُت

الأخيرة وتبتلع كلامها، كيف تجرؤ على الثرثرة عنها وعن حياتها الشخصية على هذا النحو مع صديقاتها ومعارفها في الجيم وربما في صالون التجميل أيضًا؟

فهمت مدام هيام نظرتها والتقطت الحديث في محاولة لامتصاص إستياء بتيلة، لوَّحت بيدها المُرصعة فأشرقت أنوار خاتم ألماظ ذي فص كبير قائلة: **الرجالة كلهم ملهومش أمان، الناس كلهم بيحسدوني على اللي أنا فيه ومحدش عارف الوحدة اللي عيشاها والنار اللي بتاكل فيا ليل نهار، "عزت جوزي" مسافر على طول في بيزنس واتفاقات وصفقات مع طقم سكرتيراته اللي بيختارهم بالمازورة من خريجات الجامعة الأمريكية، وزن الواحدة فيهم مايزدش عن ٥٥ كيلو، ده غير الستات والبنات اللي بيتعرَّف عليهم في سفرياته، الأول كنت بزعل واتخانق واشعلل البيت حريقة بعدين كبَّرت دماغي ورميته ورا ضهري، وعملت لنفسي شلة أنس وفرفشة استمتع معاهم ونقضي كلنا وقت لطيف، بلا رجالة بلا همّ.**

كلماتها أثارت الشفقة وحرَّكت الفضول عند بتيلة، دققت النظر فيها، إنها بالكاد في الأربعين من عمرها، جميلة الملامح يتوسط وجنتيها الممتلئتين نوعًا غمازات مثيرة، ذات عيون واسعة، متناسقة القوام، شعرها أسود بلون الليل، وتساءلت" ما

الذي يُعيِب تلك السمراء الكحيلة حتى ينصرف زوجها بأعوامه الستين نحو غيرها؟

مرَّت ساعتان من عمر الحفل الذي يدل كل ما فيه على الرفعة والبذخ، فإذا بالسيدة هيام تدعو السيدات للدخول إلى "القاعة الشرقية"، ألقت بتيلة ناظريها العسليتين حولها، القاعة غاية في الجمال، مصممة على شكل جلسة عربية، سجاجيد حرير مفروشة على أرضيات من الرخام البراق، أريج البخور المختلط من أجود الأنواع تنطلق في الأرجاء، الخادمات الأسيويات يعملن في همة ونشاط كخلية نحل وقد ارتدين زيًا موحدًا أضفى عليهن أناقة وجمال، لا يتوقفن عن تقديم أفخر أنواع الحلوى السويسرية والفرنسية والمشروبات الكحولية الباهظة الثمن والمشروبات الشرقية والعصائر على اختلاف مذاقها.

وبإشارة من صاحبة الحفل اقترحت "ليزا"، فتاة بيضاء ذات ملامح أجنبية، عُرف فيما بعد أنها إنجليزية من أصل مصري، تعمل كمديرة أعمال للسيدة هيام، بدأت صنوف الطعام بالنزول على موائد قصيرة وضعت بترتيب مبهر في ثواني في كافة أرجاء القاعة الشرقية، كان العشاء مُكلِّفًا للغاية، فالميزانية المقدرة له

تعادل ما يمكن لبتيلة الحصول عليه من أجر مضاف إليه المكافآت في عام كامل من عملها كصيدلانية في صيدلية كبرى..

وبعد العشاء انطلقت الأغاني الشعبية تصدح من ميكروفونات ومكبرات صوت صغيرة في حجم علبة الكبريت مُثبتة في أركان القاعة، في حين دعَت "ليزا" الضيفات للرقص على هذه الأنغام، وافق الجميع بحماسة بل أن البعض انصرفن إلى غرفة جانبية ملحقة بالقاعة ليعُدْنَ وقد استبدلن ملابسهن ببدل رقص على أعلى مستوى، متباريات بجمال أجسادهن البضة وبتلك المساحات الغضة الشاسعة التي تظهر منهن للعلن..

: واااااو، أخيرًا أكلتْ الجمبري الجامبو اللي كنت هموت عليه، إيه رأيك؟ الحفلة تجنن مش كده؟.... عبارة خرجت من فم زينة المحشو بالمكسرات ونوجة المستكة بالحبهان المستوردة.

اكتفت بتيلة بإيماءة من رأسها فقد بدأت تشعر بالدوار إثر استنشاقها لنوع غريب من سجائر تراصت في فم بعض السيدات، سجائر ذات دخان أزرق لم تستنشقه توتي من قبل، اتجهت مدام هيام صوبها وجلست بجوارها مبتسمة، ألحت عليها أن تأخذ

كأس من مشروب ما لتستعيد بعض طاقتها وتُجدد نشاطها، ابتسامة هيام ووِدها لم يُمكن توتي من أن ترفض أو حتى تناقش، وما إن ارتشفت منه حتى بصقته، وتساءلت بشيء من التوجس عن ماهيته، فضحكت السيدة وغمزت بعينيها قائلة: "**ده كاس جين مع تونك، هيخليكي تطيري فوق، هو مش إنتِ عايزة تنسي همك ومشاكلك، اشربي، اشربي وانسي وفُكي كده**"..

أزاحت بتيلة يد السيدة التي تحمل الكأس بعيدًا وأخبرتها بإصرار أنها لا تشرب الكحوليات بأنواعها ولا تحبها، علت الموسيقى وتوسَّطت القاعة مغنية نوبية بدينة، ذات بشرة داكنة، متوسطة الطول والعمر، تحيط بها مجموعة من الفتيات كأغصان البان في العشرينات، يُساندنها بالضرب على الدفوف، تعالت آهات المدعوات مع أغاني المغنية، البعض يرقص ويتمايل بينما اكتفى البعض الآخر بأن يشيد بمهارة "ستونا" وبراعتها في الآداء، ويرددن معها أغانيها في بهجة مختلطة بنشوة عجيبة..

وشيئًا فشيئًا بدأت أجواء الحفل تتغير ويتسرب لها نمط جديد، الأنوار تخفُت، والعيون تُرسل إشارات ذات مغزى مختلف، همهمات تنبعث، وفي ركن ناءٍ في آخر القاعة بدأت

تلتصق كل اثنتين في أوضاع مثيرة، أفاقت بتيلة من شرودها على صوت السيدة هيام وهي تضغط بيدها على فخذ بتيلة التي ألجمتها المفاجأة، فكرَّرت هيام التصرف في وقاحة أكبر حيث أزاحت الفستان عن ساقي توتي وضغطت بأناملها الدافئة على أحد وركيها بينما تحرك كفها الآخر ليلامس صدرها في رشاقة وسرعة، تحديدًا قصدت السيدة حلمتها البارزة نوعًا وكأنها تراها وتقرأ بسهولة جغرافيا جسدها وتعرف السبيل إليها، شعرت بتيلة كأن ماسًا كهربائيًا ضربها، لهيب شديد السخونة طفح على وجنتيها، ارتفاع ملحوظ في انفعالاتها، لقد أحسَّت عرقًا يجري كشلالات متدفقة ليغطي ظهرها، فقد انتقلت أصابع هيام إلى ما بين فخذيها، فقدت رباطة تماسكها وانتفضت واقفة، أمسكت براحتها صاحبة الحفل وقالت بغنج: **اتضايقتي؟**

تحاشت "بتيلة" نظراتها النارية ونبرة صوتها التي صارت قوية إلى حد بعيد، سألتها عن زينة، فعليهما الإنصراف الآن، رفضت هيام طلبها وتعللت بأن الحفل يحمل الكثير من المفاجآت التي لا تُعوض، مازالت مطبقة على كفها وكلَّما حاولت بتيلة سحبها تشبثت بها السيدة أكثر قائلة: "**بتسألي ليه**

على زيزي، سيبها تتبسط وتبرَّد نارها".. ثم اطلقت ضحكة تُجلجل مصحوبة بغمزة عين فاجرة كضحكة الساحرة الشريرة ذات المكنسة في أفلام الكرتون..

ثم خفتت ضحكتها وتبدَّلت بإبتسامة مودة قائلة: "**تعالي، أوريكي حاجة** "... كانت لهجتها آمرة وعينيها صارمتين، ثم ساقت بتيلة إلى جناح نومها، لقد ذُهلت من فخامته، أمرتها صاحبة القصر أن تقعد بجانبها على الأريكة الحمراء الموضوعة في إحدى الزوايا، أغرقتها بنظرات حارة زاخمة بالإشتهاء وهي تقول: "**أنا وإنتِ مجروحين من الرجاله وقرفهم، اسمعي كلامي وجربي عالم الستات، صدقيني هتلاقيه أحلى بكتير وعمرك ما هتزهقي وبكره تُشكريني**"..

انتاب بتيلة الذعر وتملَّكها الهلع، وجدت صعوبة في التخلص من هيام التي التصقت بها التصاقًا وراحت يديها تتنزه بمهارة بين بساتين بتيلة الغنَّاء، قاومت بضراوة ونزعت نفسها، خرجت مهرولة من الجناح تصرخ وهي تُلملم تلابيب ثوبها بعد أن شقته هيام ليبرز منه نهداها في نفور، أنفاسها تتلاحق، وعندما غدت خارج القصر بل خارج الكومبوند كله، ألقت بنفسها في سيارة

أجرة أرسلتها لها العناية الإلهية، تنفست الصعداء وهدأ روعها..

صباح جديد أشرق على "بتيلة" وهي مستلقية على ظهرها لا تقوى على الحركة، نفذت أشعة الشمس الساطعة إلى عينيها العسليتين عبر زجاج نافذة غرفتها، فما كادت تفتح جفونها حتى جاءها اتصال هاتفي من والدتها التي سافرت في زيارة لابنتها الكبرى، "خلود" شقيقة بتيلة المقيمة في دبي منذ زواجها بسكرتيرعام ديوان حاكم دبي "محمد راشد آل مكتوم"، لامتها أمها على عدم إتصالها بها بالأمس كعادتها اليومية قبل أن تخلد إلى النوم، تعلَّلت بتيلة بتأخرها في مناوبة ليلية في الصيدلية عادت بعدها إلى البيت مجهدة، لا تستطيع الوقوف على قدميها وتمددت مباشرةً في السرير بثيابها كما هي، أنهت المكالمة مع أمها التي أمطرتها بالدعوات أن يصلح الله حالها ويعوض صبرها برجل طيب يُقدِّرها وتبدأ معه من جديد، فهذه سُنة الحياة.

لقد خُلقت المرأة لتستكين في حضن الرجل مهما راحت أو غدت، رسالة شبه يومية لا تنفك الأم تقذفها في أذنيّ صغيرتها التي تجاوزت السادسة والثلاثين من شهرين، عليها أن تغتنم الفرصة،

فمازالت شابة جميلة ومرغوبة، بل إنها ازدادت جمالًا وإثارة، لقد نضجت أنوثتها على نار هادئة تُتيح لها البحث بهمة وجدية عن رجل ذوهيبة ومركز يُريح بالها ويُدفِئ فِراشها، تريد لابنتها رجلًا يختلف كليةً عن "علاء"، زوجها السابق المتورم بذاته الموهوم بذكاءه رغم تفاهته وسطحية تفكيره وخيباته العملية المتتالية، ترغب لها في رجل ذو شخصية قيادية تتحامى فيه بتيلة من غدر الأيام، رجل ناضج وقور ذو حضور طاغ هو الذي يصلُح معها، لا رجلًا يُسرع بالاختباء خلفها إذا ما عركته الظروف، فمقولتها الدائمة لها:- **الحياة مركب فلا تجدفي يا ابنتي عكس التيار!!**

لم تعلق بتيلة على حديث والدتها الذي حفظته عن ظهر قلب، اكتفت بتحيتها وإخبارها أن كل شيء على ما يرام، ودَّعتها مُرسلة سلامات حارة لشقيقتها الكبرى وزوجها والأبناء، ثم أغلقت الخط وعدَّلت وضع المحمول إلى الصامت، فليحترق العالم بعيدًا عنها، ثوان ولمعت شاشة المحمول تحمل اسم "زينة"، لم تجب بتيلة، فليس لديها ما تقوله لتلك الوقحة الآن، تحتاج أن تتوازن وتستعيد بعض طاقتها المهدرة لتواجهها.

أسرعت إلى الحمام لتزيل عن جسدها المنهك آثار الليلة

السابقة، مازالت تتذكر قبضة صاحبة القصر على معصمها، حركة راحة يدها على صدرها، ضغطتها على حلمتها، لسعة أصابعها الساخنة على وِركها واتجاهها المباشر إلى ما بين فخذيها حيث هدفها الصريح، فرَكَت جلدها مرارًا وهي تلعن تلك السافلة التي تستحق الرجم..

: إيه اللي إنتِ عملتيه امبارح ده؟.. قالتها زينة معاتبة بتيلة حين خرجت من حمامها فوجدت جارتها قد استقرت على كنبة الأنترية الكبيرة في غرفة المعيشة تمسك كأسًا من عصير الرمان وترتشفه بهدوء وبرود كأن شيئًا لم يكن!

: إيه اللي أنا عملته؟ إنتِ بتستعبطي يا زينة؟ إنتِ كنتِ عارفة اللي بيحصل هناك ومع ذلك خدتيني معاكِ، يا بجاحتك يا شيخة!

: اسمعيني كويس يا بنت الناس الكويسين، تصرفك الطايش امبارح ضيّع منك فرصة عمرك، هيام الصادق هي اللي هتملى فراغك العاطفي وتسدد فاتورة رغباتك واحتياجاتك وهتاخدي فلوس كتير أوي تشتري بيها الصيدلية اللي في شارع أبو الفدا اللي هتموتي عليها، وكمان هيبقى عندك معارف وواسطة جامدة أوي في ضهرك تحميكي وترعاكي ومحدش يقدر يدوس لك على طرف، وبعدين إنتِ

هتخسري إيه؟ دي ست محرومة متجوزة راجل قاطع ميه ونور من سنين، من حقها تتبسط وتعيش حياتها بالطريقة اللي ترضيها مادام محدش هيتضر.

: إيه المنطق ده؟! إيه البجاحة دي؟! إزاي يعني؟! ولّا هي متجوزة راجل قاطع ميه ونور إيه اللي مصبّرها على كده؟ ما تطلب الطلاق وتريح نفسها منه وخلصنا؟

:مش بقولك إنك ساذجه، تطلب الطلاق وتسيب تلال وأكوام الفلوس اللي عنده دي لمين؟ دي ما صدقت إنه اتجوزها بعد ما كانت بتشتغل عنده ضمن طقم السكرتارية اللي في مصنع الرخام بتاعه، ياما سهرت ليال تفكر وتتكتك توقعه إزاي، فكري بعقل شوية وشوفي مصلحتك ودوري عليها، سلام يا بنت الناس الكويسين.

غادرت زينة إلى شقتها دون أن تترك لبتيلة المجال للنقاش والمجادلة، مازالت ترتدي بشكير الحمام، مازال جسدها نديًا يفوح منه عطر زيت اللافندر الذي تُرطب به بشرتها بعد كل استحمام، تمدَّدت على الأريكة، أغمضت عينيها وسرحت في ماضيها، اقتحمت ذكرياتها خلوتها وأعادت وهي مسترخية شريط حياتها بتفاصيله..

عاشت طفولة سعيدة مستقرة بين زوجين متفاهمين، تركت أمها دفة القيادة لزوجها في كل ما يخص الأسرة بينما كانت هي الآمر الناهي في كل مايخص شئوون البيت والأطفال، تحدَّدت الصلاحيات فلا تعارض يُوجِع ولا شقاق يورث، فمرت سفينة حياتهما بسلام رغم بعض التعوجات والالتواءات المعيشية، فالأمر لا يخلو من بعض الأزمات الطارئة الخارجة عن إرادة الزوجين، ظهرت شقاوة بتيلة بكل صورها منذ الطفولة كما كانت تصرفاتها تتسم بالبراءة والسذاجة أيضًا، صورة معاكسة تمامًا لشقيقتها خلود التي سبقتها إلى الدنيا بأربع سنوات، خلود هادئة ورزينة قليلة الكلام، ذات آراء فلسفية وحجة وبيان؛ فأطلق عليها الوالدانِ لقب "سقراط"، فلم تكن كبقية بنات العائلة أو الصف المدرسي اللاتي تفتَّحت مداركهن مبكرًا على التفكير في الجنس الآخر، وظلت خلود بلا تجربة ارتباط واحدة حتى تخرَّجت ثم عملت مباشرةً في قسم الترجمة في سفارة الإمارات في القاهرة، ثلاث أشهر مرَّت على التحاقها بالعمل ثم تعرَّفت على شاب إماراتي التحق للعمل بالسفارة كملحق تجاري، أبدى "طلال" إعجابًا مفرطًا بخلود، لم تنكر إعجابها به لكنها لم تتحرك نحوه

خطوةً واحدةً، ثم تقدَّم طالبًا يدها، وفي صيف نفس العام صارت زوجته، عام بعده رزقهما الله بتوأم جميل المُحيا ثم انتهت فترة إنتداب طلال في مصر وعاد إلى موطنه مصطحبًا أسرته الصغيرة..

أما "بتيلة" فكانت كل إهتماماتها في فترة المراهقة تنصب في هواياتها المختلفة، تأرجحت كثيرًا بين الرسم وتعلم البيانو، لم تستطع ممارستهما معًا ففضَّلت البيانو وانخرطت تتعلمه في الفترة المسائية في معهد خاص وانضمت بعد فترة إلى فرقة موسيقية صغيرة كوَّنها مُدرس البيانو المُوكل إليه تعليمها وتدريبها، وفي تجمعات الفرقة تعرَّفت على "معتز" طالب الصف الأول الثانوي، العازف على الكمان، في البداية جمعهما حب الموسيقى وانخرطا في اهتمام بالغ بالتدريب الجيد لفقرة العزف المشترك التي ستجمعهما على المسرح معًا في الحفل السنوي للمعهد، وجدته مختلفًا، فرغم وسامته ولباقته إلا إنه لم يكن من أولئك الفتيان الذين يقضون الوقت في معاكسة البنات والخوض في مغامرات الإرتباط والإنفصال.

تسرَّب إلى قلبها وانشغلت تفكر فيه حتى جاء ذاك اليوم الذي فاجأتها فيه آلام الدورة الشهرية وهربت من البروفة إلى

قاعة جانبية خالية دائمًا لتسترخي بعض الوقت حتى يبدأ مفعول قرص المسكن يسري إلى حيث المغص القاتل، فتحت باب القاعة بحذر وتناهى إلى سمعها تأوهات صادرة من غرفة صغيرة مجاورة للقاعة، غرفة تُستعمل لتخزين الأدوات الموسيقية الخربة، مدَّت رأسها للداخل وقد تملكها الفضول، جحظت عيناها حين وقعت على مشهد لا تراه إلا في السينما، تُسميه والدتها "فاضحًا"، لم يؤلمها المشهد بقدر ما آلمها بطلهُ، إنه "معتز" يتمدد فوق زميلتهما الشقراء وقد خلعا معظم ملابسهما، وقْع المفاجأة جعلها تصرخ فانتبه بطلا المشهد وقاما بترتيب هيئتهما الخارجية وخرجا مهرولين من الغرفة ومن المعهد كله، وكانت تلك هي المرة الأخيرة التي رأتهما هناك؛ فقد انقطعت الفتاة عن دروس الموسيقى، بينما نَقل معتز نشاطه إلى فرع آخر، ثم عرفت بتيلة أن والده قد توفى فجأة وأنه سينتقل مع والدته للعيش مع أسرتها في الفيوم..

تناست بتيلة أمر معتز وما عادت تسأل عن أخباره، صدمتها فيه كانت أكبر من أعوامها الثلاثة عشر التي تحملها على كتفيها الطازجتين، انخرطت تتابع السينما العالمية وعشقت فيلم تيتانك

وشاهدته عشرات المرات، مرَّت الشهور تركض وهي تدفن رأسها بين صفحات الكتب وملازم المراجعات النهائية ورغم توْقها الشديد لقصة حب رومانسية كقصة "جاك وروز" إلا أنها أغلقت قلبها على حلمها الوردي ونسجت من أحلام أسرتها شرنقة تحميها من الفراغ، أراد والدها الأستاذ" هشام محفوظ"، وكيل أول وزارة التربية والتعليم أن يراها صيدلانية ماهرة ليُحقق فيها حلمًا فشل هو في تحقيقه لذاته، وما الخطأ في ذلك؟ أليس الأبناء امتدادًا لآباءهم، ساعات طويلة يقضيها الأب محتضنًا ابنته يُغذيها بحلمه ويُثبته في خلايا قلبها وعقلها، ساعات أخرى تعقبها تقضيها بتيلة وهي تتخيل إنكسار أبيها وحزنه اذا ما فشلت في تحقيق رغبته وفلتت منها كلية الصيدلة..

وإن كانت الأقدار قد شاءت أن تبتعد شقيقتها خلود عن كل ما هو علمي وتختار الإلتحاق بالقسم الأدبي عن قناعة هزمت رغبة والدها وفتَّت أحلامه؛ فلابد أن تقبل بتيلة بأقدارها وتحقق هي لأبيها ما يريد، فالرجل لم يبخل عليها بثمن الدروس الخصوصية وكشاكيل المراجعات النهائية ولم يسمع عن أستاذ ماهر في مادته إلا وسعى قدر جهده ليُلحق بتيلة بمجموعة هذا

المدرس الفذ، ويوم نجاحها في الثانوية العامة بمجموع كبير فاق تصورات الأب والإبنة معًا دخل إلى المنزل وهو يحمل في يده مفاتيح سيارة جديدة أنيقة اشتراها لبتيلة هدية نجاحها من مكافأة نهاية الخدمة، ضمَّها إلى صدره في فخر اختلط بحنان وقبَّلها عشرات المرات على وجهها وجبينها وهو يصيح: **مبروك علينا يا د. بتيلة..**

ثم التفت معتذرًا لشقيقتها خلود عن تسجيله السيارة الجديدة باسم بتيلة بينما اكتفى بأن يمنحها هي سيارته المستعملة، فمن غير اللائق أن تذهب الدكتورة من شارع فيصل إلى جامعة القاهرة في سيارة أجرة، ابتسمت الفتاة إبتسامة باهتة وهنأت شقيقتها بالهدية الفاخرة، لكنها التفتت إلى أبيها قائلة: **وحياتك يا بابا أنا مش زعلانة ومش بحقد على الدكتورة، لكن بفكَّرك بس إن مفيش حد بيحقق حلم حد إلا لما بيخسر حلمه هو..**

يومها رأت بتيلة في عينيّ شقيقتها ألمًا رغم الضحكة المرسومة على وجهها، خيوط من الحزن والغيرة لمعت على وجه خلود البيضاوي رغم إنكارها للأمر، فبهذه البساطة شق الرجل أول خندق بين الأختين رغم أنه لا ضغينة صريحة حملها

قلب خلود لشقيقتها التي حاولت كثيرًا تخطي واقعة السيارة، كم مرة عرضت بتيلة على شقيقتها في استحياء أن تمنحها سيارتها الجديدة لتذهب بها في نزهة أو موعد مع صديقاتها، لكن هيهات فالألم كالتجاعيد لا يُمحى بسهولة..

وفي أكتوبر من نفس العام وبعد شهر واحد فقط من إلتحاق بتيلة بالصيدلة تحقيقًا لحلم والدها سقطت جفون الأستاذ هشام في استسلام لطائر الموت الحزين الذي حلَّق فوق رأسه بمجرد أن انتهى من صلاة الفجرفي صالة شقته وبالقرب من النافذة وجدته زوجته منكبًا على وجهه في وضع السجود، فنظرت إلى السماء تدعو الله في رجاء أن يثبتها ويربط على قلبها وقلب بناتها، بينما انخرطت خلود في بكاء صامت هادئ كعادتها كانت بتيلة ترتجف في حضن والدتها كحمامة صغيرة بلَّلها المطر بقسوة..

ظلت بتيلة تعاني اكتئابًا لفترة طويلة، فاليُتم يكسر الظهر والفقد يعصر القلب، ساءت حالتها وهزُل جسدها وصارت نحيفة، لا تأكل من الطعام إلا ما يُقيم عودها، كميات قليلة جدًا لا تكفي طفلة في الرابعة من عمرها، اصطحبتها والدتها لطبيب مشهورخبير تغذية، فهِم الطبيب بما له من خبرة أن نفسيتها العليلة

وراء كل ما تعانيه من آلام المعدة وعسر الهضم وارتجاع المريء، قدَّر شعورها ووجعها جراء فقدها لأبٍ ارتبطت به عاطفيًا ونفسيًا؛ فكان هو بطلها الأول وكل علاقتها بالرجال، حدَّثها مرارًا أن عليها التمسك بالحياة ومقاومة حزنها لتحقق حلم أستاذ هشام محفوظ إن كانت تحبه بصدق؛ فلتُهديه شهادة تخرجها حينها فقط ستستقر روحه وترقد في سلام..

رويدًا رويدًا استعادت بتيلة بعض نضارتها وتقدمت في دراستها وشغلت نفسها في تحصيل دروسها دون أن تكون لها صداقات حقيقية في جامعتها ولا صديقة واحدة مقربة، كلها علاقات سطحية في إطارالزمالة وتمضية الوقت، لاشيء أكثر من ذلك، وفي العام الدراسي الثاني من كلية الصيدلة تعرَّفت "توتي" على زميلة جديدة انتقلت للتو إلى صفها، كانت لطيفة مرحة إلى الحد الذي لفت إنتباه بتيلة لها، جلست الفتاة بجوارها في سكشن العملي، ومن أول تعارف حاصرتها بنظراتها الغريبة وكثيرًا ما كانت تبتسم لها قائلة:- **إنتِ جميلة أوي يا بتيلة، يخرب بيت جسمك، إيه كرباج!!**

حينها كان سهم من الإرتباك يصيب بتيلة وتهرب منها شجاعتها ويسيطر عليها الخوف من زميلتها، فتبتعد عنها ودقات قلبها تعزف سيمفونية من فرط الإضطراب، تتلاشاها أيامًا ثم تعود وتتعامل معها ببساطة وعفوية وهي تُقدم حُسن الظن، إلى أن تعرَّفت على "علاء" الذي اقتحم قلبها البكر وحياتها النقية، كانت روحها توَّاقة إلى علاقة حب رومانسية بريئة وطبيعية، توجَّهت مشاعرها نحوه حين حذَّرها بلطف ودماثة من زميلتها "ندى" ذات الأطوار الغريبة، لم يجرحها بلفظ خادش أو حديث خشن عن تلك الزميلة التي تدور حولها وحول سلوكها الشكوك، انصرفت نحوه وشغلها إهتمامه بأمرها وأمر سُمعتها فعاشت معه قصة حب أخفتها عن العالم أجمع حتى تخرجت وصارت الدكتورة بتيلة، أحبَّته بعمق وبحق سنوات الإنتظار والتوق لحب تحلو به ومعه أيامها وترتوي به أنوثتها وبراءة مشاعرها، وبذات اللهفة ذلَّلت كل العقبات والفوارق التي تمنع زواجها بمن تحب، اعترفت له في ليلة زواجهما أنه أكبر أحلامها وغاية أمنياتها، شعرت معه أنها غدت أنثى كاملة، وحين تجولت أصابعه على صدرها وثنايا جسدها الدافئ دفعت نفسها نحو حضنه تدفن نفسها فيه تبكي كما لم تبك من قبل، لثم دموعها بشفتيه وطاب لهما

استسلامها الكامل وهيمنته الطاغية على خلاياها بينما رعشة شهوته تزلزل جسدها، ثم همس في دفء: **مبروووووووك يا عروسة.**

سنوات قضتها معه كزوجة مخلصة وكحبيبة مثالية تتفانى لخدمة أسرتها ورعاية زوجها وابنها الوحيد "نور" الذي لم تستطع منحه أخ أو أخت فقد امتحنها المولى عز وجل بورم كبير في الرحم استوجب استئصاله حفاظًا على حياتها، وفي الخمس سنوات الأخيرة من الزواج كانت المشكلات والخلافات الزوجية قد تفاقمت وصار الشجار عنوانًا رئيسيًا للبيت؛ فتفتَّحت عيناها على الفجوة الواسعة التي بينها وبين علاء ولم ترها من قبل، صارت ترى الصورة أكثر وضوحًا والتفاصيل أكثر قتامة، أدركت بعد فوات الأوان أنها قد أساءت الإختيار وأن لا مزايا فتَّاكة عنده، بل إنه غشَّاش ومخادع سلعته حلو الكلام، فقد اكتشفت بالصدفة أنه قد فُصل من عمله بسبب أزمة مالية كبيرة ونقص في العُهدة ولولا علاقة طيبة تربط صاحب الشركة بشقيقه المهاجر في كندا لكان الأمر بالضرورة انتهى بشكل درامي يزُج بالمختلس إلى السجن لأعوام قد تطول.

وازدادت الأمور تعقيدًا حين ربحت بتيلة وشقيقتها وأمها قضية وقف خيري كان المرحوم هشام قد رفعها على الدولة وظلَّت

القضية في أروقة المحاكم لسنوات حتى أصبحت في طي النسيان، فإذا بالحكم يصدر لصالح ورثة الرجل وتحصل بتيلة على نصف مليون جنيه ويُطالبها علاء بالمبلغ ليفتتح مشروعًا يخصه، فلا يصح أن يكون زوج د. بتيلة عاطلًا، كما أنه لا فرق بين الرجل وزوجته، فالجيب واحد، في حين أرادت بتيلة صاحبة الميراث أن تشتري شقة تمليك في الزمالك لتهجر شارع فيصل بضوضاءه وزحامه الشديد أغلب الوقت، أحداث كثيرة عصفت بحياتهما التي كان لابد أن تنتهي بالطلاق ومعه هاجرعلاء ونور إلى كندا، ودفنت بتيلة في أعماقها وجعًا يأكلها كل ليلة ويشق وتين قلبها الواجف..

أما عن أحداث الحفلة وما جرى من السيدة هيام فقد أيقظ في بتيلة أحاسيس حاولت تجاهلها منذ حصولها على الطلاق، وظلَّت تفكر وتتساءل "هل هذا هو الطريق الآمن الذي يتوجب على المرأة أن تطرقه إذا فشلت في علاقتها مع عالم الرجال؟ هل عالم المِثليات سيخرجها حقًا من أحزانها ويملأ فراغها نشوة ويُطفئ رغباتها وجوارحها المتعطشة للحب دون أي التزام خانق نحو الطرف الآخر؟ هل تستطيع المرأة أن تملأ مكان الرجل في حياة امرأة أخرى؟

كل هذه التساؤلات تزاحمت في خاطرها بإلحاح حتى شق رنين هاتفها صمت الغرفة، ضغطت علامة قبول المكالمة ووضعت الهاتف على أذنها، فجاءها صوت أنثوي يقول بدلال: **إنتِ لسه زعلانة مني حبيبتي؟**... أدركت أنها هيام الصادق التي لا تكِل ولا تمِل، تملتكها الحيرة، ما عساها فاعلة؟ هل يمكنها وتحت وطأة الإحساس بالعجز والحاجة أن تلغي كل ما في داخلها من فطرة سليمة وأن تقذف بكل ما تعلمته وتربت عليه من أخلاق ومُثل وتنغمس في هذه الرذيلة؟ يحتضن قفصها الصدري قلبًا يردد في رجاء "يارب علمني الحيطة قبل الوقوع والتثبت قبل الحكم، اللهم اجعلني دائمًا على بيّنة "..

بتر صوت هيام على الهاتف حيرتها.. "**آلو توتي، إنتِ سمعاني، أنا مقصدتش أخوفك ولا عايزة آخد منك حاجة بالعافية، أوعدِك هبسطِك وهاخدِك واحدة واحدة وعلى مهلِك، إنتِ عجباني وصعبانة عليا وعيزاكِ تتمتعي بشبابك وبجمالك وصدقيني مش هخليكي عايزه حاجه، ألـــو... ألـــو... إنتِ ساكتة ليه؟؟**

نظرت بتيلة صوب النافذة فتعامدت أشعة الشمس الذهبية على وجهها الأملس وسقطت من عينيها الناعستين دمعات

مترقرقة تبعتها تنهدات حارة تُجزم أن الغروب لابد أن يتبعه شروق مهما طالت ساعات الظلام، لا يمكنها أن تمنح جسدها لهيام أو غيرها، لا يمكنها القبول بالخطأ والحرام، لا إعوجاج في نفسها ولا شذوذ في طبعها، أغلقت الهاتف في صمت، ضغطت زر المُكيّف لتأتيها نسماته الباردة في استرسال، عادت تسترخي على الكنبة يملؤها شعور مفرط بأنها لا يمكن أن تُفرط في آدميتها، لا يمكنها أن تصير امرأة ملوثة حتى لو استقرت على فوهة بركان زمنًا لا ينتهي؛ فروحها الحلوة لن تختنق مهما حاوطتها الأقدار بما هو عَفِن، ستتظاهر أنها خرجت للتو من كتاب للحكايا الخرافية، وستستودع حاضرها وقادم سنواتها بين يديّ الله، واثقة في جبره لخاطرها و لزهرة شبابها بما يليق بطُهرها وعِفتها..

تمت

(٦)

نقسو على أنفسنا حين نترك
عواطفنا تجف بالعناد ثم
نحرقها بنار الكآبة
واللامبالاة

أغـــداً ألقـــاك؟

استيقظت مبكرًا وقبل أن يُصدر منبه هاتفها المحمول المستقر على الكومودينو بجوار سريرها تنبيهه اليومي المعتاد في الخامسة صباحًا، السماء مازالت رمادية اللون تتلَحف بظلام يسحب أطرافه ببطء واستحياء، نهضت" تميمة"من نومها كعادتها كل صباح يسترجع عقلها في تكاسل واجباتها اليومية وما يتوجب عليها القيام به حسب جدولها اليومي المُعد من الليلة السابقة رغم ضآلة مسئولياته حاليًا، تثاءبت وهي تزيح عنها الغطاء ثم مسحت بيديها على وجهها في محاولة منها لإزالة بقايا نعاس علق بقسمات وجهها الجميل ثم غادرت إلى الحمام في روتين مهندم.

رجعت إلى غرفتها حاملة كوبها المفضل من النسكافية وفي اليد الأخرى قرص الضغط الذي يتوجب عليها تناوله؛ فاستقرت نظراتها للحظات على سريرها الخالي قبل أن تشرع في ترتيبه وخطرت ببالها ذكرى تؤرقها فتعجبت من نفسها التي لا تريد أن تنسى ولا تستطيع أن تتناسى!

شتان ما بين إحساسها بهذه الصباحات الفارغة التي تعيشها الآن وتلك التي فارقتها من سنوات لكنها تعجزعن العودة اليها،

تُكبلِّها التجربة وتدميها الذكرى، ففي ما مضى كانت تعود من الحمام على أطراف اصابعها فتبدل منامة النوم في حذر وترتدي فستانًا صباحيًا مشرقًا بألوان مبهجة وتسوي شعرها المشعث على ضوء نور الصباح المتسرب إلى الغرفة المظلمة، وتنثر نفحات من عطرها الساحر على عنقها الأملس وباطن كفيها ثم تنسحب بهدوء إلى المطبخ لتبدأ في اعداد طعام الفطور والذي تحرص بشدة على تنوع صنوفه ثم تخرج إلى الشرفة لتسقي الزرع وتقطف بعض أعواد الريحان الذي تحرص على وجوده في مزهرية من زجاج الفسيفساء تتوسط مائدة الطعام وتضع للعصافير طعامها في القفص وتغير ماءها، بينما تنهمك في الحديث مع ببغاءها لبعض الوقت أو تنشغل في نشر الملابس التي أخرجتها للتو من الغسالة التي تركتها تعمل آثناء الليل لتتوقف وتغلق نفسها اتوماتيكيا فور انتهاء برنامج الغسيل، ثم تعود أدراجها إلى المطبخ تضع اللحم أو الدجاج البائت في إحدى تتبيلات تميمة الخارقة التي تجيدها بكل براعة في الميكروويف، تضبط الزمن اللازم لإتمام النضج مخصومًا منه عشر دقائق فقط ليستكمل الصنف نُضجه النهائي قبل تناوله مباشرة وحتى لا يستغرق وقتًا آثناء اعدادها لمائدة الطعام مساءً،

تُسرع بعدها إلى صالة شقتها الواسعة تُشعل بعض أعواد بخور الجاوي الذي تنتقيه بعناية فائقة وخبرة كبيرة ليشع أريجًا مميزًا محببًا إلى النفس كما أن له خصائص تطهيرية للمنزل ويساعد على الحماية من الانفلونزا والربو، تدلف بعدها "تميمة" إلى غرفة النوم على غير حذر فلابد ل "حاتم" أن يستقيظ في موعده ليلحق بعمله، بعدها بثلث ساعة فقط تصب له فنجان قهوته المضبوط ككل ما في حياتهما الأنيقة المنمقة..

وفي الموعد المعتاد، في السادسة والنصف صباحًا يفتح "حاتم" عينيه في تكاسل آمِلًا في عشر دقائق إضافية تحت الغطاء الوثير تسمح له بها "تميمة"، فيجدها أمامه في كامل زينتها وقد أشرق صباحه بابتسامتها الهادئة تحمل كوبًا من عصير البرتقال الذي يفضله هو وتحرص حبيبته على تحضيره له طازجًا كل صباح رغم أنها تكرهه بسبب تلك الإتهابات الشديدة التي يُحدثها في معدتها الحساسة، فيلتقطه من يديها ممتنًا ويلقي عليها تحية الصباح وهو يقبِّل رأسها ويسألها سؤاله المعتاد الذي لم يتغير أبدًا طوال سبعة أعوام جمعتهما كزوجين: **متى صحوتِ تامي؟** وتجيبه وهي تزيح الستائر الثقيلة من على زجاج شرفة الغرفة ليشرق الصباح جليًا في آنحاء غرفتهما الوردية ثم تشعل عودًا من

البخور وهي تتمتم بآيات من القرآن الكريم وتقول نفس إجابتها التي عادة لا تتغير: **في الخامسة يا تيمو.. انهض يا كسلان.**

فيبتسم حاتم مُشيدًا بحيويتها ومهارتها في تنظيم الوقت وبراعتها في الإلتزام بجدول أعمالها وتوقيتاته مهما كانت مزعجة، وأحيانًا يخالط إعجابه بشئ من المشاكسة المرحة فيقول: **أتمنى أن تتوقفي عن النوم في العاشرة كالأطفال، إنها عادتكِ السيئة يا أميرتي..**

دقائق قليلة بعدها يتوجه "حاتم" إلى الحمام الجاهز والمُعد سالفًا لإستقباله، وتضج الشقة التي كانت صامتة بالحركة والنشاط حين تفتح "تامي" المذياع على ترددٍ ثابتٍ دومًا فتأتي أغنيتهما المفضلة لكوكب الشرق "يا صباح الخير يا اللي معانا يا اللي معانا.. الكروان غنى وصحانا وصحانا "بينما يلتقط الحاتم بعض البسكوتات الخفيفة ليضعها في فمه حتى تسمح له حبيبته بتناول قهوة الصباح، يلوك البسكوتات في همة، ثواني بعدها ويرتشف فنجان القهوة المضبوط وهو يرتدي بذلته وملابسه الرسمية لتأتي تميمة وتثبت بيديها الدبوس الخاص بشعار الشركة التي يعمل فيها حاتم في مكانه المخصص ثم يتوجهانِ معًا لتناول الأفطار والإستمتاع ببعض اللحظات الدافئة قبل الهرولة للحاق

بالحافلة المخصصة لشركته والتي تأتيه تحت العمارة في موعدها اليومي" السابعة والنصف تمامًا"

وبعدما يخرج الحبيب إلى العمل تُعيد "تامي" الأطباق والأكواب الفارغة إلى المطبخ وتنظف ما قد استجد من أواني الإفطار وتضع "خضار الغداء" في الميكرويف لينضج ثم تتناول كوبها الثاني من النسكافية وهي تُهندم غرفة النوم وتنثر بعض النفحات من معطر الجو في آرجاء الشقة وتعود أدراجها إلى المطبخ للتأكد من تمام تسوية طعام المساء، ثم تلتقط هاتفها المحمول تلمس شاشته بفرح وتُجري اتصالًا، ليأتيها صوت والدتها مُجيبًا بحنان: **صباحك رحمة ونور من الرحمن يا قلب أمك**.. تبتسم "تميمة" فقد أشرق للتو نهار قلبها لفرط حبها الشديد المتوغل في عميق القلب لوالديها، وما تلبث أن تنخرط في حديث ودود مع أمها يتبادلانِ فيه أخبارهما الدقيقة؛ ف"تامي" لا تخفي شيئًا عن أمها الحبيبة، هي موطن سِرها وأمين صندوق مشاعرها وصديقتها الصدوق، ولا يقطع حديثهما سوى دقات المحمول التي ضبطته تميمة على الثامنة حتى لا يسرقها الوقت بسحر الحديث ويُنسيها موعد عملها؛ فتُنهي المكالمة مع وعد أن

تتصل بوالدتها ثانية آثناء الربع ساعة المخصصة للإستراحة في مكتبها "بريك تايم"؛ فتنهي الأم المكالمة بسيل لا ينقطع من الدعوات الجميلة لأبنتها الأجمل، تهرول بعدها "تامي" لتُبدل ملابسها وتستبدلها بثياب كلاسيكية ذات ألوان حيادية أنيقة وأمام مرآة المدخل تسوي شعرها ثانية وتحمل حقيبتها الصغيرة وتستقل سيارتها مغادرة إلى البنك حيث تعمل..

وبمرور الأيام صار ذاك هو جدولها اليومي الذي تنفذه بتعود ودقة وكثيرًا ما سألها حاتم: **لما تستيقظين حبيبتي في الخامسة فجرًا وعملكِ يبدأ في الثامنة والنصف؟ لما لا تشاركيني السهر ليلاً وتؤجلين أمور المنزل الى ما بعد عودتكِ من العمل؟** فتأتيه إجابتها الهادئة في مودة بأنها تعود إلى المنزل في السادسة أو السابعة مساء حسبما تقتضي مصلحة العمل، لو فعلت ذلك فسوف ينقضي الوقت في المساء دون أن تُنهي كل ما يتوجب عليها ولن يتمكنا من تناول وجبتهما الأساسية ساخنة في موعدها في "الثامنة" تمامًا وسيخسران الإنضباط المشهود لهما به في الحمية الغذائية التي يتبعانها سويًا للحفاظ على صحتهما النفسية والجسدية، فلقد اتفقت آهوائهما

منذ بداية الزواج على عدم تناول أي شئ بعد الثامنة حتى لا يكتسبا بضعة كيلوجرامات لا حاجة لهما بها، بينما يكتفي حاتم بعلبة زبادي فاكهة تضعها تميمة أمامه على طاولة غرفة المعيشة يتناولها في سهرته بعدما تذهب "تامي" إلى النوم، كما أنها تحرص وبشدة على ألا تضيع أمسيتهما وألا يشغلها عنه شاغل طالما كان حاضرًا معها في البيت، لقد اعتادت منذ تسلمها العمل في البنك على النوم مبكرًا والإستيقاظ مبكرًا أيضًا، لا يؤرقها وصفه لها بأنها تنام مع الأطفال إنما ما يعنيها حقًا هو العناية بكل صغيرة وكبيرة تخصه؛ فلا يشعر أبدًا بتقصيرها في حقه، يهمها أن تثبت له ولنفسها جدارتها في القيام بواجباتها كزوجة مُحبة لرجل عشقته عامين كاملين وكان سرها الوحيد الذي خبأته بين حنايا القلب قبل أن يجمعهما سقف واحد، وغايتها أن يصل هذا الحب وهذا الإهتمام إلى عميق قلبه حتى وإن بدا له الأمر مُرهقًا أوغير مفهوم، كما أن عملها صباحا في البنك لا يتناسب مع حالة تشتت الذهن وبلادة العقل التي ستُعانيها إن طالت ساعات سهرها ليلًا، لقد لاحظ بنفسه إرهاقها وحالة النسيان التي عانت منها طوال ثلاثة أشهر كانت تُجبر نفسها خلالها على السهر معه وتهرب من موعد نومها في العاشرة، إن الحياة الزوجية تتطلب هذه المرونة في

التفكير والتصرف وتغيير بعض العادات ونمط المعيشة حتى يتمكن الشريكان من حماية حبهما من روتين الزواج فلا يصيبهما الملل والتبلد بتتابع السنوات، تعرف جيدًا أنه لا بشر ينال كل شئ، فعليك تقبُّل خسارتك شيئًا لتكسب آخر، هذا هو الناموس والمنطق الذي تفهمه تميمة وقد تطبعت عليه..

إلا أن مللًا ورتابة قد أصابا "حاتم" بالفعل من براعة تميمة ونشاطها والتزامها الكامل بجدولها وقدرتها اللامتناهية على تنسيق كافة أمور حياتهما، ضبط نفسه متلبسًا بتمني إخفاقًا يُصيب حبيبته، إخفاقًا بسيطًا يُعيدها الي سيرتها الأولى فتأتيه على حياء تُطالبه بالتصرف، إنها وحدها القادرة على تسيير كل شئ وأي شئ في أي وقت ومهما كانت الظروف، يشتاق إلى ضعفها وحاجتها، تتوق نفسه إلى ليلة غريبة مثيرة، حافلة بالغرائب والمفاجآت، خارج إطار الجائز وما يسمح به الوقت، حاول مرارًا أن يُمرر مللله إليها وهي الذكية بالفطرة، لعلها تلتقط طرف الخيط، ورغم إدمانها للنظام إلا أنه ظل يُشاغل ميلًا للتغيير وكسرًا للرتابة كانت تُعلِنه بين حين وآخر، فمازالت زوجته في الخامسة والثلاثين ومازال هو في السابعة والثلاثين، إنها "أجمل سنوات العمر"،

أين تلك الإهتمامات الثقافية وحب الفن والشعر التي جمعت بينهما حين تعارفا من خلال اللجنة الثقافية للنادي الإجتماعي الذي ينتميانِ إليه؟! لقد كانا أهم أفراد "العصابة" المترابطة التي تكوَّنت هناك بين جدران النادي الاجتماعي منذ اثني عشر عامًا، عصابة تشكلت من بعض الصحفيين والشعراء والفنانين التشكيليين يمضون سهراتهم معًا في بيت أحدهم فيغني أصحاب الصوت الجميل منهم وكانوا ثلاثة منهم "آيات" التي صارت مطربة محترفة الآن، كما كان يعزف على العود من يُجيد العزف و"حاتم" كان أمهرهم في ذلك، ينطلق صوته يشدو ببعض أشعاره الثرية بالمشاعر فيصرخ الجميع طلبًا للمزيد إذا توقف، ولا يُنافس روعة دندنته سوى عزف صديقهم حضرة الضابط "مجدي" على الكمان، وكان من بينهم ايضًا مدير تصوير بالتليفزيون ومذيع في الإذاعة، أما "تامي - تميمة" فقد كانت قارئة نهمة بدرجة أديبة، يمضي الجميع وقتًا سعيدًا مستمتعين بصحبتها وبالغناء والعزف وإلقاء الشعر الذي يكتبه بعضهم وبالمناقشات الأدبية والمُراجعات القيمة التي تنظمها تميمة، ما أجمل تلك السنوات الصاخبة التي تضج بالحركة والحيوية والقفشات الضاحكة، كانت العصابة لا تُلبي دعوة أحد للعشاء أو

السهر إلا إذا كان كل أفراد الشلة مدعوين وإلا فسوف يسهرون وحدهم في بيت أحدهم..

لماذا لم تكن "تامي" آنذاك حريصة على جدولها ومواعيد نومها واستيقاظها وهي التي لم تكن لتفارقهم أبدًا ولم تتغيب مطلقًا عن إحدى تلك السهرات أو الاجتماعات، كانت قد تخرجت للتو من كلية التجارة واستطاعت بمساعدة أحد معارف والدها أن تتعين في وظيفتها بذاك البنك الشهير، الأكبر في الشرق الأوسط، ولطالما كانت تُعلن للعصابة عن ضيقها بأعمال المحاسبة التي فرضتها عليها الوظيفة وأنها تنجذب بشدة إلى جوهم البوهيمي، بل وتدعوهم كل شهر إلى العشاء والسهر معها في بيتها ووسط والديها، فتبدأ السهرة بالسمر ثم عزف مجدي وغناء آيات ثم تنتهز تميمة الفرصة التي تنتظرها بشغف من بداية السهرة لتحدثهم عن كتاب قرأته أو رواية قد أعدت لها تلخيصًا، فينصحها بعضهم بإستغلال مهارتها وتركيز قدراتها في كتابة رواية ويبصم لها جميعهم على نفاذ طبعتها الأولى في أقل من ستة أشهر..

أين اختفى ذلك الحماس؟ ولِمَ اندثر ذاك النبع من التوهج؟، كيف تبخرت نشوتها بما تجده من مديح وكيف فقد

عقلها كل ذاك النبوغ؟! كيف صارت حياتها أرقامًا؟ وانتهت آمنياتها إلى مُعادلات تجتهد فيها لتحقق التوازن المطلوب بين حياتها الزوجية وما تفرضه عليها من واجبات وبين مهام وظيفتها والتي لا ينكرأحدٌ تألقها فيها وإثباتها لإستحقاقها مكانتها الحالية بمجهودها الشخصي، فقد صارت "رئيسة قسم حسابات القروض" في الفرع الرئيسي للبنك العريق؟ مجهود جبار تبذله تميمة يستنفذ طاقتها ولولا كثير من إصرار ومثابرة تملكهما روحها القوية لما استطاعت سبيلًا.

يحبها حاتم ويشفق عليها، يملؤه غيظ من فرط نشاطها وثباتها، إنه يريدها "تامي" التي عرفها من اثني عشر عامًا، تامي الممتلئة بالضجيج المتجدد، المُغرمة بالنشوة الحاذقة التي يتحقق له معها كل استمتاع بكل جميل خلاب..

مازال يتذكر جيدًا ليلة رأس السنة من ثمان سنوات مضت، كان مجدي الموسيقار بالفطرة قد حجز الشلة منذ وقت مبكر وأقسم عليهم بالسهر ليلتها في شقة خاله بمنيل الروضة وقد لبوا جميعهم دعوته، فالخال" محمد السُّكري" خفيف الظل، دمث الخلق، إنه رجلٌ مُقعد يستخدم كرسيًا متحركًا للحركة، لكن

عجزه لا يؤرقه ولا يمنعه من الإستمتاع بحياته بالقدر الذي تُتيحه له إعاقته، بطل سابق من أبطال نصر أكتوبر المجيد ضمن سلاح المشاة، عرفته الشلة من خلال "مجدي" وأحبه أفرادها جميعًا، فحكاياته الشيقة عن ملحمة أكتوبر، نصر "العزة والكرامة" لا تنتهي وحضوره طاغ لا يُقاوم، وفي جو من الرومانسية المبهجة وفي حضور أفراد العصابة اعترف مجدي بأنه يعيش قصة حب متوهجة مع "آيات" وأنهما قد تعاهدا على الزواج في عيد ميلادها القادم منتصف مارس، وقد أرادا أن تكون سهرة ليلة رأس السنة هي اعلانًا رسميًا عن حبهما للأصدقاء، كم كانت سعادتهما موضع حديث العصابة كلها، لقد اتفق الجميع على شراء هدايا قيّمة وثمينة تليق بالعاشقين، وتبرعت "تامي" بحجز وتنسيق رحلة شهر عسل رائعة بمثابة هدية من الشلة للعروسين، فلم يمض أسبوع حتى توفي "مجدي" في حادث مروع إثر إنفجارعبوة ناسفة في الكنيسة المُكلف بحمايتها في مناوبته المسائية كضابط شرطة، وفي لمح البصرغدا العاشق الشاب ضحية من ضحايا ذاك الحادث الأرهابي المؤسف وانفجرت دماؤه الطاهرة تلطخ جدران الكنيسة مع غيرها من دماء الأبرياء وسط ذهول وحزن

عميق سكن قلوب مُحبيه واستوطن الألم والوجع قلب محبوبته التي سقطت فريسة سائغة للإنهيار العصبي الحاد واُدِعت إحدى المستشفيات تحت العلاج ومُنعت عنها الزيارات نهائيًا لفترة ليست بالقصيرة..

و باستشهاد "مجدي العقاد" انفرط عقد الشلة وتبعثرت حباته هنا وهناك وتفرق الآصدقاء، وما عادت هناك لقاءات تُعقد ولا سهرات تُحيا، وانشغل كل منهم في دائرته الخاصة وأخذتهم دوامة الحياة وشواغلها الطاحنة بأقصى سرعة وانجرف كلٌ في طريقه وصارت "الشلة" ذكرى مرتبطة بالألم والحزن على فراق "الشهيد مجدي العقاد" ومرض آياتِه..

عام بعد ما كان وتحديدًا في ليلة رأس السنة ايضًا أقيم حفل أنيق هادئ على متن باخرة نيلية وبحضور الأهل والمعارف ومن إستطاع الحضور من أفراد العصابة، تزوج "تيمو وتامي" ولم تستطع آيات حضور الحفل واكتفت بإرسال باقة ورد كبيرة إلى جناح العروسين في الفندق الكبير حيث يبيتانِ ليلتهما الأولى مهنئة لهما على الزفاف السعيد معتذرة عن عدم الحضور، ثلاث

سنوات مضت ثم جاء لقاء حاتم مصادفة بها، كان مدعوًا على حفل عشاء فاخر في إحدى الفنادق الكبيرة مع وفد أجنبي جاء لزيارة الشركة الإستثمارية التي يعمل بها كمدير تنفيذي لقسم المشروعات، لمحها حين دخلت ترتدي فستان سهرة أحمر فاخر جدًا وتضع فراءً أبيضًا على كتفيها المكشوفين ومعها رجل فخم المنظر، ذو هيبة عُرف فيما بعد أنه زوجها حين وقفت في بهاء ملبية دعوة مقدم البرنامج الساهر الذي سألها أن تتكرم على الحضور بغناء بعضٍ من أغنياتها الشهيرة والتي لاقت استحسانًا كبيرًا ورواجًا أكبر في الفترة الأخيرة، فتقدمت "آيات" إلى دائرة الوسط في القاعة وهي تمسك بإصرار يد الرجل الفخم وقدمته لجمهور الحضور فهو الغني عن التعريف "الأستاذ فهمي أبو الرُكب" منتج الألبومات الغنائية المشهور وصاحب إحدى القنوات الفضائية الشهيرة، إنه زوجها الذي تعشق تراب قدميه!

التقت عينا حاتم ب "ورد" المطربة المشهورة وتعجّب مما آلت اليه أمورها، صارت "آيات" وردًا، بدتْ محرجة من هيئتها، تنتظر من حاتم ألا يحرجها أكثر بنظراته القاسية التي أمطرها بها، ظلت واقفة وكأن على رأسها الطير حتى انصرف "تيمو-

الصديق القديم" من القاعة ثم شرعت تغني بصوتها الصاخب وتملأ الدنيا بنغمات سعيدة راقصة وكلمات مبهجة عن الحب والحبيب والإخلاص والوفاء بينما انكمش الطرب الأصيل فيها واختفت قصائد الشعر من أغانيها، أحس حاتم الذي كان واقفًا على باب القاعة ينفث دخان سيجارته في غضب لا يعرف له سببًا أنها لا تغني استمتاعًا كما كانت تفعل في الأيام الخوالي "أيام العصابة" إنما تغني وحسب..

انتهى من سيجارته وعاد مضطرًا إلى القاعة حيث ضيوفه الأجانب، لاحظ أن آيات أو ورد قد فسد ذوقها الفني إلى حد بعيد، أشفق عليها من ضيقٍ انتابها وعصبية ظهرت في كلماتها وإشاراتها لقائد الفرقة الموسيقية حين طالبها أحد رواد القاعة بغناء أغنيات لمطربة أخرى مُنافسة كانت في يوم ما زوجة لزوجها المنتج الكبير، تجاهلت "ورد" رغبة الطالب وعاملته بخشونة ثم واصلت الغناء بلا مزاج وهي تحاول جاهدة رسم ابتسامة سعادة على وجهها الباهت.

ليلتها أخبر تميمة عن لقاءه الغير مرتب بصديقتهما القديمة وكيف صارت وإلى ما انتهت إليه كزوجة حالية في طابور زوجات

لا ينتهي لرجل المال الكبير "فهمي أبو الركب "، لقد خانت آيات مجدي، نعم لقد خانته!!

هكذا مرر حاتم الخبر إلى تامي وهو يلعن بداخله النساء ثم التفت إلى زوجته الحبيبة يسألها في استنكار: **هل ستتزوجينَ غيري إن أنا مت؟**

فأسرعت تضع كفها على فمه تمنع كلماته تلك، فأزاح كفها وعاد يكررعليها سؤاله بعناد، فقبلته بشغف ثم قالت: **أدعو الله في كل صلواتي أن أموت قبلكَ حبيبي.. انس ما رأيته اليوم من ورد أو آيات، فلا ندري ما مرت به المسكينة أو ما دفعها للزواج من ابن أبو الركب.** وكعادته حاول حاتم التغلب على إحساسه بالضيق الذي يخشاه، وأسرع يفتش عن فيلم أجنبي يشاهده في السهرة بينما أسرعت تامي تُحضّر طبقًا كبيرًا من الفشار بالجبنة لزوم السهرة، تعرف جيدًا أن حاتم يكره الحزن بل يخافه ويخاف الموت جدًا ويُرهِبه التفكير فيه، جلسا معًا أمام شاشة التلفاز وقد حرصتْ على أن يشاهدا فيلمًا كوميديًا، احتضنته بقوة كأنه ابنها الذي تُخفيه عن العالم، كانت عيناه ملتصقتين بالشاشة بينما كان عقله منصرفًا إلى أيامهم السابقة، "أيام العصابة وشلة الأنس" يلعن آيات في سِره عشرات المرات ويترحَّم على مجدي عشرات أُخر..

دارت عجلة الأيام وانخرط الزوجان في شواغلهما الروتينية، أما في العطلات الأسبوعية فكانت "تميمة" تتجه إلى منزل والديها كعادتها التي اتفقت مع "حاتم" عليها كأمر نهائي لا يقبل المفاوضة أو المساومة، فبانتهاء العمل يوم الخميس تعود إلى بيت أسرتها لتقضي ليلتها هناك في أمسية عائلية تنتظرها بلهفة كل أسبوع.

تبيت هناك في غرفتها التي بقيت على حالها واحتفظت لها والدتها فيها بكل ألعابها ودُماها منذ أن كانت طفلة، تفطر مع والديها بعد صلاة الجمعة فول مدمس بالطحينة وبطاطس محمرة وسلطة بابا غنوج لا تُقاوم من يد ست الحبايب، ثم تُنازل والدها على رقعة الشطرنج نزالًا لا رحمة فيه، وقُبيل العصر تطهو لهما ما لذَّ وطاب من الأطعمة ليكفيهما خلال الأسبوع كله ثم تُودع والديها وتخرج لتلتقي بزوجها العزيز في تمام التاسعة مساءً في إحدى دور السينما أو المراكز التجارية الكبرى ليبتاعا ما يلزم منزلهما الصغير، يعودان بعدها وقد تجدَّدت طاقتهما وامتلأت نفسيهما بالرغبة والأمل في أمسية هانئة بسيطة يستمعانِ فيها إلى الموسيقى أو يشاهدانِ فيلمًا قديمًا أو مسرحية كوميدية، ارتضى حاتم هذا الإتفاق وقبِلَه بصدر رحب خاصةً بعد وفاة "أحمد" الشقيق الوحيد لزوجته الرقيقة، كان شابًا طيبًا، سريع البديهة،

حلو المعشر، لم يستطع الحصول على وظيفة مناسبة حال تخرجه في كلية الآداب؛ فشرع يشغل وقته بالعمل التطوعي والخدمة المجتمعية من خلال إحدى الجمعيات الخيرية التي تفيض بإعلاناتها شاشة التلفاز، شيئًا فشيئًا انخرط الفتى كليًا في تلك الجمعية ونشاطاتها، وقلَّت هِمَّته في البحث عن عمل مناسب، وأصبح من الدارج والمألوف أن يتغيَّب عن البيت ثلاث أو أربع ليال أسبوعيًا، سأله والده عن سبب تغيبه، فأجاب بأنه قد كُفِئ من قِبل الجمعية وأصبح مسئولًا عن ملف جمع التبرعات المالية من بعض الفنانين ورجال الأعمال والمشاهير المُهتمين بالأيتام والمساكين وأن الجمعية قد خصَّصت له راتبًا كبير نوعًا من باب أنه من العاملين على الزكاة ليصرف النظر عن البحث عن وظيفة ويتفرغ تمامًا لآداء المهام المُوكلة إليه ومنها السفر إلى بعض المحافظات للإشراف على حملات التوعية ومتابعة الأمور الهامة التي تحتاج إرسال من هم مثله من "أهل الثقة".

لم تفارق البسمة وجه أبيه حين سمع ما سمع من ابنه الشاب وفلذة كبده، لكنه بات يفكر كيف لأحمد الطموح، خريج الآداب قسم إعلام أن يوقِف حياته على جمع التبرعات وكفى، كانت بسمة استنكارية تحمل من المعان الكثير والكثير، ليس تقليلًا ولا

سخرية من العمل المجتمعي إنما خوفًا على ثمرة عمره من يأس أصابه فنسى شهادته وطموحاته في التدرب في ورشات إعداد مُقدمي البرامج والإعلامين حتى يتسنى له العمل في إحدى القنوات الفضائية لطرح هموم ومشاكل الفقراء والكادحين والمظلمومين، نسى أحمد الماجستير والدكتوراة وأهداف أخرى كثيرة تأجلت كلها بل مُحيت من قائمة حياته، فإذا به ذات يوم يُفاجئ أسرته بقبوله السفر إلى تركيا في مهمة تخص الجمعية، وأقسم لهم أن غيابه لن يطُل عن شهر واحد، ليعود بعدها ليخطب "عائشة" الإبنة الصغرى لقائد فريقه التطوعي الشيخ "مسعود التهامي"، وفي هدوء تام فتح الباب ليرحل دون أن ينتظر موافقة والده ودون أن تستوقفه دمعات حارة انسكبت من عينيّ والدته ودون عناق عميق كان دومًا طريقته في توديع شقيقته الغالية، انصرم الشهر وصار ثلاثًا ولم يعُد أحمد، كما انقطعت مكالماته الدولية، مرضت والدته ووهِنت صحتها ولازمتها تميمة، وراح أبوه وزوج أخته يتحسَّسان أخباره ويفتشان عن الشيخ "مسعود" الذي اختفى من الحي كله بل أنه قد تبخَّر تمامًا بعد رحيل أحمد بخمس أسابيع، وذات ليلة وبعد آذان الفجر فوجئت العائلة بزائرغريب يطرق بابهم ويُعرف نفسه كزميل

للشيخ "أحمد" في الجمعية ويضع بين يدي والده "جهاز تابلت" تحمل شاشته صورة لأحمد مُلقى على ظهره وقد طالت لحيته وتشعث شعره المهندم واستقرت طلقة شرسة في منتصف جبهته كما غطَّت وجهه جروح وكدمات وبعض ندبات، جاءت الصورة المؤلمة لتعلن بجلاء وفاة أحمد، لكنها مُعنْونة بخبر إستشهاد الأمير "أبو ذر الغفاري" إثر اشتباكه مع قوات الجيش في سوريا، ألف علامة استفهام وألف سؤال دارت في رأس الأستاذ عمران، لقد سافر أحمد إلى تركيا، فمتى رحل إلى سوريا؟ اسمه أحمد عمران، فمتى صار أبو ذر؟ ومتى غدا أميرًا؟ كيف ومتى ولماذا؟

تعالت أصوات البكاء عندما خرج الأستاذ عمران بالخبر على زوجته وإبنته، صارت الأم ثكلى وفقدت وعيها في ذات اللحظة التي أمسك فيها عمران بتلابيب الزائر وصار يجره ليذهب به إلى قسم الشرطة، لكن سقوط زوجته وصياح ابنته هلعًا على أمها أربك الرجل وشغله عن الإحتفاظ بتلابيب الزائر الذي فاجئ عمران بضربة على رأسه ترنح على إثرها وسقط متألمًا إلى جوار زوجته البائسة ولاذ الضيف بالفرار، بينما جلست "تميمة" أرضًا بين والديها تحتضنهما بشدة وهي تبكي بحرقة، كانت المرة الأولى التي تبكي فيها على هذا النحو، أسرع

الجيران إلى شقة أستاذ عمران على أثر الجلبة وأصوات البكاء وصرخات تميمة في مشهد لم يُمح من ذاكرة الجميع إلى الأبد..

ثم مضت الشهور والسنوات وانشغل "حاتم وتامي" معًا في محاولات كثيفة مضنية لتحقيق حلم الإنجاب الذي يراوض تميمة ويشغل عقلها وقلبها، تأخُر الإنجاب مسألة كادت تقتل تامي بينما لم تشغل بال حاتم أبدًا، فهو راضٍ بالحال، يعشق إستمتاعه بحياتهما الهادئة الناعمة بلا ضغوط ومسئوولیات الأطفال الكدرة التي يرى ويعرف عنها الكثير من شقيقه الكبير، الطبيب صاحب الثلاث أطفال والذي تُهلِكه متطلباتهم وتحرمه مسئوولیته تجاههم من أي راحة أو أجازة ولا يمنحه وجودهم أي فرصة لالتقاط الأنفاس والإستمتاع بمباهج الحياة، فعليه دومًا توفير طعامهم وشرابهم وملابسهم، علاجاتهم إن مرضوا لا قدَّر الله، ومصاريف مدارسهم ودروسهم كما أن زوجته قد تغيَّر شكلها وزاد وزنها وقلَّت حركتها وانطفأ حماسها إلى أي تجديد وانصرفت عنه كليًا إلى رعاية الصغار، وصارت حياتهما رتيبة جافة بلا أمل في انفراجة قريبة، وبعدما كانت لياليه سمرًا بريئًا

وجولات ساهرة على مقاهي روض الفرج حيث يسكن أصبحت معظم ساعات يومه عملًا متصلًا لابد من الإستمرار في دوامته حتى يستطيع توفير ما تحتاجه أسرته التي بدأت بفردين ثم تمدَّدت لتصبح خمس أفراد في أقل من عشر سنوات..

جاءت تقارير الأطباء حول فرص الإنجاب صادمة، ف"تميمة" تعاني من مشكلات طبية جسيمة والتصاقات وعيوب خلقية في قنوات فالوب تقلل كثيرًا من فرصتها في تحقيق حلم الأمومة، ساندها حاتم كثيرًا وعزَّز من قدرتها على التحمل والمثابرة على العلاجات بروتينها وسخافاتها، فأجرت ثلاث عمليات نسائية آملًا في تحسين الوضع ثم جاء التقرير النهائي للجنة الطبية المشرفة على حالتها ليصدم الزوجين بصعوبة حدوث الحمل رغم كل ما أُجْرِيَ، صعوبة تصل إلى درجة "الإستحالة" لتنهار تميمة ويجافيها النوم لأسابيع طويلة رغم استعانتها بمهدئات الأعصاب؛ فتغيب في النوم لساعات قليلة لتصحو بعدها أكثر كدرًا وأعمق ألمًا وهكذا حتى اصطحبها حاتم في رحلة عمرة خلال شهر رمضان المبارك لعل أعصابها

المشدودة تسترخي وتهدأ بالًا، وهناك وحول الكعبة أثناء الطواف أقسم لها أن مسألة الأطفال لا تعنيه، ولا يقلل حرمانه منهم من حبه الشديد لها ولا يُنقص من مشاعره شيئًا، وإنه ابدًا لن يكون زوجًا لغيرها من أجل كلمة "بابا"، استغرق الأمر عامًا كاملًا من عمرهما لتهدأ تامي وتتقبل الأمر صاغرة، تتظاهر بالرضا حتى لاتزيد المسألة قتامة، تنشغل باهتمام كامل ومنظم بحاتم وبكل ما يخُصه، وتوقفت محاولاتهما للإنجاب ليتركا الأمر برمته إلى مشيئة الرحمن كما توقفوا عن إجراء عمليات الإخصاب والتلقيح المجهري المجهدة والحارقة للأعصاب بعد فشل أربع محاولات قضت على كل مدخراتهما وأتت على الأخضر واليابس ليقررا الإستسلام والإيمان الكامل بالقضاء والقدر بغير حاجة إلى المزيد من الأدوية والإبر والمنشطات وإجراءات الحقن المجهري وتوتراته وجداوله وترتيباته المسبقة، ثم انخرطت تميمة في عملها وحياتها في إصرار لتتناسى شقاء الحرمان من الأمومة وآلامه الموجعة لأي أنثى..

وانتهى الحال بالزوجين العاشقين "تيمو وتامي" إلى تجاهل الأمر؛ فما عادا يناقشانه ماداما ليسا مسؤولين عن تحقيقه ولا دخل لهما في حدوثه أوعدمه..

لكن يبدو أن الحياة لا تستمر على موجة واحدة إنما تهوى أن تضرب القلوب الهانئة ضرباتٍ متلاحقة موجعة لتُدميها، ففي عام واحد تحدث كارثة مصرفية في فرع البنك حيث تعمل "تميمة" ويُحول عدد لا بأس به من مديري الأقسام إلى النيابة الإدارية للتحقيق معهم وفي نفس الشهر يتوفي والد تميمة وهو ساجد يصلي العصر ويدعو لوحيدته بالنجاة من كربتها، ثم تلحق به والدتها إثر إصابتها بالتهاب شديد ومفاجئ في خلايا المخ يعجز الأطباء عن تفسيره، تلك المصائب التي جاءت تباعًا أفقدت تامي بهجتها وبريقها وامتدت لتطول رغبتها في الحياة أيضًا، أصبحت كئيبة وعنيدة تتسم أفعالها وردودها بالحدة، صامتة شاردة معظم ساعات اليوم، كما صارت قراراتها مفاجئة وغيرمتوقعة، يراها حاتم تصرفات هوجائية بلا منطق ولاغاية، لقد باعت سيارتها وتقدمت باستقالتها من عملها فور انتهاء التحقيق وحفظه، قررت وفعلت دون أن تُعلمه بقرارها ودون أن يتناقشا فيه كعادتهما مع كل ما يخص أحدهما منذ أن وقعا في الحب، كما توقفت فجأة عن الإهتمام به وبأموره، أصبح لا يعنيها وجوده في البيت أوغيابه خارجه لساعات طويلة، دبَّ

الخلاف بينهما وعرف الشجار طريقه إلى عشهما السعيد، ورويدًا رويدًا مات الإنسجام وانفصلت رغباتهما عن مداراتهما المشتركة وصارا عاجزين عن الإستماع إلى بعضهما البعض، كثُر شجارهما وصارحها ذات مرة بحاجته إليها كزوجة أكثر من حاجته اليها كمربية أو مفتشة تقرر له ما يتوجب عليه فعله أو كسكرتيرة تراقب شئونه وتنظمها، يشتاق إلى حنانها ودفئها أكثر من شوقه إلى وجبة ساخنة في الثامنة مساء، يريدها حبيبة تُلهبه لمستها وكلمتها بدلًا من مناهداتها ومشاكساتها التي تحرق أعصابه، يريد أن يحسها، أن يمتزج بها، يهفو إلى لياليهما الدافئة حين كان يتكلم فيخرج صوته من حنجرتها هي، يُقدِّر حزنها لكن الحياة تستمر ولا تتوقف على أحد أو من أجل أحد، لم تقل شيئًا، ظلَّت صامتة للحظات، ثم انفجرت باكية تلعن أنانيته وجبروته، وتتهمه ببلادة الإحساس، كيف يُنكر عليها ألمها ووجعها وحزنها العميق على والدين هي ابنتهما الوحيدة، يستخف بشعورها بالمهانة حين شكك رؤساءها في أمانتها وذمتها المالية؟ أين مشاركته لها؟ أين تفَهُّمه لمُصابها وتقديره لعجزها وشعورها بالوحدة واليُتم والقهر، كيف يغارعليها من حزنها ومن بلوتها

تلك؟ كيف يريدها أن تستمر في عمل أُهينت فيه ولم يحترم أصحابه خبرتها ولا سيرتها السابقة فيه؟ كيف اقتنع باستسلامها وقبولها لفكرة أنها عطِبة وأن حلم أمومتها قد نُزع منها نزعًا لا رحمة فيه؟ كيف وكيف يمكنها قبول تلك الجبال الشاهقة من الجحيم لتستقر كرواسٍ لا تتزحزح عن قلبها، إنها الأنانية المُفرطة التي يتسم بها حاتم، فالألم لا يُرضيه والجزع يُخيفُه ويُرهق أيامه ولياليه..

كاد "حاتم" يختنق، حاول عبثًا أن يرى بوضوح مستقبل علاقته بتميمة، راح يفتش عن اهتماماتها القديمة وأصدقائهما القدامى لعل مفتاحًا سحريًا لدى أحدهم يساعده على فك شيفراتها، فالحياة فرصة يتوجب على المرء الإستمتاع بها... هذا ما يؤمن به ويصدقه ويريد أن يعيشه، ليست خناقة البارحة هي المرة الأولى ولن تكون الأخيرة التي يُعلن فيها لشريكة حياته خوفه على علاقتهما من الوصول إلى طريق مسدود، لكن ليلة أمس فقط كانت ليلة باهرة الوضوح حين بكت "تامي" بين يديه تُعلن أمامه عجزها عن الخروج من دوامة اكتئاب سكنتها، كأنها مرمية من كوكب آخر، ولم تستقر بعد على كوكب الأرض،

تقتلها وحدتها وإحساسها أنها بلا زمان، تحاول التحرر من إدراكها المفزع لعجزها وأن "لاشيء" تملكه، لا شيء حقَّقته، ولاشيء يدفعها لمواصلة الحياة، صارت روحها مفككة، لا تلملم شعثها ذاكرة ولا يوحد تفرقها هدف ولاغاية، يتيمة بلا أبوين، عاقر كشجرة جافة جرداء بلا ذرية، كأنها ممثلة على مسرح إجباري كبير تلعب دور رُسم لها بسخرية وبإحتقار، تتساءل دومًا... يا أنا، أهذا كل شيء؟

فتَّش "حاتم" بإصرار عن رقم هاتف "نادي عز الدين"، صديقهم القديم والذي كان يعمل مدير تصوير في التليفزيون، فوالده شيخ الأطباء النفسيين ويمتلك مصحة ذات سمعة طيبة لعلاج الأمراض النفسية والعصبية، أراد استشارته في حالة "تامي"، وتمكَّن من الحصول على الرقم الجديد لنادي وهَمّ يهاتفه إلا أن الوقت كان متأخرًا؛ فاكتفى بارسال رسالة نصية تحمل رقمه واسمه ورغبته الملحة في لقاء صديقه في أقرب فرصة، وفي الصباح فوجئ برسالة من رقم نادي يبادله التحية والأشواق والسلامات ويعتذرعن إبلاغه بذاك الخبر المؤسف في

أول رسالة بينهما بعد انقطاع طال؛ فقد توفى" الأستاذ فهمي أبو الركب"، زوج ورد أو آيات هذا الصباح، ويدعوه إلى أن يلحق به في العزاء بعد صلاة المغرب في عمر مكرم أو عند "آيات" بعد التاسعة مساءً في فيلا أبو الركب في التجمع الخامس..

وبمجرد انتهاء حاتم من مُطالعة رسالة نادي الأولى له بعد تلك السنوات حتى انفجر ضاحكًا بأسى وعيناه تنطحان بالدهشة المُشفقة التي انطبعت على وجهه، أي صدمات أخرى يا ترى مازالت في انتظار "ورد" الصديقة الصهباء؟! تلك الجميلة التي كانت تشع طاقة وحيوية، لماذا يصفعها القدر صفعات متوالية ليُغيرها من موجة قوية تستطيع ببهجتها أن تصل بسهولة إلى مليون إنسان فتصيرُ موجةً محلية محدودة ومتقطعة بالكاد تصل إلى من حولها؟ ترى ما هي جريرتها ليُعاقبها القدر بعقوباته الموجعة ويمزقها تمزيقًا ؟!

وفي العاشرة مساءً جلس "حاتم" بجوار "نادي" في صالون فيلا "ورد"، فقد جاء عشرات من المعزيين إلى منزل الهانم لآداء الواجب والكل ينتظر دوره ليسلم عليها ويثبت حضوره، أقبل الخادم نحو حاتم وصديقه وأشار اليهما بانتظار الهانم في غرفة المكتب لبعض الوقت بعيدًا عن الضوضاء..

وانتقل الصديقان إلى حيث أشار الخادم، مرَّت الدقائق ثقيلة ثم طُرق الباب وتملَّك "حاتم" الدهشة فقد دخل عليهما صبي صغير في السادسة أو السابعة من العمر، وجهه دائري مشرق ذو نضرة وعيناه في لون حبات البندق تنبعث منهما نظرات هادئة دافئة تسكن القلوب، إنه "لؤي" ابن ورد، هكذا قدَّم نفسه، وما أشد شبه ذاك الفتى المليح بمجدي العقاد، صورة طبق الأصل من الشهيد رحمة الله عليه، نسخة مُصغرة من الفقيد الراحل، ولكن كيف؟

سؤال مُلح هيمن على تفكير "حاتم"، لم يكن بمقدوره أنذاك أن يسأل صديقه نادي الذي ظل يداعب الفتى الصغير مسترسلًا معه دون عناء في أحاديث لطيفة متسلسلة، يبدو أنهما صديقان إلى حد يسمح لهما بمناقشات كتلك في مثل هذه الظروف الكئيبة..

وفي ذات الغرفة وبعد انصراف نادي للعب مع لؤي في غرفة نومه وعلى "جهاز وِي" الجديد، جلست "آيات" أمام "حاتم" تحمل بين يديها صورة فوتوغرافية صغيرة تجمعها ب"مجدي العقاد" الغائب الحاضر في قلبها دومًا.

تخرج الكلمات من أعماقها في استرسال، لم تخجل من الإعتراف بالحقيقة التي أخفتها سابقًا عن اصدقائها كلهم طوال

تلك السنوات ماعدا "نادي" الذي كان على علم بكل ما وقع بينها وبين المرحوم، فقد جلس مجدي رحمه الله ذات مرة إلى "نادي عز الدين" صديقه الصدوق والأقرب إلى قلبه وأفضى له بما وقع بينه وبين آيات وأشهدهُ أنها زوجته أمام الله وأن ما جرى بينهما مسئوليته مما يجعله يُعجل بالزواج من حبيبته الرائعة، فلا يمكنه أن ينتظر حتى يتسلم شقته في مساكن الضباط ثم يفرشها ويؤثثها وهو لا دخل له غير راتبه الحكومي، ثم سأله ذات صباح أن يرافقه إلى مكتب محام معروف في وسط البلد، متخصص في الأحوال الشخصية، لقد تزوَّج "مجدي بفتاته بشهادة "نادي" وشقيقه الأكبر "ضياء"؛ ليحسم أمره ولينتصر لحُبه ضد تقلبات الزمن، فمن يدري ما الذي يمكن أن يحدث في اللحظة التالية وحتى يتمكن من اقناع والده بقبول زواجه من آيات وهو أصغرالأبناء وقد تسلَّم عمله في القسم منذ عشرين شهرًا فقط ومازال يسدد مع والده أقساط جهاز أخته الثالثة، فوالده "موظف سابق "في مصلحة الجمارك ووالدته "ربة بيت" لا ترى الدنيا إلا بعينيّ زوجها "سيد الدار" والذي لا حيلة له إلا معاشه الذي يكفي الأسرة بالكاد، فغلاء المعيشة مقصلة تقصف رقاب الشرفاء، ووالده كان طوال سنوات وظيفته شريفًا عفيفًا، طاهر

اليد، فكيف سيقتنع الوالد أن زواجه السريع على هذا النحو هو قرار مدروس بدقة وصادر عن عقل مفكر واع دون أن يطُل الشك سيرة حبيبته وعِفتها، وفي ظل الظروف المحيطة لم يكن أمامه إلا الزواج العرفي بعقد مسجل حتى تتحسن الأحوال ويتم المراد، ليُقنع والديه بقبول زواجه من آيات وليسكنا معًا مؤقتًا في غرفته في شقة والديه في" السبتية "خاصةً أنها يتيمة الأم، تعيش وحيدة في كنف أبيها، وهو رجل عصبي المزاج صارم، حاد الطباع، يمقُت الحب ويرفضه، فقد لُدغ من جُحر الهوى مرة حين هجرته زوجته بعد ولادة آيات وهربت مع آخر تحبه إلى مكان لا يعلمه الا الله، فاحتسب الرجل مصيبته وكتم على فضيحته وركز كل جهده لينشئ ابنته على كراهية الحب بل تحريمه، فهو "قلة حياء ومفسدة "، فقضت في بيته حياة رتيبة كئيبة ذات نمط عملي خالي من العاطفة حتى طفولتها كانت مكبوتة مقيَّدة، فقد بالغ الرجل في الحزم والشدة والحَيطة من المجهول، ثم اهتزت علاقته بابنته اهتزازًا عنيفًا حين حصلت على الثانوية العامة وأفصحت عن رغبتها في الغناء، فعنفها بشدة وبلغ به الأمر أن ضربها بقسوة فكُسرت يدها واتهمها بالطيش والغباء، فأقامت المسكينة شهرًا عند عمها تُعالج الكسر والكدمات والإرتشاحات الزرقاء

المتفرقة في أنحاء جسدها التي أحدثها بها والدها الغضبان، ثم ما لبث عمها أن أصلح ذات البين بين أخيه وابنته وعادت المياه إلى مجاريها، فقد وافق والدها على التحاقها بمعهد الموسيقى العربية على أمل أن تفي الدراسة بطموحها وتُشبع بالموسيقى هوايتها وتنسى رغبتها الجامحة في الغناء فكذلك نصحه أخوه، فعليه أن يترك لآيات مساحة لتتحرك فيها ذو نافذة نصف مفتوحة تتنسم من خلالها بعض الهواء خشية أن يدفعها الكبت نحو ما لا يُحمد عُقباه.

وبعد وفاة مجدي بأسبوعين وحين كانت آيات تخضع للعلاج من الإنهيار العصبي الذي أصابها اكتشفت أن ثِمة جنين قد سكن رحمها، وتحت وطأة وضعها الشنيع فكرت في أن تتخلص منه إلا أنها تراجعت عن فكرتها وقرَّرت التمسك بتلك الهدية التي تركها مجدي لها، إنه قطعة منه، وإنها حقًا امرأة خائنة غادرة إن هي قتلت ابن حبيب العمر الذي نبت فيها، فأي عذر هذا الذي يجعل حبيبة تركل بقدميها نعمة أهداها حبيبها لها، إن من حقها أن تحتفظ بوليدها من رجل أحبَّته بكل طاقتها، كانت ومازالت متشبعة به، شعرت في شهور قضتها معه تنعم خلالها بحبه وحنانه أنها كاملة حية، أبيّة النفس، وأنها بحبه قد أخذت كل حقها في الحياة، إن جنين مجدي كنزها الثمين الذي لا يُعادله كنز

على وجه الأرض وعليها أن تحميه وتصونه وتدافع عن بقاءه بكل طاقتها، لا سلبية ولا انطواء وتخاذل يُمكنها أن تتعامل بها مع طفلها من رجل هو كل غنيمتها، لا يمكنها أن تقتل مجدي بيدها..

إلا أن مثل هذا القرار كان يتطلب منها توفير الحد الأدنى من الأمان لوليدها القادم، فإختيارها الإحتفاظ به كان نابعًا من إحساسها بأنه تعويض وهدية ربانية منحها المولى إياها، أو ربما كان قرارها صرخة غريزية ضد ألم الفقد ومعاناته وتمسكًا مشروعًا بالحياة على النحو الذي تريده ولو مرة..

بدا الأمر بديهيًا "لنادي" لا يحتاج إلى تفسير، إن آيات لم تمارس حرية الإختيار، إنه قرارعفوي، غريزي، كقرار نفس راشدة سوية أن تعيش لا أن تموت، إن تمسُكها بجنين "مجدي" ليس عبثًا أو جنونًا لكنه حق يحتاج إلى شجاعة تحميه وقوة تظلل عليه، فقد عاشت سنواتها قبل مجدي منغلقة على نفسها وعلى أحلامها بانتظار الزمن الأفضل، لا شك أن فتاة أخرى غيرها كانت ماتزال في الرابعة والعشرين من عمرها وفي مثل ظروفها السوداء ستنبذ حملها وتُسارع إلى الخلاص منه تجنبًا لتبعات إحتفاظها بجنين لن يسامحها العالم حتمًا على وجوده!

وعلى الصعيد الآخر لم تجد "آيات" أي دعم أو مساندة من "ضياء"، شقيق مجدي الكبير والوحيد من أسرته الذي رافقه إلى المحامي ووقَّع كشاهدٍ على ورقة الزواج، إلا أن هذا الإضطراب والجفاء في علاقة ضياء بها لم يزعجها على نحو كبير، فلم تكن آيات تتوقع منه دعمًا أو مساعدة حقيقية؛ فقبيل وفاة مجدي بشهر واحد كان ضياء قد حصل على تأشيرة أمريكا التي حلم بها وسعى اليها كثيرًا، فقد جمع لنفسه عشرة آلاف من الجنيهات كانت كل رأس ماله منذ تخرجه ليعمل في أضيق الحدود في تجارة الأنتيكات والنحاسيات التي تستهوي السُّياح في الغورية وخان الخليلي واستمر في هذا العمل سنوات متناسيًا أو متغافلًا بإرادته عن ليسانس الحقوق الذي يحمله، وعلى قهوة الفيشاوي تعرَّف على سيدة أمريكية في الستين من عمرها، لم يحتج إلى بذل جهد كبير لإقناعها بالزواج منه لتكون السيدة "ماغواير" بوابته إلى فلوريدا، كان "ضياء" يمتلك مخزونًا هائلًا من المفردات الدالة على أنانيته ولطالما وصف أسرته بأنها عرجاء صماء لا تقدم نفعًا، ومع مرور السنوات أصبح من الطبيعي أن ينعدم اعتماد والِده عليه وهو"البكري"، وأن يتفاعل شقيقه الأصغر "مجدي" أكثر

وأكثر في دواخل الأسرة وزواج الشقيقات الثلاث وأقصى ما كان يحلم به هو موافقة والديه الكرام على زواجه من فتاته في أقرب وقت، وهكذا لم يكن بوسع "آيات" طلب العون من ضياء وعلى أية حال فقد رحل مع زوجته الأمريكية إلى حيث أراد ليحتفلا بالكريسماس على الثلوج البيضاء في موطنها الواعد!

اعتمدت "آيات" بشكل كبيرعلى "نادي عز الدين"، الصديق الصدوق والذي كان شاهدًا على الأحداث منذ بدايتها، وتفاعل "نادي" مع صديقته المسكينة وزوجة صديقه الراحل بإنسانية شديدة لم يكن يراها بطولة عنترية، بل شعر بأنه فقط يؤدي واجبه الإنساني ومسؤوليته النفسية تجاه "مجدي وآيات"، وفور خروجها من المصحة النفسية اصطحبها إلى منزل "محمد السكري" خال الشهيد مجدي، فالرجل كان على علمٍ بأمر ذاك الحب الذي جمع بين القلبين الأبيضين واستمع باهتمامٍ وانتباه كاملين إلى بقية فصول الحكاية، لم يلُم الفتاة ولم يحتقرها، لم يُشعرها بأدنى درجة من تأنيب الضميرعلى ما فعلت، بل أنه ساندها في قرارها الشجاع الإحتفاظ بالجنين حتى وإن كان بقاء الطفل سيشكل عبئًا ثقيلًا عليها، وسيُعرِّض مستقبلها للخطر

ويقلل فرصها في الزواج إلا أن أمومتها خير وأبقى ومادام ليس لديها ما تأمله في الحياة سوى ابن مجدي العقاد، فلتُجاهد وتتحمل تبعات جهادها لتحصُل عليه؛ فمعه ستشعر أن كل شئ بخير، وأنها مازالت على قيد الحياة.

أما عن بقية فصول حكايتها، فقد تواصل "نادي" مع عمها وأخبره بالحقيقة كاملة وشدد على نيّة "آيات" بالإحتفاظ بالجنين، واستدرك يشرح للرجل سهولة إثبات نسب الطفل إلى "مجدي العقاد" رحمه الله، فورقة الزواج العرفي المكتوبة لدى المحامي يسهُل توثيقها كما أن قانون الأحوال الشخصية على وضعه الحالي يثبت معه نسب الطفل ويسهُل استخراج شهادة ميلاد له وبالتالي يحق له الإلتحاق بمدارس وزارة التربية والتعليم، فالإبن للفراش، والورقة العرفي اثبات، لم يكن العم يستمع إلى شرح نادي، لم يهتم بالمبررات التي قدَّمها الصديق الشهم الذي تكلف عناء إيضاح الصورة، بل تعجَّل في الإنصراف طالبًا من نادي رقم هاتفه ليخبره بموقف والد آيات في اليوم التالي..

وفي الصباح الباكر جاءته المكالمة، لقد أعلن الاستاذ "رأفت البدري" أن ابنته آيات قد ماتت حين تخلَّت عن شرفها

وباعت نفسها لشيطان بجِح سحبها إلى مكتب محامي ليوقعا معًا على قسيمة البيع والشراء، مجرد "ورقة دنسة" تتيح له استحلال جسدها الذي فرَّطت فيه الفاجرة بسهولة بدلًا من أن تبذل جهدًا جهيدًا في سبيل الحفاظ عليه، ليست غبية ولا ساذجة ليستدرجها مجدي إلى مكتب المحامي ومنه إلى غرفة صغيرة في فندق حقير يمنحهما سريرًا يتقلبانِ فوقه على جمر شهوة مستعر، تم الأمر بإرادتها الحرة وكامل وعيها بل لعلها هي من خططت له ودبرته ببراعة؛ فغازلت رجولة مجدي وسطوة شبابه، "ساقطة سافلة" تماما كأمها، فقد صدَق فيها المثل القائل "اكْفِي القِدرة على فُمها تطلع البنت لأمها"، وهاهو الشيطان قد رحل عنها، فلتقبع أينما تكون مُنتظرة الموت ولتدعو الله أن تلحق بشيطانها بسرعة، وألا يتأخر عليها قطار الرحيل، فلا حاجة له بها ولا بابنها أو ابنتها، فلن يُسدد معها فواتير مجونها وشهوتها واستهتارها، وما أكثرها !..

لقد أعلن الرجل لجيرانه موت ابنته في حادث غرق، لقد استلمت عملها كمُدرسة موسيقى في إحدى مدارس مرسى مطروح تنفيذًا لقرار نقل سابق ورد اليها وكانت تماطله، وهناك لم تستطع مقاومة رغبتها الطفولية في النزول إلى البحر فجرًا

فغرقت، هكذا أذاع الخبر في الحي، ولم يكن بإمكان أحد الإحتجاج أو التشكيك في صدق الأب المكلوم في ابنته الوحيدة، خاصة أنه أصيب بمرض شديد بعدها بفترة وجيزة واصطحبه أخوه إلى المستشفى الحكومي القريب من سكنه حيث وُضع في سرير إلى جانب مرضى آخرين في عنبر مشترك للحالات الخطرة.

لقد تركه هناك يحتضر دون أن يزوره سوى مرتين طيلة ثلاث أشهر كانت الأخيرة في حياة الأستاذ رأفت حيث أُصيب بسرطان الحنجرة اللعين الذي حرمه الرغبة في الطعام ثم سلبه القدرة على البلع والنطق، لم تدر"آيات" شيئًا عن مصير والدها، ولم تعرف بوفاته إلا بعد عام كامل كانت فيه حريصة أشد الحرص على ألا تظهر لوالدها خوفًا من أن يفتك بها أو بجنينها الذي تحتضنه داخل رحمها، ثم خوف آخر تجدد داخلها بعد أن وضعت لؤي، لقد فكرت كثيرًا في زيارة والدها لكنها تراجعت اشفاقًا عليه من ثورة غضب ربما تأتي على صحته لو طالعتها عيناه، لقد فقدت إيمانها بأبوته وحبه لها، وتشككت في انتصار مشاعر حب أو رأفة ربما يحملها لها على معتقداته بها وفكرته عنها وعن والدتها، هكذا انكمشت على نفسها عامًا كاملا كابتة في

أعماقها رفضًا وتمردًا تريد أن تعلنه في وجه "رأفت البدري" والدها، لكنه في كل الأحوال قد رحل .

كم تمنت أن تصرخ أمامه وأن تتخطى جبال الجليد الذي شيدها الرجل بينهما بغلظته وصرامته، كم اشتاقت أن ترتمي في حضنه وبين ذراعيه تُعلن عن حاجتها لحبه وعطفه وشفقته لا لتوبيخه ولومه وتقريعه، تتمنى أن تبكي أيامها وحظها العثر بين يديه فيربت على كتفيها ويطمأنها بنظراته وكلماته لا بعصاه وبحزامه الجِلد الذي كثيرا ما سجل حضوره على ذراعيها وساقيها كلما أخطأت أو تجاوزت؛ فأصبحت وبمنتهى الخوف والحذر نموذجًا للطاعة والإلتزام لا عن قناعة حقيقية بل حماية لنفسها و صونًا لكرامتها ، ثم مالبث التِرس أن توقف حين عرف الحب طريقه إلى قلبها الطازج وأصبحت تتنفس عشق "مجدي العقاد" مع كل شهيق وزفير، ربما كانت أيامهما معًا قليلة لكنها نادرة، إنها حالة خاصة جدًا، لقد تجرد كل منهما من ظروفه الضيقة وطرح خلفه خيباته الشائكة وهمومه المُضنية ليهِب نفسه خالصة نقية لمن يُحب، كان للعناق بينهما حيزًا كلما ضاق اتسعت به آفاقهما نحو السماء.

مازال "حاتم" يستمع منتبهًا بكامل تفاعله إلى "آيات" وحكايتها الواقعية، الحقيقية جدًا، يكاد يشم رائحة "مجدي" في حروفها، فمازال الرجل يعيش هناك في قلبها الرقيق.. أخبرها معتذرًا أنه اتهمها بالخيانة حين علم بزواجها من "فهمي أبو الركب" وأنها صارت امرأة لرجل آخر غير ابن العقاد!!

: رأيتها في عينيكَ وفهمت انك رميتني بالغدر والتلون، لكن صدقني كانت الظروف أقوى من قدرتي على مواجهتها وحيدة مخنوقة بقلة حيلتي وهوان أمري.

أخبرتْه أنها وبمجرد انتقالها للسُكنى مع خال مجدي بحثت كثيرًا عن عمل مناسب خاصة بعد فصلها من عملها كمدرسة للموسيقى في مدرسة خاصة لم تراعي سبب انقطاعها عن العمل للعلاج في المصحة، كان عقدها معهم مؤقت ولا شروط جزائية تضمن حقوقها لديهم، وفي تلك الآثناء تزوج "نادي" من زوجته الحالية وكانت آنذاك تعمل كمخرجة إعلانات في القناة الخاصة التي يملكها "فهمي"، رآها الرجل في حفل زفاف نادي وأُعجب بها وظنت هي أنه اعجاب لحظي سرعان ما سيزول، إلا إنها فوجئت باتصال هاتفي منه يدعوها إلى لقاء سريع في مكتبه في وسط البلد حيث قدَّم لها عقد احتكار لمدة أربع سنوات، أشاد

فهمي كثيرًا بصوتها الذي أطربه في حفل زفاف نادي، وأقسم لها أنها معه ومن خلال شركته الإنتاجية ستلمس السماء، كان عرضه واضحًا لا مراوغة فيه ولا سبيل إلى تكراره إن هي رفضته.

لقد صبر الرجل عليها طوال شهور الحمل وشهرين آخرين بعد الولادة حتى استعادت بعض صحتها وأشرقت شمس صوتها على الجمهور لأول مرة من خلال ألبوم كامل حقق نجاحًا وتميزًا وصارت "ورد" قنبلة الموسم الجديدة، وهكذا سارت في طريق الغناء كمطربة، ثم شاركت في حملة إعلانية قوية لشركة مستحضرات تجميل عالمية ومنها إلى مسلسل كان ذو إنتاج ضخم وإلى جانب كوكبة من النجوم والنجمات لم تحلم يومًا بمصافحة أحدهم، هكذا قدمها أبو الركب وأصبحت مشهورة ولها مئات بل آلاف من المعجبين والمعجبات، وكتطور طبيعي تقدَّم فهمي للزواج من المطربة التي صنعها بنفسه ولنفسه، ومن أجل "لؤي" وحرصًا على أن ينشأ في ظروف معيشية أفضل مما يُمكنها أن توفرها له قبِلت الزواج من رجل يكبرها بعشرين عامًا، سبق له الزواج من أربعٍ غيرها، فالبؤس والحزن واللوعة والضجر أضحت عناوين بارزة لحياتها وحقائق تُنكرها وتستنكرها وتهرب

منها، إن "مجدي العقاد" يسري في دمها ويستقر في نخاعها لكنه قد سُرق منها في غمضة عين وإنه من الغباء بل من الأنانية أن تحرم ابن مجدي فرصة ذهبية ربما لن تتكرر، فرصة ليعيش وينمو ويترعرع دون ضنك، دون بؤس، دون حرمان..

بثَّت قلقها إلى فهمي من استمرارها في وسط تُحركه المصالح وتنضح فيه رائحة حرب شرسة لا هوادة فيها، أوضحت رغبتها في التوقف عن التمثيل والاكتفاء بالغناء، فتقبَّل الرجل قرارها بصدر رحب واقسم أنه أبدًا لم يكن ليجبرها على أمر تكرهه وما كان ليدفعها نحو ما تبغضه؛ فشجعها هدوءه ورزانته وأفصحت عن تخوفها من كثرة زيجاته، فأكد لها أنه كان زوجًا مخلصًا لزوجته الأولى وأم أولاده، ما عرف غيرها زوجةً له طوال خمسة وعشرين عامًا كاملة حتى توفاها الله، فأغلق قلبه دونها وانكب يرعى أبناءه لا يفكر في سواهم حتى تزوجوا وانشغل كل منهم في حياته الخاصة فتلفت حوله ليجد أن الطرافة والبهجة والسلوى قد رحلت عن عالمه وأنه يعيش حياة فاترة بلا طعم، لا حب فيها ولا كراهية ولا حماسًا لشيء وزادت الفجوة بينه وبين الدنيا من حوله؛ فعاوده حلمه القديم لإفتتاح شركة الإنتاج، باع ما يملك من فدادين في الهرم وحالفه الحظ؛ فقد دخلت

أراضيه كوردون المباني، بارك للمشتري ودس في جيب سترته شيكًا ثقيلًا من ذوي الستة أصفار وانطلق يتحسس خطاه نحو هدفه.

وسرعان ما صارت لياليه مقسمة بين شارع الهرم ومكتبه وبيته، وفجأة وجد نفسه يوقع على ورقة زواج عرفي براقصة في الثامنة عشر من عمرها رآها في سهرة أنس وفرفشة في عوامة صديق خليجي أراد أن يحصل من الراقصة الصغيرة على أكثر مما أتت من أجله فرفضت، فاصطحبها عنوة إلى غرفة النوم فقاومت وصارت تصرخ، فكسر فهمي باب الغرفة على الرجل وخلَّص الفتاة من براثنه واصطحبها معه إلى شقته حيث أقامت معه لشهرين تقريبًا دون أن يحدث بينهما ما يُشين، كان معها رجلًا شهمًا ناضجًا، إنسانًا رقيقًا وحنونًا لطالما كانت تحلم به وتتمناه، تعلقت به كتعلق الغريق بطوق النجاة وتعلق هو بها كتعلق الظمآن بالماء، إن "ريري" فرصته الثمينة ليعيش، ليحيا من جديد، تزوجها ومضت أيامه معها كالحلم وكان عطاءه معها سخيًا بلا حدود ولكنها كانت مجرد أيام.

لقد أحبت "ريري" سكرتيرةُ الشاب فأضاءت سماواتها وتوهجت وشعرت أن بكارتها تعود وأنها لن تُضيع أجمل سنوات

صباها مع رجل اشتراها لتضيء لياليه المظلمة فهربت مع حبيبها، عاودت فهمي الغربة والإحساس بالوحدة والشتات وبات يسأل نفسه: هل يستطيع أن يبدأ من جديد؟ وفي غمرة إحساسه بالفناء تعرف على "غزال" المطربة الصاعدة الباحثة عن فرصة، القادمة من أقصى الصعيد هربًا من زيجة فُرضت عليها؛ فتزوجها ذات لحظة في أمسية شاعرية وهكذا وهكذا.

اعترف لها بحاجته الشديدة إلى الحب المربوط بالأخذ والعطاء، بحاجته إلى الصفاء والنقاء وربما حاجته إلى مسئولية وشرف تربية صغير يتيم، مسئولية تحميه من خراب تأصّل في نفسه وشرف يحتويه ليُزيل به دنسًا غاص فيه، سألها أن تتزوجه برغم أنه يعرف أنها لا تحبه لكنها أيضًا لا تكرهه، سألها أن تمنحه فرصة بناء حياة جديدة ووعدها أن يكون خالصًا لها شريطة أن تَصدُق معه النية وألا تطعنه في ظهره وتبحث عن لحظة هروب من علاقتها به، عليها أن تُصارحه إن أرادت الخلاص منه والخروج من دنياه، فلا داعي للتوتر والإحباط ولا حاجة له بمزيد من العلاقات الجديدة التي تنتهي بخيانات جديدة؛ غير ذلك فلا تبالي ولا تخشى شيئًا؛ ففي عصمته وتحت جناحه لن يمسها سوء أو يلزمها هَم.

لم ترغب آيات في الزواج من فهمي لتصبح مغنية مشهورة أو مطربة الجيل ونجمة الشاشة كما ظن فيها البعض، ولا لتتخذه معبرًا إلى بر الأمان ثم تنتهي علاقتها به إلى ما انتهت إليه زيجاته السابقة، إنها لا تسير وراء الهوى والرغبة والطموح بل وراء العقل والمنطق والبحث عن الأمان، لا تريد فشلًا ولا حاجة لها بخيانة رجل شريف يمنحها بكل كرم وسخاء فرصة ذهبية لحياة محترمة تحميها من السقوط في الفراغ، لا تريد أن تظلم نفسها وتظلمه معها، أخبرته أنها عاشقة حتى لا يسترسل معها في أحلام الحب الوردية بلا أمل، لكنها على كل حال عاشقة لرجل ميت على الأرض، حيّ في السماء وفي قلبها؛ فليطمئن فلا مجال للخيانة، إنها تطلب راحة وأمان عنوانهما استقرار وسكينة فإن كان قابلًا بها على هذه الحال فسيكون رجُلها الجديد الذي سيأخذ بيدها إلى تلك الواحة ويكون عونًا لها على آداء أمومتها وستكون هي طوق نجاته من الوحدة والسكون وتشرد المشاعر وتشتت الدفء..

وهكذا تزوجت آيات الأستاذ فهمي لسنوات دون أن تُتاجر بجرحها الغائر أو تُساوم الرجل على هدوء وسكينة وجدهما في القرب منها وأنس وبهجة عرفهما مع صغيرها لؤي، بينما تهيج

ألسنة الناس بسيرتها وقصة طمعها في رجل غني يكبرها وكيف أغرته أو تسولت أمامه لتحصل عليه، ألسنة فصيحة خبيثة تنطلق حولهما تنسج حكايا عن جريمة المطربة الشابة التي هربت إلى الشارع لتلتقط ثريًا أو لتنْصب شباكها حول ساذج توقعه في براثنها تستعمله كسُلم تتسلقه إلى المجد ثم تركله بقدمها، أخبرته كيف أحست بالحقد عليهم وعلى غرور لزج هيأ لهم تصويرها بهذه البشاعة والوضاعة بينما تستقر أيامهم بين أيديهم لا يعكرها فقْدٌ ولا ينخرها عجز..

تزوجت "آيات" فهمي الإنسان ولم تكن حينها تملك إلا رغبتها في السلام، فهي متعبة، عاجزة، لم يكن لها متطلبات ولا اشتراطات ولا حتى أمنيات طوال سنوات زيجتها بالرجل، الأمر الذي أثبت لزوجها حرارة صدقها معه، ثم وبفعل العِشرة وصفاء النوايا ازدادت اقترابًا منه وانضمامًا إلى عالمه فالتصق بها وعجز عن رؤية غيرها ولم يشعر بحاجةٍ للرحيل إلى حضن أنثى غيرها.

أحب "لؤي" وتحمل غضْبة أبناءه عليه بسبب رعايته لهذا اليتيم الصغير، فكان ينصت بهدوء إلى اتهاماتهم القاسية

وملاحظاتهم الجارحة واسقاطاتهم الفارغة عنه وعن زوجته الحرباء؛ فلا تزيده شحناتهم السلبية إلا اقترابًا من الصغير وأمه، فكونوا معًا مستعمرة نباتية واحدة متحدة الفروع والأصول، تعرف بعضها بعضًا وكأنهم نبتوا في التربة نفسها، هبت عليهم العواصف نفسها، نفس الضحكات، الغنات، التفاهات، الرغبات والإختيارات، صاروا يتحركون جمعاء على خط واحد بمغناطيسية واحدة، فالأسماء والألقاب لا تُهم، المهم وحدة القلوب، بينما كان لآبناء أبو الركب حياواتهم الخاصة التي لا تحتك من قريب أو بعيد بحياة أبيهم، فكثيرًا ما كانت تنصت "آيات" لعذابات زوجها وبكاءه أحيانًا حين يتعرض بالحديث عن جفاء أبناءه وطمعهم في ماله وربما رغبتهم في وفاته، ولطالما شجعته على الإستمرار في عطاياه لهم والتواصل معهم واحتواءهم رغم ما قالوه عنها من مساوئ مازالت تذكر بعضها، إلا انها كانت تتمنى احترامًا متبادلًا وهدوءً نسبيًا يُغلف علاقتها بهم ولكن هيهات، فاكتفت بالصمت الجميل بينما تكتم داخلها ألمًا مريرًا ..

: شئٌ لا يصدق !!

هكذا علَّقت "تميمة" على كل ما سرده حاتم عن قصة "ورد" الصديقة القديمة مع فهمي أبو الركب بينما كانت تجلس على مقعدها المفضل في غرفة المعيشة ولم ترفع عينيها عن شاشة هاتفها المحمول، لم تلتفت إلى حديث "حاتم" الذي يقطر إنسانية وشجن، ظلَّت عيونها تنزلق على الشاشة تقلب المواقع وتراقب الإشعارات بحرص كي لا يفوتها إحداها، ثم خلعت نظارتها الطبية وقالت: **لا تستهويني أخبار الأرملة الصهباء بل أحس قرفًا لتدخُلي فيما لا يعنيني..**

أدهش تعليقها حاتم وألجَم لسانه؛ فابتلع حديثه عن "آيات- ورد" وراح يفكر، إن تفككًا عجيبًا وبلادةً ماسخةً أصابت مشاعر "تميمة" نحو مُصاب إمرأة وحيدة كانت صديقتها فيما مضى لخمس سنوات؛ شعر أن حديثه كان غبيًا ساذجًا وسخيفًا مهلهلًا فصمتَ ورحل بفكره وخياله نحو الصهباء، فعيونها مزيج من الفجيعة والخيبة، بينما يأتيه صوتها مزيجًا من الخوف والترقب، صار شبابها كبضاعة كاسدة يُرجى التخلص منها سريعًا، يأسره تعاطفه الشديد مع كل فصل من فصول حياتها، لا يستطيع أن يقطتع من ذاكرته مشهدًا مما قالته..

كرت الأيام و"حاتم" يزداد اقترابًا من حياة الصهباء الحزينة، لقد ازداد توغلًا حين تجمهر حولها الأبناء الثلاث لزوجها الراحل يُشاكسونها، يرونها امرأة رخيصة شريرة، يسعون بهِمَة للإنتقام منها بل ودفعها إلى الرقص في وليمة ذبحها.

بينما لا حلول حقيقية استطاعت فك طلاسم الصمت الذي يغلف حياة "تيمو وتامي"، لقد رفضت استشارة الطبيب النفسي نهائيًا وعاملت صديقهما "نادي" بعجرفة وغلظة، تعمدت إحراجه حتى لا يحادثها في الأمر ثانية، وأقبلت على تناول المهدئات ومضادات الإكتئاب وانعزلت عن حاتم انعزالًا تامًا، لقد فوجئ ذات مساء بأنها قد أعادت ترتيب أثاث المنزل ورتبت لنفسها غرفة نوم صغيرة غير تلك التي جمعتها بحبيبها لسنوات، دلف إلى المنزل في وقت متأخر وهو يعلم يقينًا أن "تامي" في فراشها منذ عدة ساعات، أحزنه تصرفها لكن لم يُفاجئه، وفي الصباح لم تعلق تامي على امتعاضه من ذاك العزل سوى بنظرة تحدي وإصرار، متسائلة عن إنزعاجه من أن تكون لكليهما غرفة خاصة وهو الذي يعود يوميًا إلى البيت متأخرًا وخاصة إن كان قادمًا من زيارة صارت روتينية إلى فيلا صديقته الأرملة، غمرتْه

فرحة شريرة وهو يرى اهتمامًا بأمره يلمع في عينيها أو ربما غيرة حيَّة ازدادت معها نبضات قلبه، وعبثًا حاول استثمار تلك اللفحة من الغيرة التي غشيت "تامي" لعله إن زاد النيران حطبًا لنضجت أيامهما معًا لكنها أصبحت صماء، قليلة الإستجابة تتحرك بآلية منتظمة ثقيلة، يبدو أن خريف علاقتهما جاء مبكرًا.

هرع إلى "ورد" يجرجر أذيال خيبته، يفعل ذلك حين يصيبه اليأس ويريد إنسانًا ذو قلب حار ليتحدث معه..

: لم تعد عيونها عميقة كما اعتدتها، إنها ليست العيون التي سكنتُها صيفًا وشتاءً، صارت كلماتها القليلة معي تدور حول رقبتي كحبل مجدول يوشك أن يخنقني، تمطرني أحيانًا بنظرات قاسية بل حاقدة، باتت تتهمني بالتفاهة والأنانية، ربما تدفعني بتجاهلها لي إلى التوقيع على صك عنوانه نهاية علاقتنا، ومن يدري لعلها تتمنى ذلك وتريده، لقد انتهيت.

: لكنك لم تنته بعد..

كانت كلمات "ورد" حانية وعيونها ضاحكة رغم ما بها من ألم، تعجَّب حاتم من أمرها؛ كيف لذبيح تفرفر روحه أن يمنح الهدوء ويعطي السكينة لغيره؟! اقتربت "ورد" من "حاتم"

وربتت على كتفه وناولته "العـود" وجلست جـواره تنتظر لحظة خروجه من الشرنقة، إنها كبطلة الأساطير لا تمل ولا تكل من الإنتظار، قالت في هدوء ممزوج بالحنان: **أحيانا نضطر لأن نحرق همومنا بنيران الذكرى ونستعيد روحنا القديمة التي فارقتنا في متاهة الروتين.**

مائتانِ من الأيام انتهت وما كان أطولها استطاع خلالها محامي "ورد" التخلص من كل تشابك بينها وبين ورثة زوجها الراحل، لم يخش المرحوم أن يحمل على كتفيه تهمة جديدة إن هو أوصى لها أو لإبنها بشيء خاص، أراد أن يؤمِّنها مكر أبناءه وجزعهم الغائرعلى ثروته؛ فخصَّها بالفيلا الكبيرة التي سكنتها معه وأودع وثيقة بنكية بثلاثة ملايين جنيه للصغير لؤي يتسلمها حين يبلغ الواحدة والعشرين، كما باع لها القناة الفضائية وسجلها باسمها حتى لا يُنازعها أحدهم أو جميعهم، هذا التخصيص على صِغره مقارنة ببقية الثروة والتركة من عقارات وأراضٍ وشهادات إستثمار وقصر كبير في قلب مصر الجديدة جعل أبناء "فهمي" غضبى كالثيران واستداروا ينازعون أرملة أبيهم اللئيمة الخسيسة في حصتها بعد وفاته مباشرة..

بعد فترة بيات قضتها "ورد" في فيلتها لم تكن تستقبل خلالها سوى صديقيها "نادي وحاتم" وفي أول خروج لها قررت زيارة قبر "فهمي"، وهناك طلبت من حاتم أن يتركها وحيدة إلى جانب القبر ولا يقلق بشأنها، راقبها من خلف قضبان بوابة المقبرة، كانت تبكي، تسأل "فهمي" لما تركها وهو الوحيد الذي شعرت معه بالأمان وطوقها بالرعاية والإحتواء، إنه الوحيد الذي احترم جسدها وقدَّر رغبتها في الإحتفاظ ببقايا بصمة "مجدي" عليه، لم يلمسها كزوجة بل كان جسدها عنده مقدسًا كابنته، لم يطمثها وتفهّم ما يدور في رأسها المتورم بحب الشهيد دون أن تقول كلمة واحدة..

عام كامل تحفّظ خلاله في التعامل معها كأنثى إلى أن أتته هي بكامل إرادتها، طرقت باب غرفة نومه الخاصة واستأذنته أن تبيت إلى جواره في نفس الفراش، فاجأته كلماتها لكن ابتسامة رضا وترحيب اعتلت وجهه، فتمددت "آيات" إلى جواره على استحياء، لحظات بعدها وتوسد رأسها ذراعه الأيمن، منحها "فهمي" في تلك الليلة حبًا ممزوجًا بالحنان، استطاع برجولته الناضجة السيطرة الكامنة على أحاسيسها المضطربة ومخاوفها الثقيلة، خلَّصها ببساطته من بِلاد الخوف التي كانت قد استقرت

في قلبها، وهكذا أصبحت زوجته حقًا، ربما جاء الأمر متأخرًا لكنه جاء في النهاية بسلاسة ودون توتر أو إجبار أو لوم، كانت البداية ثقيلة لكن جاءت النهاية قوية ومتينة، الفرق بينهما الشهور اللازمة للنسيان أو التناسي، ليس نسيان مجدي فمِثْله لا يُنسى، لكنه نسيان الأسئلة المخيفة، الإعتبارات المُربكة، الفوارق المدمرة، ثم العبور نحو التنفيذ بتروٍ وانسيابية دون تشنج أو عصبية، بعد كل هذا تركها فهمي ومات!!

يبدو أنها ملعونة وأن قوة غامضة غبية تحاربها وتنتقم منها لسبب تجهله، إنها تلك القوة التي انتزعت منها الرجل الوحيد الذي عشقته قبل أن تُزف إليه بأسابيع قليلة بينما ثمرة العشق تنمو داخلها وتنضج، وهي نفس القوة التي انتزعت منها "فهمي" الرجل ذو الشهامة العجيبة التي لم يفهمها أحد في الوقت الذي كانت تريده أن يبقى بجانبها، لقد تكومت جوار قبره لساعتين لم تجف فيهما دموعها الملتهبة، بدت وكأنها تنتظرغائبًا دون تعب، غائب لن يعود ابدًا...

ما هذا الحب؟ وما هذه القوة؟

إن "آيات أو ورد" طاقة من العطاء تمد من يحبها بالقوة

والمحبة بل وبالجنون أيضًا ففي سنواتها الخالية مع أبيها تحملت جنونه وكرهه الشديد لأمها ولعناته الرجيمة التي يصبها فوق رأسها صباح مساء، وفي صباها تحملت الضرب والإهانات حين أعلن شبابها عن شبهٍ كبير يجمعها بأمها الماجنة، نفس الملامح، نبرة الصوت، نظرة العين، غمازات الخدين، كبرت وصمدت وكبرت معها قدرتها على تحمل غضبات أبيها، ظنت أن الحياة ابتسمت لها حين عوضتها ومنحتها قلب مجدي العقاد وفجأة تغير الأمل إلى خوف، والتفاؤل إلى يأس والغد إلى أمس، وها هي ترتجف متكورة إلى جوار قبر "فهمي" السكن والسكينة، الزوج والأب والصديق، صار الألم أكبر مما تستطيع إحتماله، ولو تركها "حاتم" هنا ستبقى إلى آخر العمر..

:صداقتكَ ملاذي يا حاتم، أعرف أنكَ لن تستطيع أن تعيد لي من سلبهم القدر مني، لكني أشكرك، فمجرد إنسانيتك معي تجعلني أحسُّ بالراحة.. كلمات خرجت من فم الأرملة الجميلة رغم الألم حين وضعها حاتم في سريرها ودثرها بالغطاء.

:لا تقولي شيئًا يا آيات... اطمئني، فلن أتركِ عزيزتي.

في تلك اللحظة سقطت دمعات ملتهبة من عينيها على كفه فلسعته، ربت على كفها يهدهدها في حنان وهو يردد: **نامي الآن.**

ذاك الحزن العميق الذي تشرّبت به خلايا آيات وطالت إقامته داخل أغوارها جعلها مطمع وهدف ترنو إليه النفوس المريضة، ليس فقط لأبناء فهمي بل لغيرهم أيضًا ممن يرون فيها فرصة العمر المتوجب إغتنامها، إنها الطريق الممهد لثراء سريع، ومع التواصل المستمر لحاتم مع دنيا آيات وتوطد علاقته بصغيرها الذكي بالفطرة غمرته فرحة وسرت في أوصاله بهجة وبصورة عفوية صار ثالثهما الذي قلما يتغيب عنهما، يخالط ذلك الشعور النبيل شيءٌ من الهيستريا العاطفية التي تتفق مع غزارة شعوره بواجبه الإنساني تجاه صديقة عزيزة أساء الظن بها يومًا.

نبهه صديقه نادي من إنجرافه الشديد نحو مسار آيات ويتيمها، هذا الإنجراف المتزامن مع نفوره المتواصل من كل مدار يجمعه بزوجته، أنكر حاتم على صديقه ما يقول، فلا علاقة بين رغبته في الإنفصال عن تامي وبين إقباله على لؤي ووالدته الحزينة، فعلاقته بتامي قد تشوهت ومسّها كثير من العطب قبل ظهور ورد أو آيات على مسرح حياته، إنه لا يعاني اضطرابًا داخليًا ولا هوسًا عاطفيًا، إنما أحيانًا تغمرنا تعاسة هي أكبر من أن نُعبر عنها أو نحيط بأبعادها، أو نفسر أسبابها ومداها لأنفسنا ولمن

حولنا، ربما لعجزنا عن تبريرها أو لعجزهم عن فهمها، ثم يتصادف أن يقع مصاب ما لإنسان نحبه ونقدره، ودون وعي منا نجد لتعاستنا منفذًا وملاذًا ومخرجًا، ونمارس حزننا الخاص تحت ستار ذاك المصاب، إنها مرارة شرسة ومتاهة معتمة وفقْـدٌ بليـد، فكلنا قابل للفقد وكلنا يُمكن أن يَلبس أويُلبس عليه أسْود الحداد، والأبشع أن يُلبس على مشاعرنا وأحاسيسنا، فبعض الأمور لا يُمكن إصلاحها أو تجاهلها.

فالتعاسة أيضًا لغة مشتركة بين إنسانين حين يعني الفقد لهما شيئًا واحدًا، فقدت آيات حبيبها ثم راعيها الروحي؛ ففقدت الأمان وفقد حاتم حبيبته وحماسها ورغبتها في حياة ناعمة عامرة بالحب والتجدد، كلاهما عرف أبجدية الفقد ومعنى الرحيل، كل ذلك هيأ بينهما مزيدًا من الإقتراب نحو الآخر، والنفاذ إلى أعماقه والإنغماس في عالمه؛ فلِمَا العجب!!

سارت الأيام بتثاقل كبير، وأحس حاتم أن عزوف تامي الكامل عنه كرجل يُهين كبرياءه بينما أدركت هي أيضًا أن عزوفه عنها وعدم رغبته في الإقتراب منها أو تدليلها واسترضاءها ليس

أكثر من لعنة أصابتها كغيرها من اللعنات السابقة، لم يثر الأمر شكوكها لأن شيئًا لم يعد يهمها؛ فقد قبلت بكل الخسارات التي لحقتها، قبِلت أم لم تقبل، ليس الأمر اختياريًا إنما تلك هي حياتها، أتتها الإنهزامات متتالية فما عاد الخوف يصيبها ولا الفقد يرهبها، فقد استسلمت تمامًا لذاك الإكتئاب، ولا أمل لها في استعادة صراخها وحواسها الضائعة، لم تقاوم لعنتها بل تواطأت معها.

لم تسع إلى الطلاق والتحرر من الألم، فما عاد الألم موجعًا فقد تعايشت مع وخزاته ونوباته المستمرة، اكتفت بالإنفصال عن حاتم مع الإستمرار في العيش معه تحت نفس السقف وكأنها تعاقب ذاتها بهذا الجنون العاري من أي منطق، لا هي تقدمت نحوه تتشبث بكل فرصة تُعيده إليها وتُعيدها هي ذاتها إلى نفسها القديمة ولا هي حرَّرت جناحيها وانطلقت ترفرف في غير سماءه، كانت روحها في مخبأ آخر منفصل عنها تمامًا.

وعلى الجانب الآخر سيطر كابوس مفزع على "آيات" لليال طوال، رأت نفسها وقد تدثرت بالسواد تسير صامتة وراء جنازة غريبة، ثم رأت نفسها وقد تبدلت ملابسها إلى الأبيض الناصع، تعبر بوابات عملاقة تصغُر حين تلمس قدمها عتبَاتها، ثم تسيرعبر ممرات عِدة بعينين نصف مفتوحين وقد برزت عروق يديها

ورقبتها على نحو شديد وعلى رأسها إكليل من اللؤلؤ، ترى أنها لا تموت فقط تسير بخطى بطيئة لكنها ترتعد!

تفيق من حلمها مذعورة وقد تبللت منامتها من فرط التعرق، تتلاحق أنفاسها ويرتجف بدنها لدقائق ما تلبث أن تهدأ بعدها، لكنها وبشكل عام باتت تشعر بوَهن وهزال ونقُص وزنها بشكل ملحوظ في أسابيع قليلة، وتحت إلحاح "حاتم" زارت الطبيب الذي أمرها بالقيام فورًا بعدة تحاليل والخضوع لبعض الفحوص المعملية.. جاءتها النتيجة صادمة جدًا، إنها تعاني من إبيضاض الدم النخاعي، وهو نوع حاد من سرطان الدم "اللوكيميا"، ولا يصلح معه عملية زرع للنخاع الشوكي، سرطانها في مرحلة متقدمة وفرصة النجاة تكاد تكون معدومة..

في صغرها كثيرًا ما وبخها أبوها وسلَّط عليها لسانه، ظلمها واستبد بها وهو المليء بالندوب النفسية، عاقبها مرارًا على ما ورثته من أمها من ملامح وهيئة، يُجلجل صوته معاتبًا لأنها لم ترث منه شيئًا، وبعد سنوات لم تكن كثيرة أرادت أن تخبره أنها نجحت أخيرًا في الإمتحان، لم تعد عاجزة عن استلام ميراثها منه، بيد أنه لم يمنحها سوى جِين شرس، قاس، غارق في الظلام، جين السرطان، كان هو كل ميراثها من أبيها!

: ما أعجب هذه الحياة، إنها سماء تُمطرنا بشهب من وجع!

عبارة قالتها وهي مستلقية في فراشها في تعب بالغ حين هرع إليها صديقاها المخلصان "حاتم ونادي"، كانت تتلوى ألمًا وقد فشلت جرعة المُسكن المسموح بها في محو آلامها التي تتكاثر وتتعاظم بمرور الساعات، فألمُها صار وحشًا همجيًا يصعُب ترويضه، تُقسم لصديقيها أن مجدي يزورها كل ليلة، ينام بجوارها في نفس الفراش، بل إنها تتمدد بين ذراعيه، تختبأ هناك من وجع قد يحرمها فرصة أن ترى شمس الصباح من جديد، لا تخشى الموت ولا يُفزعها الرحيل، إنما فزعها الكبير وجزعها الأكبر أنها ستترك صغيرها "لؤي" ولم تصل سفينته بعد إلى بر الأمان، مرة أخرى تضِّن عليها الحياة وتضعها في مسلكٍ ضيق يقودها بسرعة نحو الهلاك، كانت تتمنى الموت بل تنتظره حين استشهد مجدي، لكنه لم يأتِ حينها، وها هو يأتيها الآن في شكل لم تتصوره أبدًا، إنه سرطان ينفجر فيها كلغمٍ موقوت، ما أسخف الموت وما أردأ فلسفته، إنه الضيف الوحيد الذي لا يستأذن..

ارتعشت "آيات" في مكانها حين توغلت في الكلام عن الموت، كانت كلماتها تأتي من بعيد، تأتي من مقبرة دُفِنت فيها كل الأشياء الجميلة.

ارتعشت أكثر وأكثر حين وضع "لؤي" يده على وجهها وكفَه على قلبها، اقترب يريد أن يُقبلها، فجذبته نحوها في شوق ملتهب وانهالت على وجهه تُقبله في كل سنتيمتر، تغزل حبها وتسطُّر أشواقها وتبُثه فيضان مشاعرها، تريد أن تملأه عشقًا حتى آخر مسام في جسده قبل أن ترحل، تريد أن تورثه فيضًا من حب ..

: يا روحي، عدني أن تعِش وتستمتع بعمرك في كل لحظة، عدني أن تكن أنت كما تريد لا كما يُراد لك، وتذكَّر يا صغيري أن الدنيا جميلة وتستحق أن تُعاش فلا تُخاصمها فتخاصمك،استمع الى قلبك دومًا، فهناك تخلُص النوايا.

غادرت "آيات – ورد" إلى السموات العلى في صمت يليق بوداعتها، كانت عيون صديقيها مصوبة نحوها بينما ظل صغيرها منكفئًا على صدرها يبكيها، ثم استفاق نادي من ذهوله وغادر الغرفة ليطلب الطبيب ليحرر شهادة الوفاة، بينما قام "حاتم" من مكانه يجرجر قدميه يحمل على كاهليه حزنًا يُفتت الجبال يقترب من لؤي في حيطة، لا تسعفه كلمات العالم أجمع، وأي كلمات تلك يُمكن أن تضمد جراح خسارته العظيمة، وقف إلى جواره ورفع رأسه قليلًا، كان الصغير غارقًا في بحر من الدموع، التقَفَه

"حـاتم" في حـضنه بلهفـة، يريـد أن يقاسـمه كـل حـزن ولوعـة وانخرطا في بكاء نازف، كانا في قارة أخرى لا كائن فيها سواهما.

تمدد "حاتم" بكل طوله على كرسي جلدي ضـخم في غرفة مكتبه في مقر القناة الفـضائية التـي كانـت ملكًـا خالـصًا للمرحومـة "ورد البـدري" بعـدما غـادر محاميهـا وصـديقه "نـادي" الغرفـة، أغمـض عينيـه قلـيلًا ليسترجع مـا قالـه المحـامي للتـو عـلّ عقلـه يستوعب هول المفاجأة..

: لا شئ في هذا العالم يهمني سوى لؤي، لذا أرجو منكَ أن تنفـذ وصـيتي بـالحرف، فأنـا لم أنم لليـال طويلـة حتـى خلصتُ إلى ما أبلغكَ به محاميّ المحترم، شكرًا صديقي حاتم لأنـك هنـا إلى جوار صغيري لـؤي الآن، وأثـق حتمًـا أنـك لـن تتركه فريسة سهلة للحزن واليُتم والضياع.

لم يستطع "حاتم" كبح دموعه ولـم يستطع تفـادي كلمـات "ورد" البيضاء كقلبها تمامًا، لقد جعلته وصيًا شرعيًا على "لؤي" كنزها الثمين، وضعتْ في عنقه أمانة تنـوء عـن حملهـا الجبـال، أي صـلاح وتقـوى رأتهمـا فيـه؟ أي قـوة وإصـرارعرفتهما عنـه؟ لمَـا

اختارته؟ ولمَا ائتمنته؟ تساؤلات كثيرة لكن الإجابات لم تعُد اليوم تُهِم كثيرًا، فقط هو بحاجة ماسة إلى الصبر والمثابرة و.. !!

وإقناع "تامي – تميمة" بقبول اليتيم الصغير كعضو جديد دائم في دائرتهما المغلقة.

لكن كيف؟ والصمت المظلم يتمدد الآن بينه وبين زوجته، مَن كانت حبيبته في زمن ليس ببعيد... "كانت" هل حقًا أصبح حب تامي فعل ماضٍ لا حضور فيه؟!

عليه أن يستجمع نفسه ويرتب تفاصيله ليتمكن من السيطرة على أمور حياته ويحدد اتجاهاته بوضوح، فمستقبل لؤي أمانة غير قابلة للمراوغة.

: أي طفل تريدني أن أربيه، أن استخلصه لنفسي عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا ؟ هل جُننت؟ أيعقل أن تطالبني بتربية غريب في بيتي جاءني من زمن مجوف كالمغارة؟ هل تتوقع أن أصدق قصة صداقتك البريئة مع الأرملة الصهباء صاحبة العصمة؟

رصاصات كالجمر انطلقت من فم تميمة لتصيب حاتم في مقتل، لا يعرف بالضبط متى صارت باردة، أنانية، حاقدة إلى هذا الحد؟ متى انغمس في حياته بعيدًا عنها لتصل الأمور بينهما إلى ما وصلت إليه؟

: اسمعني جيدًا، كل شئ صاف في ذهنيِ ولا أعاني أي ارتباك أو تردد فيما أقول، إنه قراري النهائي لكَ أن تقبله أو لا فالأمر يخصك.

استمرت تُصوب نحوه طلقاتها دون هوادة أو توقف ولو للحظة علّها تراجع نفسها أو موقفها..

تمسكت "تميمة" بموقفها، إما هي وإما لؤي، فالجمع بينهما لا يجوز بل إنه مستحيل، هنا وصل "حاتم" إلى نقطة اللارجوع، النقطة الفاصلة بين القرار والقدرة على تنفيذه، طلَّقها "حاتم" وهو يتمزق؛ فربما أتاح لها بذلك الإنفصال الفرصة لإستعادة حياتها ولترتيب أولوياتها بلا ضجيج أو إزعاج.

: ليس جنونًا، بل هو عين العقل، فقط اختبرتُ حواسي الدفينة وذهبت إلى أعمق نقطة في قلبي بحثًا عنها وعن حب قديم افترضتُ عبثًا أنه يدوم فلم أجدها، لقد وأدت تميمة ما كان بيننا واخترقت بتجاهلها لي كل عتبات الحب والمشاركة والحرص عليّ والخوف من فقدي، بل أنها روضّت قلبها على العيش من دوني، ولستُ مجبرًا على الإستمرار في كذبة الوفاء لحب سحقني عشرات المرات، أحبها؟ ربما.. لكن ما الجدوى من حب يُميت، يقتل، يذبح؟!

كلمات قالها حاتم بمنتهى الهدوء والإتزان حين عاتبه صديقه نادي وراجعه في أمر تطليقه لتميمة واستسلامه لتلك النهاية البشعة.. وعلى صوت العود الذي يأتي واضحًا من غرفة "حاتم" في الفيلا أصبح لؤي ينام كل ليلة محتضنًا صورة أمه الجميلة، تأتيه في أحلامه على فترات متقاربة توصيه بحُسن التصرف والإنصياع لكل ما يقوله "بابا حاتم" الذي أصبحت الموسيقى ولؤي هما كل ما يؤنس حضوره وبقاءه على قيد الحياة..

بينما استقرت "تميمة" غارقة في جبروت الصمت ووحدة العزلة، لم تعد قادرة على التجاوب مع متعة الحياة لأنها ببساطة لم تفهم أن الحياة لا تتوقف أبدًا على أحد ولا من أجل أحد..

تتحسس فراشها الخالي كل ليلة، بارد كقطعة الثلج، باهت في عينيها الحاضر، غامض في رأسها المستقبل، اكتفت بالأقراص المهدئة التي وصفتها لها جارتها الطبيبة حين اشتكت لها من الأرق وقلة ساعات النوم بل وصعوبته في أحيان كثيرة..

يزورها الحنين إلى سالف الأيام، لكنه حنين حزين متحد مع عزلتها، في قلبها جرح غائر يزداد عمقًا واتساعًا كل يوم مثل زلزالٍ يخترق الأرض تحت قدميها وهي الوحيدة التي تسمعه ولكنها تقف متبلدة على حافة الحياة ولا تصارع من أجل البقاء..

تتساءل أحيانًا عن هذا الإنقلاب الغريب الذي طال عيشتها، كيف صارت فرعًا يابسًا على شجرة الحياة بعدما كانت هي كل الشجرة؟ مهما كانت التساؤلات فمصيرها العدم، لا شئ يُريح القلب سوى بعض الذكرى..

تتساءل عن حجم الخسارات التي تكبدتها، هل حقًا ارتكبت حماقاتٍ أم أن كل الحماقات قد أُرتُكِبتْ في حقها؟

لا تملك إلا إحساسًا عميقًا باللاجدوى، ولكنها أيضًا لا تملك القدرة على الإنتصار للحياة، لا تريد لحياتها أن تستمر بهذا التيه؛ فكرت كثيرًا في الإنتحار ولولا أنها أبدًا لم تكن بهذا الشطط لفعلت..

سنوات خمس مرَّت عليها وهي لا تعرف من دنياها سوى بيتها والشركة التجارية الصغيرة التي التحقت للعمل بها قتلًا للفراغ واستهلاكًا لوقت طويل يمر عليها بشق الأنفس..

وبالصدفة البحتة جمعها لقاء سريع بحاتم بعد انتهاء مراسم عزاء "د. عزالدين" والد صديقهما نادي وشيخ الأطباء النفسيين الذي ما جرُأت على زيارته يومًا رغم حاجتها الماسة إلى ذلك، وقفت تنتظر رؤيته بالقرب من قاعة عزاء الرجال، وعندما لمحته

من بعيد ترجلت عن سيارتها وأرسلت "السايس" في طلبه، جاءها "حاتم" وهو لا يعلم مَن السيدة التي تنتظره في ساحة الجراج؛ لم تُخبر السايس عن اسمها فربما رفض "حاتم" لقاءها إن هو عرف أنها مَن تنتظره، كانت الساعة العاشرة والنصف ليلًا والظلام شديد في ساحة إيقاف السيارات، إنه شتاء يناير، الجو بارد بينما نسمات ندية تلفح وجهها، كانت مرتبكة تضع وشاحًا أبيضًا فوق رأسها، تفتش عن كلمات مناسبة تبرر بها مطلبها لكنها وبمجرد أن صافحها حاتم، وغاصت كفها في كفه قالت: **منذ زمن بعيد لم أرك؛ لذا وقفتُ أنتظرك، كيف حالكَ؟**

: ألم تكوني متأكدة من حضوري إليكِ إن أنتِ أرسلتِ في طلبي شخصيًا؟

رأى "حاتم" الإجابة في عينيها المرتعشتين، بينما انفرجت شفتيها تقول: **تساءلتُ كيف سألقاكَ بعد كل هذا الغياب؟**

فابتسم قائلًا: **كوني متأكدة أنّي سآتيكِ ولن أتخلف ثانية واحدة، أنا أيضًا كنت أتوق لرؤيتكِ تامي، كم مرَّ من زمن لم نر فيه بعضنا البعض؟**

رأى حاتم وميضًا في عينيها حين قال جملته الأخيرة بينما

تسمرت في مكانها تحدق فيه، إنها تشتهي لقاءه وتريد أن تراه، يا الله، كم تمنى رؤيتها، زيارتها، وكانت أقصى أمنياته لقاءً عابرًا كهذا، فما عادا قادرين على تحمل هذا البؤس وهذا الفقد؟ استرسل في كلامه دون تفكير قائلًا: **شكرًا د. عز الدين لأنكَ مت الآن.**

ابتسمت رغمًا عن إنفعالها وهي تقول: **أهُنتُ عليكَ إلى هذا الحد؟**

شقت كلماتها صدره، تزايدت نبضاته، يعرف إنه مازال يحملها في ضميره وقلبه إلى الآن، بعده عنها وغيابها عن عالمه جعلا يقينه يطفو على السطح و يسطع بعيدًا عن نيران الكبرياء و شطط الغرور.. سحبها من ذراعها وأدخلها في سيارته وانطلق ينهب الأرض إلى حديقة صغيرة على أطراف المعادي كانا يرتاداها في سابق الأعوام..

وهناك أجلسها قبالته، فقالت: **لم أنسكَ يومًا، فقط أكلتنا متاهات الحياة، جروحي كانت كبيرة وغائرة، وتفاصيل رؤية الأشياء كانت معدومة، كنت تائهة، عنيدة ومستبدة كمراهقة لا تنتصر إلا لذاتها، اخترتُ طريقًا لا يشبهني ولا يشبهكَ، ومع ذلك سلكتها في تحدٍ جارف لقلبينا، رأيتكَ تسير بعيدًا في مسلك آخر ولم أتوقف،**

فانفلت أجمل ما فينا من بين أصابعنا كالماء، فالحياة كلها كانت ضدّي حتى نفسي، لم أستطع التعلق بك مع إني لم أجد نفسي إلا معك، لم أعد قادرة على الكذب على نفسي أكثر من ذلك، صدقني لم أكن أعلم أنّكَ تحتلني إلى هذا الحد؟ فجاءت خسارتي لك أكبر خساراتي..

قالت ما قالت ثم طاطأت رأسها خجلة، تترقرق دمعة على رموشها عالقة تخشى الإنسياب.. مرّ حاتم بشريط الذكريات مرورًا هاربًا، فهذا اللقاء العجيب الذي جاء بعد كسر عنيف حدث في الأعماق، كم تمنَّى هذا اللقاء لكنه لم يسع أبدًا نحو تحقيقه!، لم يتساءل أبدًا كيف سيلقاها بعد كل هذا الغياب وهو الذي قمع حبه لها وأسكنه قبوًا حتى لا يؤذيه الفقد ولا يحرقه الشوق.

ففي الغياب نرى من نحب بصورة أوضح، نعرف أثرهم وندرك تأثيرهم وتقل مساحة اهتمامنا بذاتنا التي أهلكنا البحث المضني عن راحتها، ففي الغياب تتسع خارطة الشوق في جغرافية الروح؛ وتضيق مساحة العتاب والخصام؛ يتلاشى الغضب وتنتحر أسبابه، فلم نعد نقف عند منتصف الوجع، إنما يغشانا ما بعده من إشتياق، وندرك أن الموت لا يكون بتوقف النبض فقط، فالانتظار موت، والملل موت، واليأس موت، والحرمان من الحبيب موت محقق.

رفع رأسها نحوه واقترب يقول: **كم أنتِ مجنونة، كدتُ أموت شوقًا لسماع ما قولتيه للتو.**

: **هل تأخرتُ كثيرًا؟** قالتها وأناملها ترتعد، بينما وميضٌ برَّاق ونظرات حالمة تملأ العيون، أيادي مرتعشة وشفاة تتأجج رغبة وقلوب تنتحر شوقًا هو كل ما سيطر على مسرح الأحداث.

فقط إن بعض أوجاعنا كالبراكين تحتاج زمنًا لتخْمُد، إنها تلك الأوجاع التي تكسرنا ونتوه بها عنا، نريد العودة فلا نستطيع، إنها الأوجاع التي تذبح الحياة فينا، تتركنا أحياء اسمًا أموات حسًّا أوجاع تفتك بنا، بعضها نستطيع احتواءه وبعضها يرمينا للهلاك وبعضها نتركه للزمن يرمم شروخه ويُداري شقوقه.

بيد أن لاشيء في الدنيا يمنع قلبين من أن يتعانقا، يمنع قلبين من أن ينتحرا وصلًا، فمن العبث أن يضيع الحب في انكسارات داخلية مهما توالت، من العبث أن يتوه العشق في خسارات مهما تتابعت، وبسرعة ودون صلف أو مكابرة تعاتب الحبيبان وقد تشابكت ايديهما وفجأة نسيا كل شيء وبحنان دافئ تحسس "تيمو" وجه "تامي"

:يااااااااااه، كم اشتقتُ لهذا الوجه وهذه العيون.

وفي قبلة ملتهبة غرقًا معًا، قبلة اشتهياها طويلًا، قبلة استحالا معها إلى عصفورين متعانقين، انتابتهما رعشة الوصل ورجفة اللقاء بعد الجفاء، تاريخ طويل من الشوق المستبد، شلال من الحنين الممزوج بالرغبة اجتاحهما، انخرطا معًا متنصلين عن كل شيء، ها قد وجدا ما يكفيهما ويغنيهما ويعوضهما عن كل حزن عميق ووحشة مفجعة..

يتمنيان فقط أن تمنحهما الدنيا فرصة البقاء معًا دون فقد جديد!!

تمت

رشا شمس في سطور

♥ قاصة وروائية من مواليد القاهرة، حاصلة على بكالوريوس في علم الميكروبيولوجي والأحياء الدقيقة من جامعة عين شمس بتقدير عام جيد جدًا، عملت أثناء دراستها الجامعية في مؤسسة أخبار اليوم العريقة.

♥ حاصلة على دبلومة دولية في طرق و تقنيات تدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها من جامعة كامبريدج ١٩٩٧م، تتلمذ على يديها مئات الأجانب الدارسين للعربية بلكنتيها (**الفصحى و العامية**).

♥ حاصلة على دبلومة في الأدب المقارن وعلوم الدراما من جامعة كامبريدج عام ٢٠٠٠م.

♥ شاركت في ترجمة بعض روائع الأدب العربي إلى الإنجليزية و الأسبانية و الفرنسية والأوردية والفارسية وغيرها.

♥ حاصلة على دبلومة في الإرشاد النفسي وآليات تعديل السلوك من جامعة عين شمس عام ٢٠٠٨م.

♥ عضو مؤسس لمبادرة نساء مبدعات للعمل الأدبي برعاية دار الشهد للنشر والتوزيع، تلك المبادرة معنية بتقديم المواهب والأقلام المميزة من كافة أرجاء الوطن العربي، والتي قدمت في عام و نصف خمس مجموعات قصصية غاية في التميز و الإبداع بشهادة الكثيرين من الأدباء و النقاد والمهتمين بالنهضة الأدبية الشاملة، والمجموعات هي (**وعد الروح، نون النسوة، رؤى القلب، أهو ده اللي صار، رغم الوجع**).

♥ المنسق الإعلامي و المحرر الأدبي لمبادرة نساء مبدعات.

♥ صدر لها قلوب واجفة (**مجموعة قصصية**) ، واشتاقت إليك عيناي (**رواية**) بطبعتيها من إصدار دار الشهد للنشر والتوزيع – القاهرة .

♥ صدرت لها تنهدات حارة (**مجموعة قصصية**) من إصدار دار جميرا للنشر والتوزيع – الإمارات.

♥ عضو متطوع في منظمة العفو الدولية .